إحسان عبد القدوس

علبة من الصّفيح

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة

وزارة الثقافة وتنمية المعرفة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:
محمد عطية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

عبد القدوس، إحسان محمد، 1919 - 1990.
علبة من الصفيح/ إحسان عبد القدوس. - القاهرة: دار المعارف، 2016.
312 ص، 19.5 سم
تدمك 3 8365 02 977 978
طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة
1 - القصص العربية القصيرة.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 813.01
رقم الإيداع: 10948/ 2016
رقم أمر التشغيل: 1/2016/40
رقم الكونجرس: 5 - 840245 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

تمت الطباعة بدعم من
مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
للأعمال الخيرية والإنسانية

علبة من الصفيح الصدئ

* خرجت من القرية...

* ولن أعود...

ولست حزينا.. ولا آسفا.. بالعكس.. إنى أحس براحة غريبة، وأعصابــى هادئة كما لم تهدأ من قبل، وابتســامة كبيرة تنطلق فى صــدرى، وتلقى بظلها على شــفتى.. أحس بإحســاس الأب الذى اكتشــف فجأة أن ابنه قد كبر وأصبح رجلا قويًّا.. والأب هو دائما آخر من يكتشــف أن ابنه قد أصبح رجلا.. رجلا لم يعد فى حاجة إلى أبيه!!

والواقــع أنى لم أتعمد الخروج مــن القرية، ولم أكن قد اتخذت قرارا بعدم العودة إليها.. إنما كل هذا حدث فجأة..

كنت جالســا فى المندرة مع شــقيقى الأكبر عبد الرحمن، ومعنا الشيخ حسنين مدرس المدرسة الإلزامية، ومحمد أبو عوف، وعبد الله رضوان، وأحمد الرفاعى.. وكان أخى عبد الرحمن يتصدر المجلس كعادته منذ وفاة أبى، مهيبا رزينا، جالســا على الأريكة العتيقة، وقد طوى إحدى ســاقيه تحته، ورفع ساقه الأخرى وثناها، وألقى ذراعــه على ركبته، وترك مســبحته تتدلى من يــده، وقد تباعدت حباتهــا فوق الخيط الذى يربطها.. فكلما ألقى حبة منها اصطدمت

بالحبة التى تحتها فى صوت مسموع.. وكانت تمضى الساعات ولا يصدر عن أخى صوت، إلا صوت حبات مسبحته وهى تصطدم بعضها ببعض.. فإذا توقف هذا الصوت، كان هذا إيذانا بأن أخى يهمّ أن يتكلم، فيرهف الجالسون أسماعهم، ويمدون نحوه أعناقهم، فى تلهف واهتمام.. رغم أن أكثر ما يقوله أخى لا يستحق الاهتمام!!

وفجأة قال محمد أبو عوف:

– مش برضه نشوف طريقة نقوّم بيها محامى للواد رزق..

واهتزت أصابع أخى، وهى تعبث بمسبحته، وتسارعت دقات حباتها وهى تصطدم بعضها ببعض..

وقال الشيخ حسنين وهو يملأ شدقيه بحروف كلماته:

– رزق معتوه ومجنون، وهو معفى من المسئولية شرعا، سواء بمحام، أو بغير محام..

وقال أحمد الرفاعى:

– والله أنا لسه مش مصدق.. حد كان يفتكر أن الواد رزق يعمل العمله دى..

وقال عبد الله رضوان وصوته القوى ينضح بالسخط:

– إحنا المحقوقين.. كنا سايبينه طايح فى الكفر كله واحنا عارفين أنه مجنون..

ورد محمد أبو عوف فى عصبية:

– يعنى حد كان عارف إن جنانه يوصل لحد كده.. ما هو طول عمره عايش فى الكفر، ما حدش شاف منه حاجه تخوف.

وأحسست أنى لم أعد أستطيع أن أسمع مزيدا فى موضوع رزق.. منذ أسبوع والقرية كلها تتحدث عن رزق.. وما يقال يعاد.. وكل ما يقال كلام سانج.. إن أحدا لن يفهم مشكلة رزق إلا أنا، وبرغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أشرح فهمى لها، لأن أحدا من أبناء القرية لن يفهمنى..

وأحسست أيضا أنى لم أعد أطيق سماع دقات حبات مسبحة أخى عبد الرحمن.. خيل إلى أنها دقات خطوات الفناء.. دقات قلب عالم يموت.. وأحسست بها تقع على أعصابى، وتدفعنى إلى التحدى.. تحدى الفناء.. تحدى العالم الذى يموت.. تحدى أخى.. وأنا حريص دائما على ألا أتحدى أخى.. فقمت فجأة من مجلسى، وتمتمت دون أن ألتفت إلى أحد:

- عن إذنكم..

وتوقفت دقات المسبحة، وشعرت بعينى أخى تتبعانى إلى أن وصلت إلى الباب، ثم ارتفع صوته مهيبا رزينا يشقه خيط ساخر:

- على فين يا مأمون؟

وأجبت وأنا ألتفت إليه لفتة سريعة دون أن ألتقى بعينيه:

- داخل جوه شوية..

وقال محمد أبو عوف:

- متتأخرش يا سى مأمون.. عايزين نرسى على حل فى حكاية الواد رزق..

ولم أرد عليه..

خرجت من المندرة، ولكنى لم أتجه إلى داخل البيت.. خرجت من البيت كله، وسرت فى أزقة القرية، ورأسى منكس فوق صدرى، وعيناى على الأرض، أتتبع بهما أقدام الفلاحين الذين يمرون بى.. الأقدام الحافية الكبيرة، السمراء، المشققة.. وخيل إلى وأنا أتتبع هذه الأقدام وهى تتحرك، كأن الأرض نفسها تتحرك.. تسير.. تزحف.. وأسمع من حولى همهمات.. السلام عليكم.. العواف.. شى.. حا.. هع.. وأهمهم مع المهمهمين، وأنا أحس إحساسا غريبا بأن هذه الهمهمة ليست سوى صوت احتكاك التروس التى تحرك قريتنا.. تروس بطيئة.. ولكن الحركة أكيدة.. واللون الأسمر.. لون الطين.. يملأ عينى المنكستين.. الأرض سمراء.. والجدران سمر.. والأقدام سمر.. وخيل لى أنى لو رفعت عينى فسأرى السماء سمراء.. وسأرى وجه الله أسمر..

وتوقفت عيناى عند قدمين.. قدمين صغيرتين، ولكنهما سمراوان أيضا، ومشققتان أيضا.. ورفعت عينى لألتقى بوجه «سبيلة»، وهو يطل من تحت صفيحة الماء التى تحملها.. إنها دائما تحمل شيئا فوق رأسها..

ووقفت قبالتها أملأ عينى منها.. عيناها المكحلتان.. شفتاها الرقيقتان الغامقتان.. ووجهها الهادئ الصبور، وقد اختلطت صفرته بسمرته.. وابتسامتها المهتزة الخجولة التى تحاول أن تخفف بها من نظرة استغاثة كبيرة تطل من عينيها.. إنى دائما

أرى هذه النظرة فى عينيها.. نظرة الاستغاثة تستغيث بى.. منذ كنا أطفالا وهى تستغيث بى.. ولم أستطع أبدا إغاثتها.. وبرغم ذلك فهى لم تفقد الأمل.. إنها لا تزال تستغيث بى.. ولم تصدق أبدا أنى أنا الآخر كنت أستغيث بها، وأنى كنت أكتم استغاثتى فى صدرى.. وكلانا كان أضعف من أن يغيث الآخر..

وطالت وقفتى قبالتها برهة.. حاولت أن أقول شيئا.. ولكنى لم أقله.. واهتزت شفتاها كأنها هى الأخرى تحاول أن تقول شيئا.. ولم تقله.. وبقينا صامتين.. ابتسامتى اليائسة تلتقى بابتسامتها المسكينة، ونظرتى المستسلمة تلتقى بنظرتها المستغيثة.. ثم اهتزت ذراعها التى تسند صفيحة الماء فوق رأسها، فانسكب خيط من الماء فوق جلبابها الأسود.. وارتشعت رموشها فى ارتباك، وانطلقت قطرات الخجل فى وجنتيها، وتمتمت ببضع كلمات لم تصل إلى أذنى، ثم استدارت وسارت فى طريقها..

وانتابنى شعور جارف بأنى لن أرى سبيلة بعد اليوم.. لا أدرى لماذا، فلم أكن حتى هذه اللحظة قد قررت أن أترك القرية، ولا أعود.. ووجدت نفسى ألتفت وراءها وأنظر إلى قوامها المفرود نظرة طويلة حزينة.. نظرة وداع.. ثم انتبهت، وتلفت حولى كأنى خشيت أن يكون أحد قد ضبط نظرتى.. ثم عدت أنكس رأسى فوق صدرى، وأسير..

وتجـاوزت فى سـيرى أزقة القرية، وأخذت أسـير على حافة المصرف.. عيناى منكستان على الأرض أتتبع بهما أقدام الفلاحين التى تمر بى.. ولم أرفع رأسى إلا عندما مررت بضريح أبى..

إن لأبـى ضريحا كبيرا فى القرية.. مـزار.. أقيم خارج منطقة المقابـر، على حافـة المصرف.. ولـه قبة خضراء، وفـوق القبة هلال، وبجواره مصلى صغير فرش بالحصر.. وأهل القرية والقرى المجـاورة يعتبرون أبى وليًّـا من أوليـاء الله.. كان رجلا صالحا، طيبا، عنيدا.. ولكنـه لم يكن أبدا وليًّا من أولياء الله.. وليس هناك أحـد أحبه مثلما أحببته.. وبرغم ذلك فأنا الوحيد فى القرية كلها الذى لا يؤمن بأن أبى ولى من أولياء الله.. حتى أمى آمنت بأنه كان أحد أوليـاء الله، وأخذت تذيع فى القرية حكايـات عن كراماته.. وهى ليسـت حكايـات كاذبة، ولكنها أيضا ليسـت كرامات، إنما جهل أمى وسيطرة شخصية أبى عليها، صور لها هذه الوقائع التى كان بطلهـا أبى، كأنهـا كرامات.. وأخى اسـتراح إلى اعتبار أبى مـن أوليـاء الله، وعاش فى ظل هذه الخرافة وحاول أن يسـتغلها، بل حاول أن يكون خليفتـه فى الولاية، فقلده فى تفاصيل حياته، وأصبح يدعى المهابة والرزانة مثله، ويمسـك بمسبحته، ويرتدى عمامته، ويجلس جلسـته.. وشـارك أمى فى راوية الحكايات عن كرامات أبيه الشـيخ محمـد القماش.. ولكن حكايـات أخى كانت كاذبـة، مغالى فى كذبها، وكان هو أول من يعلم أنها كاذبة.. ومع مرور السـنين.. وخلال اثنى عشـر عاما فقط ضاعت شـخصية أبى

الحقيقة.. وضاعت القضية التى وقف حياته عليها والتى أكسبته حب واحترام الفلاحين، وأصبحت شخصيته شخصية وهمية خرافية.. شخصية رجل مشغوذ مجذوب..

ووقفت أنظر إلى ضريح أبى من بعيد.. ولم أقرأ له الفاتحة كما تعود أن يقرأها كل من يمر به.. ولكنى ابتسمت له.. ابتسمت له كأنى أواسيه فى محنته، وفى شخصيته الحلوة القوية التى ضاعت وسط الخرافات التى بعثرت حوله.. ابتسمت له كأنى أشجعه على احتمال مصيره، فقد كنت دائما مقتنعا بأن أبى لا يمكن أن يكون مستريحا تحت هذه القبة الخضراء الكبيرة، ولا إلى صوت النساء وهن يتمسحن به ليتشفع لهن حتى يحملن ويلدن!

ثم تجاوزت ضريح أبى، وسرت على حافة المصرف، إلى أن التقيت ببدوى أبو خليل راكبا حماره، عائدا إلى القرية.. وما كاد بدوى يحيينى حتى قلت له كأنى أطلق أمنية ظلت حبيسة فى صدرى أمدا طويلا:

– أول ما توصل الكفر، فوت على اخويا عبد الرحمن، وقوله له إنى نزلت مصر..

وفى هذه اللحظة فقط عرفت أنى قررت أن أترك القرية، وعرفت أيضا أنى لن أعود إليها.. ورفعت رأسى، وسرت فى خطًى سريعة حازمة نحو محطة القطار.. وقد ارتاح صدرى واستقرت نفسى ووضح الطريق أمامى..

ولـم أتنبه إلى أنى مرتد جلبابى الجوخ، وفوق رأسـى الطاقية الصوف، إلا بعد أن أخذت مقعدى فى القطار.. وابتسمت.. وتخيلت ضحكـة مرفت عندما ترانى فى الجلباب.. إن أحدا من أهل القاهرة لـم يرنى أبدا مرتديا زى القرية.. بـل إن كثيرين من أصدقائى فى القاهرة لا يعلمون أنى فلاح.. الذين يعلمون هم فقط الذين شاركونى فى أكل الفطير المشلتت الذى تعودت أمى أن ترسله إلى..

ولكن صورة مرفت وصورة مجتمع القاهرة كله اختفت سـريعا من خيالى، ونسـيت أنى ما زلت مرتديا الجلباب وفوق رأسى الطاقية.. وعدت أهيم فى قصتى مع القرية.. أو على الأصح، قصة القرية معى..

* * *

وقصة القرية معى تبدأ دائما بوجه سـبيلة.. وسبيلة هى حبى الأول، وربمـا كانت حبى الوحيد، فكل مـا صادفنى بعد ذلك من علاقات عاطفيـة لم يرتفع أبدا إلى مسـتوى العاطفة التى ربطتنى بسـبيلة.. إنه حب تفتحـت عليه عيناى وأحاسيسـى، منذ تفتح وعيـى للحياة.. حياتى لا تبـدأ بوجه أمـى، ولا بوجه أبى، ولا بوجه القريـة كلها.. بل إنى أحس اليوم كلمـا همت مع ذكرياتى البعيدة، أحس كأنى لم أر وجه أمى ولا وجه أبى إلا بعد أن رأيت وجه سـبيلة.. وربما كانت نوازع الاستقلال، ومحاولة بناء الحياة الفردية تبدأ مع الطفل منذ ولادته، وكانت سـبيلة هى أول خطوة لى نحو الاسـتقلال بحياتى، أول إحساس بشخصيتى فى الحياة..

ولذلك فحياتى تبدأ منذ الأيام التى كنت ألعب فيها مع سبيلة فوق أكوام السباخ فى الساحة التى تقع أمام زريبة الدائرة.. دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وكنت أشترك معها فى تحميل السباخ فوق ظهر الحمار، ونسير معًا ومعنا الحمار إلى الغيط القريب، لنفرغ حمولة السباخ.. ثم نعود معتلين ظهر الحمار.. هى فى المقدمة وأنا خلفها.. ولا أذكر فيم كنا نتكلم أيامها، ولا ماذا كان يضحكنا، وماذا كان يبكينا.. ولكننا لم نكن نفترق أبدا.. وكنت أعود إلى البيت لأواجه صرخة أمي وهى تنظر فى هلع إلى جلبابى المتسخ:

– يا واد أنت مش حاتبطل لعب فوق كوم السباخ..

ولم أكن أستطيع أن أبتعد عن أكوام السباخ، إلا إذا ابتعدت عن سبيلة، فأبوها يعمل كلافا فى زريبة الدائرة، وهى تعمل معه.. إن أكوام السباخ بالنسبة لنا ليست مرتع لَهْو، ولكنها مكان عمل.. برغم أننا أيامها كنا نحس باللهو أكثر مما نًحس بالعمل..

ولم تكن حقيقة أن أبا سبيلة هو مجرد كلاف فقير، وأنا ابن الشيخ القماش الذى يملك أربعين فدانا.. بل إنه المالك الوحيد فى القرية.. لم تكن هذه الحقيقة تثير بيننا أى مشكلة.. لم تكن طفولتنا البريئة تستطيع أن تتبين الحبال الغليظة الخشنة التى تزحف تحت أقدامنا وتلتف حول عمرينا كلما كبرنا، لتشدنا أحدنا بعيدا عن الآخر..

وإنـــى أذكر يوما، عندما كنت فى العاشـــرة من عمرى، أن قلت لسبيلة ونحن عائدان من الغيط فوق ظهر الحمار:

– بكره تكبرى يا سبيله واتجوزك واضربك كل يوم علقة زى عم مدبولى ما بيضرب مراته..

وقالت سبيلة وهى تدير رأسها إلى:

– مـــا أنا كبرت خلاص يا مأمون.. ده أنا أكبر من نفيســـة بنت عمى بسنتين..

وكانت سبيلة أيامها فى السابعة من عمرها.

وبعد أن أصبحت أنا فى السادســـة عشـــرة، وأصبحت سبيلة فى الثالثة عشـــرة.. عدنـــا نتحدث عن الزواج.. وكانت ســـبيلة يومها جالســـة بجانب الفرن فى دارنا تســـاعد نســـاء البيت فى الخبيز، وكنـــت أنتظرها فى الحوش المجاور.. ولمـــا خرجت لحقت بها، ووقفنا نتحادث، وهى ترخى عينيها عنى، ولمســـة حمراء تسرى تحت بشرتها السمراء، وقلت ضاحكا:

– إحنا مش كنا اتفقنا على الجواز يا بت..

وأجابت وهى تحنى رأسها:

– ودى تيجـــى.. إيـــش جاب لجـــاب.. ده أنا خدامتك يا ســـى مأمون!

ويومها تنبهت لأول مرة إلى أن سبيلة تخاطبنى بلقب «سى».. سى مأمون.. ولقب «سى» ليس بسيطا.. ليس هينا.. إنه يمثل جدرانا عالية سوداء تفصل أهل القرية بعضهم عن بعض.. جدرانا سوداء،

اسمها «ســى».. وجدرانا أخرى اسمها «ســعادة البية».. وجدرانا ثالثة «سعادة الباشا».. وجدرانا رابعة اسمها «أفندينا».. والغريب أنه كلما ارتفعت الألقاب انخفضت الجدران.. فالجدار الذى يفصل بيــن «البيه» و «الباشــا»، أقل ارتفاعا من الجــدار الذى يفصل بين «ســى» و«اللاســى».. الجدار الذى يفصل بينى وبين سبيلة، جدار عال.. عال جدًّا.. شــاهق.. أعلى من الهرم.. أعلى من الجدار الذى يفصل بينى وبين ابنة ناظر دائرة أفندينا.

ولكن.. من الذى علم ســبيلة أن تنادينى بلقب «سى».. لا أحد.. لا أنــا طلبــت منهــا أن تنادينى «ســى».. ولا أبوهــا علمها كيف تنطقها.. ولا أبى.. لا أحد.. ولكن عقلها تفتح فســمعت الناس فى دنياها ينادوننى «ســى».. ووجدت البنات فى ســنها ومن طبقتها يعتبرن أنفســهن خادمات لى.. ولأبى.. ولأمــى.. ولكل عائلتنا.. فاستســلمت فى هدوء، وانزوت مع أهلها تحت الجدار، الأســود العالى، ورددت فى خنوع «أنا خدامتك يا سى مأمون»!

والغريــب أنى لم أكتشــف هذه الجــدران العالية الســوداء فى عينى ســبيلة وحدها.. ولكنى اكتشفتها فجأة أمام عينى أنا أيضا.. فــى صدرى.. أنا أيضا أقف خلف الجدار الأســود العالى، وأنزوى تحتــه.. أقف فى الناحية الأخرى التى لا تقف فيها سبيلة.. بينى وبينها هذا الجدار.. ووجدت نفسى لا أحاول أن أتخطاه.. لا أحاول أن أهدمه.. إنما أستســلم له، كما استســلمت له سبيلة من الناحية الأخرى.. وأحسست أن كل هذا الحب الذى أحمله لسبيلة لا يكفى

لهدم الجدار الأسود.. بل أحسست أن الحب أيضا كان معترفا بهذا الجدار.. وأنه نشـأ وتربى فى ظله.. وإنى دون أن أتعمد، ودون أن أدرى، كنت أسـير دائما مع سـبيلة على ناحيتى الجدار الأسود.. وإن حديثى عن الزواج بها لم يكن حديثا يعبر فى صدق عن مستقبل أرسـمه بل حديث أمنيات خيالية ليس له أثر فى واقعى النفسى.. كما أتحـدث عن الجنة.. أو عن اعتلائى عرش مصر.. مجرد أمنية بعيدة تنطلق من عقدة اجتماعية لم أفكر يوما فى حلها..

وبرغـم ذلك فقد مر بنا عمْر لم نكن نرى فيه هذا الجدار.. عمر كنـا خلاله نلعب معا فوق أكوام السـباخ، ونركـب معا الحمارة.. ولم تكن سـبيلة تناديـنـى بلقب «سـى» ولا كانت تعتبر نفسـها خادمتى.. كانت تعتبر نفسـها حبيبتى وزوجتـى.. عمر كنا فيه أطفـالا.. وربما كان الأطفال هم وحدهم الذين يسـتطيعون اختراق هـذه الجدران السـوداء العالية.. لا.. إنهـم لا يخترقونها.. إنهم يلعبون فوقها.. ونحن لم نعد نلعب.. لم نعد أطفالا..

وتركت يومها سبيلة، وأنا أحس بعاطفتى نحوها ثقيلة ولها طعم جديـد.. ثقيلة ثقل اليأس، ولهـا طعم اليأس.. طعم مر.. وقضيت عمـرى بعد ذلك أحاول أن أتعالى على هذه العاطفة.. حتى لا أصدم بهذه الجدران السـوداء.. ولكنى كنت كلما أمعنت فى التعالى على عواطفى، أحسست بنفسى أهبط.. أنخفض.. أنزل فى الواطى..

* * *

ويومها خرجت أسير بين الحقول على حافة المصرف، أحمل في صدرى هذا اليأس الثقيل.. إلى أن سمعت صوت رزق ينادينى من تحت شجرة الجميز بصوته الذى تمزقة عاهته:

– على فين يا مأمون..

واتجهت إليه وجلست بجانبه صامتا..

وتركنى رزق كعادته غارقا فى الصمت دون أن يحاول أن ينقذنى منه.. ورزق لا يزال ينادينى باسمى مجردا.. لا يضيف إليه لقب «سى».. ربما لأنه عبيط.. عبيط القرية.. عقله لم يكبر حتى يرى هذه الجدران السوداء العالية..

ورزق نشأ فلاحا فقيرا يتميا.. أكتع.. يسير وهو يرفع كتفه اليسرى، ويعرج على قدمه اليمنى، وفمه مفتوح فى بلاهة، يسيل منه لعابه بشكل منفر.. واعتقد أهل القرية أن فى رزق «شىء لله».. وتركوه يتجول فى الأزقة يفعل ما يريد.. ويدخل أى بيت ليأكل عندما يريد أن يأكل.. وينام عندما يريد أن ينام.. ولكنه كان يفضل دائما أن يبقى تحت شجرة الجميز، خارج القرية، لا يقوم من تحتها إلا تحت إصرار معدته الخاوية.. وكان من حق رزق أن يقول أى كلام.. وأهل القرية يضحكون على كل كلام يقوله.. وكان دائما – منذ كان طفلا – يحمل تحت إبطه علبة من الصفيح.. علبه متآكلة، صدئة، قذرة، لم يكن أحد من أهل القرية يعلم ما بها.. ولم يكن رزق يسمح لأحد بأن يرى ما فى علبته أو حتى يلمسها.. وهى

دائما تحت إبطه.. يأكل وهي تحت إبطه، وينام وهي تحتع إبطه، ويلعب وهي تحت إبطه.. أصبحت هذه العلبة قطعة منه.. وأهل القرية يتندرون عليها.. على العلبة.. ويحكون عنها الحكايات.. ويتوهمون أشياء كثيرة غريبة في داخلها.. دون أن يستطيع أحد أن يرى ما فيها، ولا أن يلسمها.. أنا الوحيد الذى كان لى حق لمس علبة رزق..

أنا الوحيد الذى كنت أعلم ما بداخلها..

رزق هو الذى أعطانى حق لمس علبته، وهو الذى فتحها لى لأرى ما بداخلها.. فقد كنت صديقه الوحيد.. وقد تعودت عبطه منذ طفولتى حتى لم أعد أعتبره عبيطا، بل كنت ألعب معه وأتحدث، كما ألعب وأتحدث مع بقية أطفال القرية.. وقد حدث وأنا في العاشرة من عمرى، ورزق يكبرنى بحوالى عامين.. أن التف بعض الأطفال حوله وهم يصرخون «العبيط أهو.. أهو» وبدءوا يقذفونه بالحجارة.. ثم يقتربون منه ويصفعونه على قفاه.. وهو يجرى منهم بقدمه العرجاء، وكتفه الكتعاء، ويصرخ صرخات كصرخات الأخرس، ويرفع إحدى يديه في الهواء ليحمى رأسه من الطوب.. ويده الأخرى تحتضن الصندوق الصفيح.. وجئت أنا ساعتها بالصدفة.. فاشتبكت مع الأطفال في معركة دفاعا عن رزق.. ضربتهم.. ولكنهم ضربونى أيضا.. وأسالوا الدم من وجهى.. وبعد أن انصرف المعتدون.. سرت إلى المصرف وانحنيت أغسل وجهى

مـن دمائى، ورزق بجانبـى ينظر إلىَّ نظرات حب. حب لم أره فى عينـى أى صديـق حتى اليوم.. وفمه مفتوح يسـيل منه لعابه.. ثم جذب العلبة الصفيح من تحت إبطه.. ومد يده بها إلىّ.. ولمسـتها كأنى أتبرك بها..

واتسـعت الابتسامة البلهاء بين شفيته.. ثم اقترب منى أكثر.. وتلفت حوله فى تردد وخوف، وعندما لم ير أحدا حولنا، فتح غطاء العلبة أمامى.. كأنه يفتح لى حياته كلها لأشاركه فيها..

وكبرت.. وكبـر رزق، وعاهته تكبر معه.. وكلما كبرت عاهته استأنسـتها أكثر.. أصبحت أحس بأن رزق ليس عبيطا.. كما يقول أهل القرية.. وليس متعابطا أيضا.. ولكن فى عبطه خيطا من النظرة المباشـرة إلى الأعماق.. وجرأة عجيبـة لا تتوافر فى أحد من أهل القريـة.. جرأة تصل به إلى الصدق مباشـرة دون لـف أو دوران.. جرأة العبيـط.. ربما لم يكن عبيطا إطلاقا ولكنه فيلسـوف رفعته فلسفته فوق مستوى البشر فبدا كالعبيط.. جريئا، أمعن فى جرأته إلـى حد أن الناس لم تعد تصدق جرأتـه.. لابد أن هذه الجرأة هى أحـد مظاهـر العبط.. ولا بد أنه عبيـط.. وكان رزق هو الوحيد من أهل القرية، بل من أهل المديرية الذى يسـتطيع أن يسـب سعادة كامل بك مرتضى، ناظر دائرة الأمير ولى الدين سـامح.. ويسبه فى وجهه.. وقد وقف أمامه مرة وهو يهم بركوب «الكرتة»، وصرخ:

– يا راجل بطل أكل العيال.. أحسن تطق تموت.. العيال لحمهم مسموم!

ورفع شـيخ الخفر كفه الغليظة وهوى بها على قفا رزق.. وكتم بقية الفلاحين الذين سـمعوه ابتسـاماتهم.. وما كاد سـعادة البيه الناظر يبتعد حتى انطلقـوا يضحكون على عبط رزق.. ولكنى واثق أنهم بلا وعى منهم كانوا يحسـون فى أعماق ضحكاتهم بطعم مر.. طعـم الصدق الذى نطق به رزق.. فسـعادة البيـه كان يأكل عيالهم فعـلا.. أرزاق عيالهم.. حتى أبى.. الشـيخ محمـد القماش، بكل جلاله ووقاره، كان رزق يتجرأ عليه ويصرخ فى وجهـه:

- ارفع رأسـك يا شيخ.. اتق الله واوعَ تسود دقنك البيضة.. اتق الله.. اتق الله.. إوعى ذقنك البيضة تسود..

ولـم يكن أبى يضحك لكلمات رزق، بل كان يطأطئ رأسـه كأنه يفكر فيها .. أو كأنه يخاف أن يضع عينيه فى عينى رزق..

وكان رزق يمر برجال القرية وهم متجمعون حول المصاطب فى المساء، فيقول محييا:

- العواف يانسوان..

وأحيانا أخرى يمر بهم فيقول:

- مساء الخير يارجالة..

ولم يكن أحد منهم يدرى متى يحييهم رزق تحية «النسوان» ولا متـى يحييهم تحية «الرجال» فهم يضحكـون دائما كلما مر بهم، وكلمـا قرأ عليهم التحيـة.. ولكنى كنت واثقا بـأن كلًّا منهم كان يحـس أنه تصرف فى يومه تصرف النسـوان، عندما يحييه رزق

بتحية النسوان.. وتصرف تصرف الرجال عندما يحييه رزق تحية الرجال..

وكان رزق فــى نظــرى - برغم عبطه - هو أكثــر الناس فهما لمشكلة قريتنا..

ومشــكلة قريتنــا كانت فــى وجودها ضمن دائــرة الأميرة ولى الدين ســامح.. وقد كانــت حدود دائرة الأمير فــى الماضى، تقف خارج حدود المركز.. ولكنها بدأت تمتد، وتتسع.. فكان كامل بك مرتضى يشــترى الأرض من أصحابها ويضمها إلى أملاك الدائرة .. حتى اشــترى كل الأراضى المحيطة بقريتنا.. والناس تبيع إما عن حاجة للبيع، أو تحت ضغط التهديد والإرهاب ومضايقات الجهات الرسمية .. ثم بدأ كامل بك مرتضى يزحف على زمام قريتنا.. وكان فيها خمس ملاك سقطوا بسرعة الواحد بعد الآخر.. ولم يبق منهم سوى أبى .. الشيخ محمد القماش.. والأربعين فدانا التى يملكها..

ووقف أبى فى عناد يرفض أن يبيع أرضه..

وفشــل كامل مرتضى فــى إغرائه بالمال.. لقــد عرض عليه فى الفدان الواحد، ألف جنيه.. ولكن أبى ظل على عناده..

واشتعلت الحرب بينهما..

كل ما يمكن أن يفعله كامل مرتضى، فعله.. ســرق منا البهائم، وكان كل من فى القرية يعلم أن رجال الدائرة هم الذين ســرقوها.. وســلط علينــا بنك التســليف.. و.. وفعل الكثيــر .. ولكن أبى ظل

صامدا فى قسوة.. وكان يســتمد قوته من أهل القرية أنفسهم.. فقد كانــوا يؤمنون به .. يؤمنون به كعالم وفقيــه فى الدين.. ويؤمنون بــه كزعيم..ويؤمنون به كولى مــن أوليــاء الله الصالحين.. وكانوا يلجأون إليه فى أخص شــئونهم.. حتى المرأة التى يمتنع زوجها عن معاشرتها كانت تلجأ إليه .. ولم يكن هذا الإيمان عن خداع، أو عن بله، فقــد كان أبى يجب أهل قريته فعلا، ويتعصب لهم، وقد عاش فى القرية طوال عمره، لا يغيب عنها إلا يوما أو يومين كل عام يذهــب خلالهما إلى المركز أو إلــى القاهرة.. ثم يعود إلى القرية، لينحنــى كل أهلها - رجالها ونســاؤها وأطفالهــا - يقبلون يده.. وقد زادهم موقفه من ناظــر الدائرة وتحديه له، إيمانا به.. وبيته مفتوح لهم جميعا.. لكل أهل القرية .. وفى كل مســاء كانت توضع صوانى العشــاء فى القاعة الكبرة، ويلتف حولها كل من يريد من أهل القرية.. عشــرون.. ثلاثون.. أربعون.. وقبل أن، توضع أطباق الطعــام فوق الصوانى، كان أبى يدخــل إلى القاعة بقامته المهيبة، وذقنــه الناصع البياض، وفى يده عود صغير من الحطب ويدور بين الجالســين، ثم يلمس كتف أحدهم بعود الحطب، ويقول فى صوت وقورى هادئ:

- قوم انت روح يا أبو إسماعيل..

ويحنى أبو إسماعيل رأسه ويقوم يجرى خارج القاعة متعثرا فى جلبابه وعيناه ساقطتان بين قديمه..

ثم يلمس أبى كتفا آخر بعود الحطب:

- روح ياواد يا شحاته..

ويخرج أبى من بين الجالسين خمسة أوستة، وأحيانا لا يخرج أحدا ثم يتصدر القاعة، ويأكل مع أهله.. أهل قريته..

وكان كل من فى القرية يخشى لمسة عود الحطب الذى يحمله الشيخ محمد القماش، أكثر مما يخشى حبل المشنقة. فقد كانت هذه اللمسة تعنى غضب الله.. فالشيخ القماش ولى من أولياء الله، فإذا طرد أحدا من بيته، فقد طرد من بيت الله.. من جنة الله.. وحق عليه العذاب المقيم.. وكان هذا هو اعتقاد أهل القرية فعلا.. وكانوا يجلسون حول صوانى العشاء قبل أن يدخل أبى، وهم يرتعشون، كل منهم ينتظر حكم الله ويخشى غضبه ونقمته.. ولكن الواقع ان أبى لم يكن يتصرف هذا التصرف إيمانا منه بأنه ولى من أولياء الله.. ولا افتعالا لصورة من صور الشعوذة التى قد تجوز على عقول الفلاحين، ولكنه كان يطرد من بيته كل من يعلم أنه باع نفسه للدائرة وأصبح عميلا لها ينقل إليها الأخبار، ويشترك فى مؤامراتها، ولم يجد عقابا لمثل هذا الإنسان اخف من أن يحرمه من الكل على مائدته.. ولم يكن أبى يهمه أن يبيع الفلاح عمله للدائرة، فالفلاح يجب أن يعمل مهما بخس أجره، وما دامت الدائرة هى التى تملك كل الأرض فهو مضطر أن يعمل لها.. ولكن هناك فرقا بين أن يبيع الإنسان عمله، وأن يبيع نفسه.. ولم يكن أبى يعاقب

إلا من يبيع نفسه .. وهو عقاب لم تكن قيمته الحرمان من الطعام، فالطعام الذى كنا نقدمه لم يكن دسما، ولم نكن أغنياء إلى حد أن نقدم طعاما دسما لكل هؤلاء الناس كل ليلة.. ولا كان العقاب يقصد به أبى أن ينزل غضب الله على أحد، ولكنه كان عقابا أدبيا، فكل من كان يطرد من بيت القماش، كان يزدرى من أهل القرية جميعا.. وكثيرون منهم كانوا لا يطيقون هذا العقاب طويلا، فيعودون إلى بيتنا بعد أسبوع أو أسبوعين بعد أن يتطهروا ويستردوا نفوسهم.. وكان أبى يحس بمن تطهر منهم فيفسح له مكانا واسعا حول صوان العشاء .. والذين لا يتطهرون كانوا غالبا ما يرحلون من القرية إلى إحدى القرى الأخرى التى تقع فى أملاك الدائرة..

كانت هذه هى قوة أبى..

وقد حدث يوما أن أمر كامل بك مرتضى رجاله بقطع المياه عن أرضنا.. وأمر بتشغيل مكنات الرى التى تملكها الدائرة ليل نهار حتى تشفط كل المياه قبل أن تصل إلينا.. وكانت هذه المياه تلقى فى أرض ليست فى حاجة إليها.. بل كانت تفسد الأرض التى تلقى فيها.. إلى هذا الحد بلغ العناد..

وفى المساء خرج رجال القرية صامتين، وكل منهم يحمل طنبورا أو جردل شادوف.. جمعوا كل طنابير، وسرقوا بعضها من مخازن الدائرة.. ثم تسلل بعضهم إلى أرض الدائرة، وغطسوا فى الترعة ونزعوا منها مواسير مكنات الرى.. ثم ألقى الرجال

بالطنابير والشواديف فى مياه «الجنابية» التى تدفقت فيها المياه، وبدءوا يعملون.. أكثر من عشـرين طنبورا وعشرين شادوفا.. عملوا طوال الليل.

وفى الصباح، كانت أرضنا كلها قد ارتوت..

وكان الرجـال قد رفعوا الطنابير وجرادل الشـواديف، وأعادوا مواسير المكنات إلى مكانها..

و.. وجن كامل مرتضى..

وعاد كامل مرتضى وأصدر أمرا بأن كل من يعمل من الفلاحين فى أرض الشـيخ القماش ، لا يعمل فى أراضى الدائرة.. وأصبح يسـلط عليهم رجال المركز.. ولم نيأس .. أصبح الرجال يعلمون فى أرضنا بالليل.. دون أن يدرى أحد..

حوادث كثيرة ..

وأخـى عبد الرحمـن يحمل بندقيـة ومعه اثنان مـن رجالنا، يطوفون طـوال الليل حـول الأرض، وزريبة البهائـم، والمخزن ليصدوا اعتداءات رجال الدائرة..

وبرغم ذلك..

برغم كل ذلك..

لـم يكن أبى ثائرا على الأمير .. الأمير ولى الدين سـامح.. كان ثائـرا على كامل بك مرتضى وحده.. وكان يؤمن بأن لو انزاح كامل بك مرتضى من منصبه، فستنصلح الأمور.. بل كان أبى يكتب كثيرا

من العرائض والاسترحامات إلى الأمير يشكو له ظلم ناظر الدائرة، ويطالب بعزله.. بل إن أبى حاول أكثر من مرة أن يتفاوض مع كامل بك مرتضى وذهب إليه فى السراى بنفسه أكثر من مرة..

وفى آخر مرة ذهبت معه..

ذهبنا إلى سراى الأمير التى تقع فيها مكاتب الدائرة..

وجلست بجانب أبى على دكة خشبية بجوار باب مكتب كامل بك مرتضى.. جلسنا طويلا.. من الساعة العاشرة صباحا حتى الثانية بعد الظهر .. لم يقدم خلالها فنجان قهوة إلى أبى .. ولا اهتم به أحد..

ثم فجأة فتح باب المكتب وخرج كامل مرتضى، منفوشا سمينا، له كرش ضخم، ووجهه لون طربوشه الطويل المعوج فوق رأسه، ووقف أمام أبى ينظر إليه فى قرف، وقد هم أبى واقفا أمامه.. وقال كامل مرتضى فى عجرفة تنطلق من أنفه كالصفير:

- نعم .. أفندم ..

وقال أبى فى دعة:

- أنا قلت يمكن سعادتك مش عارف اللى بيحصل إيه، أصل..

وقاطعة كامل مرتضى صارخا:

- أنا عارف كل حاجة .. اسمع ياراجل يا دجال انت، إذا مَكُنتش حتبطل نمردة، وتمشى زى الجزمة القديمة، أنا حوديك فى داهية، حاحط دقنك فى الطين.. فاهم ..

وارتعش أبى فى غضب، وقال فى صوت يحاول جهده ألا يكون صراخا:

- انــت ما تقــدرش تعمل حاجة.. فيه اللــى أكبر منك.. واللى أكبر من اللى أكبر منك..

وصرخ كامل مرتضى:

- أنت بترد على ياراجل يادجال..

ثم رفع كفه وهوى بها على صدغ أبى ..

ووجدت نفسى أهجم على كامل مرتضى أضربه بيدى فى كرشه، وأضربه بقدمى فى ساقه ..

وكامل مرتضى يصرخ:

- امشى اطلع بره.. خدوا الراجل ده بره..

وأبى حنى رأسه صامتا..

وجذبنا رجال الدائرة إلى الخارج..

وظــل أبــى صامتــا، وأنا صامــت بجانبــة أقــاوم دموعى بكل إرادتى،ومــا كدنا نقترب من القرية، حتــى تركته، وجريت إلى شـجرة الجميز وألقيت بنفسى تحتها.. دفنت رأسى فى التراب.. وبكيت.. بكيت كثيرا..

وعندما انتهت كل دموعى، ورفعت رأسى، وجدت رزقا جالسا بجانبى ينظر إلى بعينين حزينتين، وفمه مفتوح إلى آخره يســيل منه لعابه.. وقلت وأنا مازلت أنهنه بالبكاء:

– ضربوا الشـيخ القماش يارزق.. الراجـل ضرب ابويا.. ضربه قدامي..

وأحسست بأسياخ حادة من الكراهية تنطلق ساعتها في صدرى.. الكراهية والحقد.. الحقد على كامل مرتضى.. وعلى الأمير.. وعلى الملك.. وعلى الدنيا كلها..

ورزق ينظر إلى صامتا..

ثم لمعت عيناه فجـأة.. انزاحت منها النظرة الحزينة، وحلت محلهـا نظرة مرحة ضاحكـة.. ثم أخرج من عـب جلبابه الممزق القذر، حبة جوافة، وقال في بلاهه:

– خد دى..

ولا أدرى لماذا نظرت إلى رزق سـاعتها كأنه منقذى الوحيد.. وأخذت منه حبه الجوافة صامتا، وفي عيني تسـاؤل، كأني أسأله عن الطريق..

وبعد يومين..

يومين فقط..

استيقظت القرية كلها على لهب حريق، يشتعل هناك.. بعيدا.. فـي زراعة الدائرة.. وخرج النـاس كلهم إلى أطرف القرية يراقبون ألسـنة النار وهي تلتهم في سرعة وجنون أعواد القمح الصفراء التي كانت على وشك الحصاد.. والتفت أبحث بين الناس عن رزق.. ولكن رزقا لم يكن بين الناس.. ولم يهتم أحد غيرى بالبحث عنه..

واســتمر الحريق يوما وليلة.. والتهم أكثر من مائة فدان قمح.. فقد كانت الأعواد جافة والريح هائجة..

وجن كامل مرتضى..

وجن الأمير فى القاهرة..

وجنــت وزارة الداخليــة، والمديــر، والمأمــور، والضابــط، والعمدة،وشيخ الخفر..

ودار تحقيق قاس سريع..

وكان يمكــن أن يقبــض على أبى.. ولكن أبى كان قد ســافر منذ يومين إلى القاهرة ليحاول أن يقابل الأمير ليشكو له كامل مرتضى، وثبت أنـه قضى هذين اليومين على باب الأمير..

لم تثبت التهمة على أحد..

حجزوا العشرات فى المركز ، ولم تثبت التهمة على أحد..ولم يكن أحد يعلم من أشــعل الحريق.. أبى كان صادقا وهو يقســم أنـه لا يعلم من الجانى.. وكل الناس لا يعلمون..

أنا وحدى الذى كنت أعلم..

إنـه رزق..

وذهبــت ليلة الحريــق أبحث عن رزق فــى كل بيت من بيوت القرية،فلم أجده.. وذهبت إلى شــجرة الجميز وانتظرتـه تحتـها.. انتظرتـه طويلا.. وعند الفجر رأيتـه قادما من بعيد يعرج على ساقه اليمنــى، ويرفع كتفه الكتعــاء، وصندوقه الصفيــح تحت إبطه..

وما كاد يقترب حتى لمحت عينيه متسعتبين اتساعا غريبا، تطلان من خلال الطين الذى يكسو وجهه وتلمعان لمعه الجنون، وصرخ بمجرد أن رآنى:

- شفت النار يامأمون.. النار.. النار..النار أكبر من كرش كامل مرتضى.. أكبر..

وجلس بجانبى تحت الشجرة..

وقلت له مبتسما كأنيأستدرجه:

- كنت فين يارزق؟

ونظرت إلى بعينيه المجنونتين، ثم قال بصوته المحشرج الذى يتعثر فى عاهته:

- النار يا مأمون.. النار.. النار ..

ثم مدد جسده على الأرض، وألقى رأسه على ساقى، ونام.. كالطفل البرئ .. وفمه لا يزال مفتوحا ولعابه يسيل .. وعلبته الصفيح الصدئة فى يدة يضغط عليها بكل أصابعه..

وركزت عينى فوق العلبة الصفيح..

إنى أعلم ما فيها..

أنا الوحيد فى القرية كلها الذى يعلم ما فى العلبة الصفيح الصدئة..

وقد حفظت سر رزق..

ومع الأيام حفظ التحقيق فى حادث الحريق، وأضيف إلى رصيد كرامات أبى كرامة جديدة، فقد انتشرت بين الفلاحين قصه تقول

إن الشيخ القماش ذهب وهو فى القاهرة إلى ضريح الحسين، وأشعل عودا من الثقاب وألقاه فى الهواء، فسقط مشتعلا فى بلدنا وأحرق قمح الدائرة..

* * *

وزوجوا «سبيلة» وهى فى الرابعة عشرة من عمرها.. زوجوها إلى كلاف كأبيها يعمل فى زرائب الدائرة..

واستلمت لزواجها.. حاولت قدر طاقتى أن أقنع نفسى بأن الأمر لا يهمنى .. تجمدت .. وازددت انطواء تحت الجدار الأسود العالى الذى يفصل بينى وبينها .. وأصبحت أتعمد أن أتجنبها.. ألا ألتقى بها .. كأنى كنت أخشى لو واجتها أن ينهار الجدار العالى .. كأنى فى دخلية نفسى كنت حريصا على الإبقاء على هذا الجدار العالى أكثر من حرصى على الإبقاء على حبى ..

ولكننا التقينا .. فى صباح يوم زواجها .. التقينا فى حوش دارنا ..ووقفت أمامى صامتة، تنظر إلى بعينيها المستغيثتين .. وكانت استغاثتهما فى هذا اليوم أكبر وأعنف .. استغاثة كالصراخ.. ولم أستطع أن أواجه نظرتها طويلا .. ماذا أستطيع أن أفعل .. كيف أغيثها وأغيث نفسى .. لا شىء أستطيعه .. هذه الجدر العالية قائمة، وستظل قائمة ..إنها أقوى منى ومنها .. ومن القرية كلها .. ومن مصر كلها .. ومن العالم أجمع ..

– حتتجوزى الليلة يابت..

وأكـــدت على كلمة «بت» كأنى أصلـــب الجدار العالى الذى يقف بينى وبينها ..

ولم ترد على .. ظلت تنظر إلى بعينيها المستغيثتين ..

وعدت أتمتم:

– والله كبرتى واتجوزتى ياسبيلة .. مبروك ..

ولم ترد علىَّ أيضا .. وســحبت عينيها المستغيثتين وجرت من أمامى، قبل أن أرى دموعها ..

وأصبحت لا أطيق حياتى فى القرية ..

بدأت أشعر بطاقة ثورية هائلة تتململ فى صدرى، وتهدر كأنها بركان على وشك الانفجار .. لم يعد شيء يرضينى، ولا شئ يكفينى ..وهذا الشعب الصغير الذى يحيط به – شعب القرية – أصبح يمثل حدودا ضيقــة تلتف حولى كقضبان الســجن.. وعناد أبى وصلابته لم يعد يكفى لإقناعى .. إنى أتطلع إلى حدود أوســع .. إلى معركة أكبر .. وفترات طويلة من الزهق، والملل، تنهشنى..

إلى أن نلت الشــهادة التوجيهية، والتحقــت بكلية التجارة، وانتقلت إلى القاهرة لأقيم فى شــقة صغيرة اســتأجرها لى أبى فى حى المنيرة..

وخلال الأسابيع الأولى من إقامتى فى القاهرة التقيت بعبد الحميد أبــو الذهب .. طالب فى كلية الحقــوق .. يكبرنى بثلاثة أعوام .. مــن عندنا .. مــن الدقهلية .. وهو جاد فى مظهــره .. تبرق عيناه

الضيقتان وسط وجهه الأبيض، وشفتاه الرفيعتان مزمومتان دائما كأنه يخفى خلفهما قنبلة، وأنفه الكبير مشفوط دائما كأنه يضيق بالهواء الذى يتنفسه وشعرات قد سقط عن رأسه كأنها احترقت بنار فكره .. وبرغم مظهره الجاد فلم يكن عبد الحميد متزمتا لا ثقيل الظل، بل كان يبدو أحيانا مرحا، وكان يشارك زملاءه فى لهوهم وفى لعب البوكر والكونكان والكومى ..وكانت له قدرة عجيبة على اكتساب قلوب الناس .. وهو لم يكتسب قلبى فحسب، بل كسب اقتناعى .. وعلمنى .. علمنى الثورة .. وربما كان أول ما تعلمته منه هو أن كل هذه المظاهر السياسية والاجتماعية التى تحيط بى، ليست ظواهر طبيعة .. ليست حقائق علمية كدوران الأرض، وشروق الشمس .. ولكنى الذى يصنع الحياة السياسية والاجتماعية هو الإنسان .. وهى تتشكل حسب قيمة الإنسان فى بلده .. حسب قدرته .. وحسب حاجته .. حسب ضعفه أو قوته .. واقتنعت ..اقتنعت بأن الملك ليس جالسا على عرشه لأن الطبيعة أرادت له أن يجلس عليه .. وهذه الأحزاب ليست كواكب نثرها الله فى السماء .. وهذه الشخصيات الزعامية التى كانت تملؤنى رهبة وأنا أردد اسمها فى القرية، ليست شخصيات أنبياء، ولا رسل، ولا عباقرة،إنها مجرد ناس .. وكل شىء يمكن تغييره .. أسهل مما تغير فردة الحذاء ..

وبدأت تجتاحنى شهوة عارمة للتغيير .. تغيير كل شىء .. حتى التقاليد الاجتماعية التى عشت حريصا طول عمرى، يجب أن

تتغير.. والسخط يستبد بى .. سخط عنيف يعذبنى .. يحرقنى .. وينطلق كألسنة النار ليحرق كل من حولى .. وكفرت بكل شىء .. كفر فيه مقت، وفيه كراهية، وفيه ازدراء .. لم أعد أومن بشىء إلا بمعان مجردة، ليس لها شكل، وليس لها مقر .. الحرية .. العدالة .. الشعب .. التقدم .. و .. و .. وأسير دائما خلف عبد الحميد .. يأخذنى معه إلى اجتماعات الثوار .. وأشتراك معه فى تدبير المظاهرات ، وطبع المنشورات وتوزيعها ، وتدبير عمليات التخريب .. وكنت عنيفا حادًّا ، واكتسبت اسما كبيرا بين ثوار الطلبة، وقبض على أكثر من مرة .. ويفرج عنى لأعود أكثر عنيفا وحدة، ومجال ثورتى يتسع أمامى .. إنه يتسع ليشمل مصر كلها .. ولكنى ما زلت أحس فى قرارة نفسى بأن كل هذه الثورة تنطلق من قريتى .. وأن أساس كل التغييرات التى أسعى إليها هو تغيير ما يجرى فى قريتى .. أن أعزل كامل مرتضى .. وأن أذل الأمير ولى الدين سامح .. وأن أهدم أملاك الدائرة التى تحاول أن تمتد لتبتلع الأربعين فدانا التى نملكها..

* * *

وجاءت أمى لتزورنى فى القاهرة تحمل أسبته الفطير المشلتت، والزبد والقشطة، والعسل، وقفص الفراخ والبط، وتجر وراءها سبيلة..

نعم، سبيلة ..

حبيبتى سبيلة ..

ونظرت إلى سـبيلة فى هلع .. كنـت أعلم لماذا جاءت بها أمى إلـى .. فقد جرت التقاليد فى طبقتنا – طبقة أعيان الريف – عندنا ترسـل أحد أولادها إلـى القاهرة ليتعلم، أن ترسـل معه امرأة من الفلاحات .. قد تكـون مطلقة، أو قد تكون زوجة .. ولا تكون أبدا بكرا .. لتخدمه، ولتشبع شبابه حماية له من نساء المدينة .. إنها تقاليـد يقرها الآباء والأمهات ويقرهـا الفلاحون .. تقاليد، تقاليد حتى لو كانت فى حقيقتها نوعا من الدعارة السرية ..

وحاولت أن أجادل أمى..

– ليه يا أمه جبتى معاك سبيلة ..

ونظرت إلى أمى وقد شق وجهها الطيب ابتسامة خبيثة:

– أهى يابنـى تخدمك بدل ما تحتاج لحد من بتوع مصر .. دى بنت زى الجن ..

قلت :

– بس دى مسـئولية .. وأنا طـول النهار برة البيت .. وأخاف أسيبها لوحدها..

وقالـت أمـى وذكاؤهـا الطيّـب المسـكين يلمع فـى عينيها، وابتسامتها الخبيثة تتسع :

– ما تخافش .. أنا ضمناها .. يعنى مش عارف سـبيله.. وعبثا حاولت إقناعها..

وقد عادت أمى إلى القريـة بعد أيام، ورفضت بإصرار أن تأخذ معها سبيلة .. تركتها لى ..

وقضيت الليلة الأولى أتقلب فى فراشى .. عروقى تتمزق.. ضلوعى تنطبق عى صدرى.. أكاد لا أستطيع أن ألتقط أنفاسى.. وسبيلة راقدة فى المطبخ، على البلاط .. هل يمكن أن أدعوها إلى فراشي .. هلى يمكن أن ينقلب كل هذا الحب الذى عشت فيه عمرى كله، إلى مجرد امرأة فى الفراش ..

وقمت من فراشى وخرجت من الغرفة.. لا أدرى لماذا .. ربما أقنعت نفسى بأنى فى حاجة إلى كوب ماء.. وما كدت أفتح غرفتى حتى وجدت سبيلة مكومة علـى الأرض بجانب الباب .. ورفعت إلى وجهها الذى يختلط فيه لون الأرض بلون المرض ، وفى عينيها هذه النظرة المستغيثة..

إنها تعلم لماذا جاءوا بها إلى ..

إنها تعرف دورها، وقد ارتضته، كالقدر..

ووجدت نفسى أصرخ فيها وأنا أرتعش:

– قاعدة هنا ليه بابت..

وقالت وهى تهب واقفة وتقف مرتعشة كرعشتى:

– يمكن تكون عايز حاجه يا سى مأمون..

ودون أن أدرى، رفعت يـدى وهويت على صدغها .. ثم انهلت عليها ضربا .. لم أكن أضربها .. كنت أضرب هذه التقاليد .. أضرب هذا الذل .. أضرب نفسى .. وأضرب حبى .. وأنا أصرخ:

– إوعى تانى مرة تخرجى من المطبخ من غير ما قولك .. انجرى قدامى ..

وجرت من أمامى مذعورة ..
ومضت ثلاث ليال وأنا أتعذب..
أتعذب بثورتى ..
وأتعذب بشبابى..
وأتعذب بحبى..
وأتعذب بهذه التقاليد ..
ثم لم أعد أطيق .. استيقظت فى الصباح، وصرخت فيها:
- لمى هدومك يابت ..

ثم أخذتها وهى مستسلمة ودموعها تنبثق من عينيها المستغيثين، وعدت بها إلى القرية .. ركبت معها القطار حتى محطة المركز، ثم تركتها تسير وحدها إلى الكفر وهى تتعثر وتنتفض كالعصفور المبلل المكسور الجناح.. ولم أدخل أنا القرية .. انتظرت فى محطة المركز حتى ركبت القطار الذى عاد إلى القاهرة ..

* * *

ومرت سنوات ..

سنوات عنيفة .. وثورتى تزداد حدة وتهورا .. لم أعد أرى شيئا إلا بريق الثورة .. ولم أعد أريد شيئا إلا أن تشتد عاصفة الثورة حتى تقتلع كل الأشجار ، وكل البيوت وكل الجذور .. ودخلت السجن مرة أخرى..وفى هذه المرة علم أبى، فجاء إلى القاهرة

ليتوسط حتى يفرج عنى ..يتوسط لدى من .. لدى الأمير ولى الدين سامح .. وقد أفرج عنى فعلا، ولا أدرى هل أفرج عنى بفضل وساطة الأميــر، أو لأن الحكومة رأت الإفراج عنى بلا وســاطة .. لا أدرى .. ولكنى أحسست بدمائى كلهاتنزف من أعصابى عند ما علمت أن أبى كان يتوسـط لى لدى الأمير .. إنه لا يعلم أن ثورتى ثورة على الأمير .. إنه لا يعلم أنى سأسـير إلى آخر الطريق حتى أحطم هذا الأمير، وكل الأمراء .. ســواء سجنت أو شـنقت .. ومن هذا اليوم تعـودت أن أحتفظ فى البيت بمجموعة من الخطابات كتبتها مقدما إلى أبى، حتى إذا سـجنت مرة أخرى تولى أحد أصدقائى إرسالها إليه الواحد بعد الآخر، فيطمئن إلى أنى خارج السجن ..

وأذكر أيامها أن أبى ســألنى بعد أن أفرج عنى، وهو جالس فى شـقتى بالمنيرة، ومسـبحته بين يديه، والوقار والهيبة يكسوان وجهه، ولحيته البيضاء تشع نورا:

– إوعى يانى تكون شيوعى ..

وسكت .. ترددت .. لم أدر بماذا أجيبه .. وعاد صوت أبى الوقور يردد:

– إوعى يابنى .. دول كفره ملحدين ..

وقلت فى اختصار وأنا أدير عينى عنه:

– لا .. مش شيوعى ..

والواقـع أنــى لــم أكن شـيوعيا.. ولم أكــن أيضا شـيئا آخر .. لا شيوعى .. ولا إخوانى .. ولا وفدى .. ولا دستورى .. فقط ثائر.

ثائر من أجل المعانى المجردة التى تملأ رأســى، وقلبى، وأعصابى .. الحرية.. العدالة .. التقدم .. مصر ..

والثورة تستبد بى ..

إلى أن حدثت ..

تحققت ثورة ٢٣ يوليو ..

وبسرعة .. أســرع من خيالى .. سقط كل شىء كالأوراق الهشة المحترقة .. ســقط الملك .. وســقط الأمراء .. وسقطت الأحزاب .. وسقط كامل بك مرتضى.. وسقطت دائرة الأمير.. لقد استولت الثورة على كل الأرض، ووزعتها على الفلاحين .. صغار الفلاحين ..

وذهبت إلى قريتنا لأحضر الاحتفال بتوزيع الأرض ..

ولم يشــهد أبى هذا اليوم .. لقد مات فــى يوم ٢٦ يوليو .. بعد الثورة بثلاثة أيام .. ودفنوه تحت هذه القبة الخضراء.

وفــى هذا اليوم .. يوم الاحتفــال بتوزيع الأرض .. اقترب منى رزق العبيــط، وفمه مفتوح ولعابه يســيل ثم نظر إلى بعينين خيل إلى أن فيهما لمحة من الخوف، وصاح كأنه رأى فى وجهى شــيئا أخافه:

- حاسب يا مأمون .. حاسب لتقع ..

ثم ضحــك ضحكة كبيــرة كريهة وانصرف عنى بســرعة كأنه يخاف منى ..

ولم أعلق يومها أهمية، لما يقوله رزق .. إنه عبيط ..

وعدت إلى القاهرة وأنا أشعر براحة .. راحه عميقة حلوة شملت كل كيانــي .. ارتخت أعصابى .. وهدأ قلبــى .. وخمدت النار فى رأســى .. إنى أحس أنى أديت واجبــى وانتهيت .. من حقى الآن أن أستريح ..

ونعمت بهذه الراحة ..

ولعلى نسيت قريتنا ..

تركــت لأخرى عبد الرحمــن الأربعين فدانا كلهــا ليديرها .. وبقيت أنا فى القاهرة ..

مستريحا ..

* * *

وسنوات الراحة تتوالى ..

وكان صديقى عبد الحميد قد عين رئيســا لمجلس إدارة شــركة المعادن، ولم يرشــحه لهذا المنصب كفاءته فهو كخريج فى كلية الحقوق ومحام ســابق ، لا يفهم شــيئا فى المعادن، وإن كان يدعى الفهم .. ولكن رشــحه لهذا المنصب ماضيه الثورى، وهو ماض لا يستطيع أحد إنكاره..

وعيننى عبد الحميد، مديرا عاما للشــركة .. فى الواقع أنه عين فى الشــركة كل أفراد شــلتنا القديمة .. إن العمــل يتطلب تفاهما وتجانسا بين القائمين به خصوصا فى هذه المرحلة التى نجتازها، ولا يمكن أن يتحقــق التفاهم والتجانس أكثر مما يتحقق بين أفراد الشلة الواحدة التى تزاملت منذ أيام الدارسة..

وانتقلت من شقتى فى المنيرة .. إلى شقة كبيرة أنيقة فى الزمالك تطل على نادى الجزيرة .. شقة من شقق الحراسة دلنى عليها صديقى عبد العزيز رفعت عضو مجلس إدارة شركة الحياة للتأمين، وهو من الثوار القدماء أيضا .. إنها شقة لقطة .. خمس غرف، والإيجار اثنا عشر جنيها فى الشهر .. ولم أدفع خلو رجل .. ولكنى كنت محتاجا لحوالى ألفى جنيه لأشترى أثاثا يليق «بالديكور» الذى تركه فيها صاحبها السابق الخواجة الذى هاجر من مصر .. وكان هذا سهلا أيضا فقد اقترضت المبلغ من بنك النهضة، بضمان صديقى على المرجوشى، عضو مجلس إدارة البنك، وهو أيضا صديق قديم من الثوار ..

إن تأثيث شقة ليس أمرا هينا كما كنت أعتقد .. لقد قضيت ستة أشهر مشغولا بتأثيثها قبل أن أستطيع الانتقال إليها، والإقامة فيها..

وأخذنى صديقى عبد الحميد إلى النادى يوما .. نادى الجزيرة.. ليعرفنى بخطيبته الآنسة نيفين .. إنها ابنه فؤاد باشا خليل .. باشا سابقا طبعا .. وكل شيء فيه سابق .. إنه وزير سابق من وزراء ما قبل الثورة .. وصاحب ألف فدان، سابقا.. وصاحب نفوذ، سابقا..

وعندما قدمنى عبد الحميد إلى نيفين، قدمنى أيضا إلى شقيقتها مرفت .. وبسرعة أحسست كأنى واحد من العائلة .. عائلة مرفت .. أحسست بنفسى كأنى كنت أعرفها دائما .. كأنى كنت أبحث عنها دائما .. أتطلع اليها .. أتمناها .. إننا نتحدث حديثا واحدا..

ونبدو كأنى أنا وهى تربينا فى بيت واحد .. ومرت بخاطرى صورة السنين الماضية عندما كان يقف بينى وبين مرفت جدار أسود عال .. جدار يفصل بين شـاب يمتلك أبوه أربعيـن فدانا، وفتاة يمتلك أبوهـا ألف فـدان .. ووزير .. ولكن الثـورة حطمت هذا الجدار . حطمـت الجدار الذى يفصل بينى وبين مرفت .. ولكن .. الثورة لم تحطـم الجدار الأسـود الذى يفصل بينى وبين سـبيلة .. لم تحطم الجدار الذى يفصل بين «سى» و «اللاسى» ..و..

وطردت كل هذه الخواطر من رأسى بسرعة .. مالى ومال سبيلة الآن .. مالى ومال القرية .. إن عملى ومسئوليتى هنا فى القاهرة ..

ولم أكن أذهب إلى القرية خلال هذه السـنوات إلا مرة أو مرتين فـى العام .. لأقضى فى كل مرة، يوما أو يومين .. وكان رزق العبيط كلما ذهبـت يجرى إلى وهو يعـرج بقدمة اليمنـى، ويرفع كتفه الكتعاء، العلبة الصفيـح الصدئة تحت إبطه ثم يبحلق فى وجهى، ويصرخ بصوته المشلول:

– والله وقعت يامأمون..

ثم يعود ويجرى من أمامى كأنه يهرب منى، وضحكته المجنونة تمزق أذنى ..

أف .. لقـد بدأت أزهق من رزق .. لما يتركون هذا العبيط مطلق السراح هكذا فى أزقة القرية .. إنه إنسان خطر ..

وكنت أقضى اليوم أو اليومين فى القرية، وأنا أرقب أخى ساخرا وهـو يحاول أن يقلـد أبى .. يجلس جلسـته .. ويلبس عمامته ..

ويمسـك مسـبحته .. ويتحدث بصوته العميق المتزن .. ويمد فى كل ليلـة صوانى العشـاء. ولكن الملتفين حـول الصوانى، تغيرت وجوههم ..إنهم ليسـوا مـن أهل القرية وفلاحيهـا .. إنهم ضابط المركـز، والعمدة، وموظفو الجمعية التعاونيـة، وأعضاء الاتحاد الاشتراكية، وموظفو الوحدة الاجتماعية .. و ..

والفلاحون تمد لهم صوان أخرى فى حوش الدار ..

إلى أن كانت هذه المرة الأخيرة التى زرت فيها القرية..

ولا أدرى كيف حدث ليلتها كل هذا .. لا أدرى ماذا حدث لى ، ولا أى شـيطان ركبنى .. فقد ذهبـت إلى غرفتى فى الدار، بعد أن جلسـت مع أمى، وحضرت مجلس أخـى .. وقبل أن أخلع ثيابى، رأيت سـبيلة تمر فى القاعة الخارجية، فناديتها .. واقتربت فى خطـوات مترددة ووقفت عند الباب، وهى تنظر إلى بهاتين العنين المستغيثتين ..

وقلت لها بلهجة آمرة .. لهجة السيد .. إنى سيدها فعلا :

– خشى يابت ..

ووقفت جامدة عند الباب ..

فتقدمت منها وجذبتها من يدها فى عنف، وأنا أصرخ:

– بقولك خشى ..

وأدخلتها غرفتى ..

وأغلقت وراءها الباب ..

وألقيتها على فراشى ..
وشهوة قاسية ، عربيدة، مجنونة، تستبد بى ..
لم أكن أشعر بجسد سبيلة..
ولكنى كنت أشعر بلذة قسوتى عليها..
ثم ..
عندما أطلقتها .. وخرجت من غرفتى تترنح كالفرخة المذبوحة ..أحسست بنفسـى أتضاءل .. وأتضاءل .. إنى صغير .. إنى حقير .. وألـم كوخز الإبر ينطلق فى صدرى .. ألم فظيع .. وانكفأت على وجهىأبكى .. الرجل يبكى .. الثائر يبكى .. المدير العام يبكى ..
وخرجت فى الصباح أطوف بالدار، منكس الرأس.. جلست مع أمى وأنا لا أسـتطيع أن أرفع عينى إليها .. وجلسـت مع أخى وأنا أنظر بين قدمى .. وقابلت الناس وجلسـت وجفونى مسدلة .. كأنى كنت أخشـى أن يكتشـف أحد انى أنتهكت عرضا .. عرض القرية كلها ..وجاء رزق العبيط إلى البيت، ونظر فى وجهى ثم صرخ:
- كده يامأمون .. كده تقع يا مأمون ..
وهربت منه ..
إنى أخافه ..
وسـألنى أخى فى المسـاء قبل أن يتجه إلى القاعة حيث مدت صوانى العشاء:
- صحيح الكلام اللى بيقولوه ده ..

قلت وأنا ما زلت منكس الرأس:

- بيقولوا إيه ..

وقال أخى فى حدة:

- بيقولوا إنهم حايحددوا الملكية بعشرين فدانا..

ولم يكن سؤاله مجرد سؤال، كان فيه تمرد، وسخط، وتربص ..ورفعت رأسى فى وجهه وفتحت عينى كأنى رأيت الطريق الذى يقودنى إلى أن أرد للقرية عرضها الذى سلبته:

- ياريت ياشيخ..

وأشاح أخى بذراعه فى وجهى وهو يقول:

- والله انتم حاتودوا البلد فى داهية..

ثم قام إلى القاعة وأنا أسير خلفه، وأنظر إلى قفاه فى شماتة.. شماتنى فيه يوم تحدد الملكية بعشرين فدانا..

وانتهى العشاء..

وانفض مجلس أخى..

وما كدنا ننصرف إلى النوم.. حتى علا صراخ عنيف فى القرية، فنزعنا جميعا من أسرَّتنا.. وجرينا إلى الخارج.. ورأينا الناس متجمعين عند حافة القرية ينظرون إلى حريق بعيد..

إن الحريق فى أرضنا..

أرض أخى..

وهرع أخى إلى أرضه وخلفه خمسة من رجاله المدججين بالسلاح.. وبقيت أنا فى مكانى، وعلى شفتى ابتسامة مسكينة..

إنه نفس الحريق الذى شب منذ عشر سنوات.. ولكنه شب هذه المرة فى أرضنا.. وأنا أعلم من الجانى.

إنه رزق..

رزق العبيط..

ولن أدل أحدا عليه..

ولكن..

لماذا أحرق رزق أرضنا؟

وبقيت فى القرية لأكتشف ما جناه أخى عليها.

لقد استطاع أخى أن يضع جميع أفراد عائلتنا فى قائمة المعدمين الذين وزعت عليهم الأرض، وأضاف إليهم أسماء جميع من ظن أنهم يدينون له بالولاء.. وبعد أن تسلموا الأرض استولى عليها لنفسه، أصبح هو الذى يزرعها.. هو الذى يعطى الحب، والمياه، والكيماوى.. و.. و.. وفى آخر العام يختص نفسه بمعظم الدخل، ويترك الفلاح بلا شىء.. وكان يؤجر أرضه للفلاحين بعقود سرية، ويطالب بالإيجار مقدما.. و.. و..

وضج أهل البلدة من جشع أخى.. وبدءوا يلتفون حول عوض إسماعيل.. إن عوض إسماعيل كان طفلا لا يتجاوز الثانية عشرة عندما تركت القرية منذ أكثر من عشر سنوات وهو يملك فى زمام القرية عشرة أفدنة، هو وإخوته.. وقد رفض أن يخضع لزعامة أخى وجشعه.. إنه يتحداه فى إصرار وعناد. كما كان أبى يتحدى كامل بك مرتضى..

وقبل أسـبوع ذهب عوض إسـماعيل إلى أخى، ليحاول إقناعه بعدالة مطالب أهل البلد، فاحتد عليه أخى، وصفعه..

كما صفع كامل مرتضى أبى..

وحرق رزق أرض أخى كما سبق أن حرق أرض الأمير..

وقـررت أن أعمـل.. أن أتحـرك.. أن أحاول اسـترداد صداقة الفلاحين وثقتهـم بنا.. ولكن عبثا.. إنهم يسـتقبلوننى كما كانوا يسـتقبلون كامل مرتضى.. وينافقوننى.. ويكذبون على، كأنى عدو لهم لا يملكون إلا سلاح الكذب ليصدوا اعتداءه..

بقيت شهرا فى القرية..

ولا أمل..

ورزق ينظر فى وجهى ويصرخ:

- والله وقعت يا مأمون..

ثم يهرب منى..

* * *

وفى هذه الأثناء وقعت حادثة رزق..

لقد أراد بعض شـباب القرية أن يداعبـوه، فتركوه نائما تحت شجرة الجميز، وسرقوا علبته الصفيح من تحت ذراعه..

واسـتيقظ رزق.. وعندمـا لم يجـد علبته، جـن.. وجرى وراء الشبان، ولحق بواحد منهم، فأطبق على عنقه، وألقاه على الأرض،

وظل يضغط على عنقه وهو يصيح «العلبة.. العلبة» إلى أن اختنق الشاب بين يديه ومات..

وقبضوا على رزق وهو لا يزال يصرخ بصوته المشلول:

– العلبة.. العلبة..

وهم يضربونه على قفاه..

وسجنوه في سجن المركز..

وقد درت أياما أبحث عن علبة رزق.. العلبة الصفيح الصدئة.. إلى أن وجدتها ملقاة فوق أكوام السباخ.. فحملتها وذهبت إلى المركز، وطلبت مقابلة رزق.. ومددت له يدى بها.. وما كاد يلمح علبته حتى انطلقت الفرحة فى عينيه.. والتقطها منى فى لهفة، وأخذ يمسح عليها بيده، ثم فتحها، وبعد أن اطمأن إلى ما فيها، أعاد إغلاقها.. ثم تردد قليلا ورفع إلى عينيه.. ورأيت فى عينيه هذا الحب الذى لم أره فى عينى صديق آخر.. ورأيت فى عينيه شيئا آخر.. رأيت فيهما هذه النظرة التى كان أبى يستقبل بها الفلاحين الذين يطردهم من بيته عندما يعودون إليه بعد أن يطهروا نفوسهم.. وأحسست كأن هذه النظرة.. تغسلنى.. تغسل قلبى.. تغسل عقلى.. تطهرنى.

ومد رزق إلى يده بالعلبة، وقال بصوته المحشرج الذى تمزقه عاهته:

– خليها معاك.. أمانة..

قلت:

– دى علبتك يا رزق..

قال وهو بيتسم ابتسامته البلهاء:

– علبتنا احنا الاثنين..

ثم أدار لـــى ظهره، وتركنى، وســـار بقدمه العرجـــاء، وكتفه الكتعاء، عائدا إلى سجن المركز..

* * *

والقطار يعود بى إلى القاهرة..

– العلبة الصفيح الصدئة فى جيبى..

لا أعلـــم إلى متى أســـتطيع أن أحتفظ بها، وهـــل لى من القوة ما يعيننى على الاحتفاظ بها..

لا أدرى..

كل ما أدريه أنى لن أتزوج مرفت..

* * *

كل هذا الحب

متى رأيتها لأول مرة؟..

لا أدرى..

ولا أدرى متى اكتشفت أن مابينى وبينها هو الحب..

لقد فتحت عينى على الحياة وهى فيها.. تسكن فى حينا.. حى حدائق القبة.. فى نفس الشـارع.. فى البيت المجاور.. والعائلتان تتزاوران.. وهى صديقة لأختى..

وكنت أكبرها بعامين..

ووجدت نفسى دائما معها.. منذ كنت تلميذا فى روضة الأطفال، وأنا أعود من المدرسة لأجدها فى بيتنا تلعب مع أختى.. وكنت ألعب معهما.. لا.. لم تكن تلعب.. كانت أختى عادة تنصرف إلى اللعب، وأجلس أنا وصفية نتحدث.. ربما كنا نحكى حكايات الأطفال.. ولكنه كان دائما حديثا هادئا ناعما.. ليس فيه صراخ الأطفال ولا مشاداتهم.. وكانت صفية، ونحن مازلنا فى ذاك العمر، تشعرنى دائما بأنى أكبر منها.. وأنى أفهم كل شىء لا تفهمه.. وكانت تستمع إلى كل ما أقوله وهى مبهورة مستسلمة، كأنى أفتح لها أبواب دنيا عجيبة.. وكنت أنا أحس – منذ ذاك العمر – بإحساس غامض بمسئوليتى عن صفية.. كنت أدخر نصيبى

من مكســرات رمضان، ومن كعك العيد ومن قطع الشـيكولاتة التى توزعها علينا أمى فى المناسبات، لأعطيه لصفية.. وكنا عندما ننزل إلى الشــارع.. لألعب أنا الكرة مع الأولاد، وتلعب هى الحجلة، أو «نط الحبل» مع البنات، أجد نفسى لتفت بين الحين والحين باحثا عنها.. عن صفية.. كأنى أطمئن عليها.. فإذا حدث لها شــىء.. أى شــىء.. كأن وقعت وانجرحت ركبتها، أو عاكســها أحد الأولاد، جرت إلى باكية، وهى تصرخ:

- محمد.. محمد..

ثم تشكو إلى..

وكنت دائما قادرا على أن أجفف دموعها، وأرضيها، وأحميها.. وكانــت العائلتان معترفتين بهــذه الصداقة، أو هذا الحب، أو هذا الأندماج.. لا أدرى ماذا أســميه.. ماذا أســمى مــا كان بينى وبين صفية ونحن ما زلنا طفلين.. لا أدرى.. فكانت أمى لا تسأل عنى إلا ويشمل سؤالها صفية:

- محمد وصفية راحوا فين؟..

وكانت أم صفية ترسل وراءنا الخادمة..

- روحى شوفى محمد وصفية فين؟

دائما، محمد وصفية..

وربما كانت هــذه العاطفة الحلوة المبكرة هى التى جعلت منى هذا الطفل الهادئ، العاقل الذى تفتخر به أمى.. لقد كنت طفلا أكبر

من عمرى.. لم أكن متعاليا على أصحابى الذين فى مثل عمرى.. ولا جافــا.. لا.. كنت ألعــب مع الأطفال، وأتحــدث حديثهم، ولكنى كنــت أكثر منهم جديــة.. أو على الأصح كنت أكثــر منهم اكتفاء وشــبعا عاطفيًّا.. لم أكــن أرتكب حماقات الأطفــال.. لم أفكر يوما فى أن أعاكس المدرس.. أو أســرق شيئا من وراء ظهر أمى.. فكنت رجلا فى عمر الأطفال..

ثــم لا أدرى متى بــدأ يتطور حبى لصفية.. ربمــا عندما بلغت الثانية عشــرة أو الثالثة عشــرة.. فقد بدأت أكتشف لون عينيها، وأنفها الصغير.. وشــفتيها.. وتسريحة شــعرها.. وبدأت أكتشف الثوب الذى ترتديه، والطريقة التى تنقل بها خطوتها فى مشيتها.

وبدأ هذا الإحســاس الجديد يقلقنــى.. يحيرنى.. لم تعد صفية مجــرد حقيقــة بدهية فــى حياتى، بــل أصبحــت موضوعا يأخذ تفكيرى.. وبدأت أعانى من اللهفة عليها..

لــم أعد أعود إلى البيــت وأنا واثق من أنى ســأجد فيه صفية.. أصبحت أتســاءل هل ســأجدها فى البيت.. ويغــوص قلبى عندما يداهمنــى الاحتمال بأنى قد لا أجدهــا.. وعندما كنت طفلا لم أكن واثقــا ولا حائــرا.. ولم أكن أعــود إلى البيــت لا ملهوفا، ولا غير ملهــوف.. إن كل هــذه العواطــف والانفعالات.. الثقة والشــك.. والتأكــد والحيرة.. و.. و.. كل ذلك لا يخطر فى حياة الإنســان إلا عندما يبدأ الإنســان فى صنع حياته بنفســه.. والأطفال لا يصنعون الحياة، ولكن تصنع لهم الحياة..

وكنت دائما - إلا نادرا - أجدها فى البيت..

وكنـت ألمح فى عينيها نفس الحيرة التى أعانيها.. الحيرة فى عواطف وأحاسـيس بدأت تملأ صدرها كالبخار، دون أن تفهمها أو تعرف من أين انطلقت ولا إلى أين تسـتقر.. وكان يبدو أنها لم تعد تأتـى إلى بيتنـا تلقائيًّا، ولكنها كانت تأتى عـن عمد، وقد بدأت تعرف أنها تأتى لترانى، لا لتزور أختى.

وتطـور حديثنـا.. كبر.. لـم يعد حديـث أطفـال.. ولا حديث ناضجيـن.. ولكنه حديث هذا العمر الحلـو الذى يختلط فيه الخيال بالواقع، وتبدو فيه البدهيات كأنها اكتشـافات، ويبدو فيه كل شىء كأنه شىء جديد يثير الدهشة.. ولكن صفية خلال أحاديثنا لم تتغير، إنها لا تزال دائما تشعرنى بأنى الأكبر منها.. وأنى أفهم كل شىء لا تفهمه.. وأنى المسئول عنها.. تكاد تشعرنى بأنى رجلها.

وأنا أكبر..

وكلمـا كبرت عذبنى شـىء غامض لم أكن أدرى سـره.. ولكنى أشـعر به كلما اسـتوعبت عينـاى تفاصيل أكثر مـن الخطوط التى ترسـم صفية.. خطوط وجهها.. وخطوط قوامها.. وهذه الخصلة من شعرها الناعم التى تقع أحيانا فوق جبينها، فتزيحها بيدها كأنها تنهرها.. وهذه النظرة المتسـائلة المترقبـة التى تطل من عينيها كأنها تبحث عن شـىء جديد.. وهذه الابتسـامة الهادئة الناعسة التى ترقد فى استسلام بين شفتيها، كأنها مستسلمة لى..

وقد عرفت الآن أنى أحب صفية.
ولكنه ليس الحب الذى يعذبنى.. إنه شىء آخر.
شىء ربما كان داخل الحب، وربما كان خارجه..
وكان هذا الشىء يتطلب كل إرداتى.. إرادتى الفجة الصغيرة، لأقاومه.. وكلما شعرت بحاجتى لبذل مجهود أكبر فى المقاومة، انتابنى شعور غريب بالخوف.. نعم، الخوف.. لا أدرى من ماذا.. ولكن بدأت تمر على فترات كثيرة أشعر فيها بهذا الخوف.. الخوف على حبى..
وفى هذه السن.. وكنت فى الخامسة عشرة، وصفية فى الثالثة عشرة.. لاحظت لأول مرة أنها قد بدأت تسوّى حاجبيها بالملقاط وثرت على غير عادتى، وصرخت فيها:
- إيه اللى عاملاه فى حواجبك ده؟
ونظرت إلى بعينين مرتعشتين وقالت فى ذهول:
- مش عاجبينك؟
قلت وأنا مازالت أصرخ:
- لأ.. مش عاجبنى..
ونظرت إلى صفية برهة ثم انبثقت الدموع من عينيها، وجرت من أمامى وهى تبكى..
ولم أشعر يومها بدموع صفية، ولا جريت وراءها لأصالحها، فقد وقعت ساعتها فى نوبة عارمة من هذا الخوف.. الخوف الذى

بـــدأ ينتابنى منذ شـــهور.. ولكنه فى هذا اليـــوم كان خوفا أكبر.. أحسست أنى بدأت أكتشف سر هذا الخوف.. إن صفية تكبر أسرع مما أكبر.. إنها ليســت أصغر منى.. إنها أكبر.. وســتكبر أكثر.. وأكثر ولن أستطيع أن ألحق بها أبدا.. ستضيع منى..

ولم تعد صفية إلى تسوية حاجبيها بالملقاط..

وكنت ألحظ الشـعيرات الخضراء تنبت حول حاجبيها دون أن تنزعها، فلا أبتسم لها، ولا أعلق بشىء.. ولا حتى أشعر بالامتنان لها لأنها أطاعت كلامى.. فقد كنت أشعر بالغيظ.. الغيظ منها لأنها تكبر فى عمرها أســرع مما أكبر فى عمرى.. وامتناعها عن تسوية حاجبيها لن يوقف سرعة عمرها.. لن يعيدها إلى عمرى..

وجاءت يوما.. ودخلت هى وأختى إلى حجرتى.. وكنت جالساً إلى كتبى أســتذكر دروســى.. والتفت إليهما وبدأنا نتحدث.. وقد كنت ألاحظ فى نفســى أنــى بدأت أتحدث كلمــا كانت صفية معى بلهجة فيها كثير من التعالى والغرور، كأنى أحاول دائما أن أقنعها بأنى أكبر منها، وما زلت أفهم ما لا تفهمه.. مازلت رجلها..

وتركتنا أختى وخرجت من الحجرة لبعض شأنها، كما تعودت أن تفعــل فى كثير من الأحيان.. لا تعمدا منها، ولكن لأن صفية لم تكن أبدا ضيفة فى بيتنا.. إنها واحدة منا..

وانحنــت صفية على مكتبى تقلب فى الكتــاب الذى اقرأ فيه.. كما تعودت أن تفعل منذ كانت طفلة.. ووجدت نفســى فجأة أعانى

هذا العذاب الـذى عانيت منه طويلا.. أعانيـه وصفية قريبة جدًّا منى.. كتفها تلامس كتفى.. وعطر أنفاسـها يملأ أنفى.. وشـعرها الناعـم المسترسـل يهف على وجهـى.. وهى تتكلـم.. ولكنى لا أسمعها.. إن كل حواسى مركزة فى استجماع إرادتى لأقاوم بها هذا العـذاب الذى يمزق عروقى.. وبدأ كلام صفية يتقطع.. ثم صمتت.. وأنا صامـت.. ومضت برهة طويلة.. طويلـة.. ونحن صامتان.. ثم رفعت إلى عينيها.. والتقت نظراتنا لقاء طويلا.. صامتا.. وأنفاسنا مبهورة.. وشىء كصهد النار يلف وجهينا.. ثم اقتربنا، وجهى من وجهها.. ثم اسـتقر خدها على خدى.. برهة.. لحظة.. ثم رفعت وجهها فى انتفاضة كأنها خافت أن تحرقها النار، وجرت متعثرة خارج الغرفة.. خارج البيت..

وكانت هذه قبلتنا الأولى..

أول قبلة فى حياتها..

وأول قبلة فى حياتى..

ولم تكن قبلة..

كانت مجرد لمسة..

وانحنيت فوق مكتبى أرتعش..

ولم أستطع النوم ليلتها..

إنى مازلت أرتعش.. وفى طيات رعشـتى أشـياء كثيرة.. فيها عذاب، وفيها خوف، وفيها فرحة.. فرحة كبيرة..

وفى اليوم التالى جاءت خادمة صفية الصغيرة إلى بيتنا تبحث عنى.. وأعطتنى كتابا قالت إن صفية ترسله لى كما وعدتنى.. كتاب من كتب المدرســة لا قيمة له.. وقبل أن أتعجب اكتشــفت أن بين صفحات الكتاب خطابا كتبته لى صفية..

أول خطاب تكتبه لى..

وبدأنا عصر الخطابات..

والعجيب أن هذه الخطابات أبعدت بيننا أكثر مما قربتنا.. فلم تعــد صفية تأتى إلى بيتنا كل يوم كما تعودت.. ربما لأن حبنا منذ أن تلامســنا بدأ يرتبط بالواقع الإنســانى.. وهــو واقع نخافه نحن الاثنين منذ أن اكتشفناه.. نخافه ونتعذب به..

وعندما جاءت صفية بعد أربعة أو خمســة أيام، تبادلنا خلالها فى كل يوم خطابا.. جاءت - لا كواحدة منا - ولكنها جاءت كأنها ضيفة.. اختارت ثوبا أنيقا لا تلبسه إلا وهى ضيفة.. وصففت شعرها بعناية كأنهــا ذاهبة إلى حفلة.. وعندما نظــرت إلى حاجبيها لا حظت أنها عادت وســوّتهما من أجلى.. حتى عندما شــعرت أنها تجملــت بحيث تبدو كبيــرة.. لم أغضب، فقد شــعرت أيضا أنها كبرت من أجلى..

ولــم نســتطع يومهــا ولا بعدهــا، أن نتبادل النظــرات بنفس البساطة التى كنا نتبادلها بهـا.. ولم يستطع حديثنا أن يتصل بيننا بنفس الســهولة التى كان يجــرى بهـا.. كان كل منا يعلم أنه أصبح فــى حاجة إلى أكثر من النظــرات وأكثر من الأحاديث.. وكل منها

يترقب اللحظة التى ستتركنا فيها أختى وحدنا.. وربما خيل إلينا يومها أن أختى تتباطأ فى الخروج عن عمد.. لتغيظنا..

وبرغم ذلك فعندما خرجت أختى تسمرنا فى مكاننا.. احترنا ماذا نصنع.. كيف أقوم من مكانى إليها، وكيف تقوم من مكانها إلىّ.. بل ربما احترنا فيما نريد.. ماذا يريد أحدنا من الآخر.. ولفتنا عاصفة عصبية من الارتباك، والخفر، واللهفة.. ولم أعد أستطيع أن أنظر فى عينيها.. ولم تعد تستطيع أن تنظر فى عينى.. ثم فجأة.. وكأننا خفنا أن يسرقنا الزمن ونشيخ ونحن متباعدان.. اندفعنا أحدنا إلى الآخر.. ورقد خدها على خدى.. وقلبى يخفق بخفقات قلبها.. ثم طافت شفتاى تمسحان على خدها.. من الذى علمنا أن الشفاه تحمل كل هذه الحساسية.. كل هذه المعانى.. كل هذه الدنيا.. لست أدرى.. ورئتاى تتنفسان من أنفاسها.. وأعصابى تنبض بنبضات أعصابها.. ثم فجأة أيضا ابتعدنا أحدنا عن الآخر.. كيف تنتهى القبلة.. ولماذا تنتهى.. بل لماذا تتوقف، لست أدرى.. وهى تنظر إلى بعينين مبهورتين، ما لبثتا أن ارتختا ونامتا تحت جفنيها كأنهما طفلتان شبعتا.. وخرجت أنا من الحجرة فى خطوات بطيئة كأنى أسير على قطع من السحاب.. وذهبت إلى حجرتى.. ورقدت فى فراشى.. مستسلما فى هدوء إلى رعشتى.. رعشة قلبى..

وكان هذا هو كل ما بيننا..
هذه القبلات..
وهذه الخطابات..

* * *

وكنت فى الثامنة عشـرة، وصفية فى السادسـة عشرة، عندما خطبت. خطبت صفية إلى رجل يكبرنى باثنى عشر عاما، ويكبرها بأربعة عشر عاما..

وتلقيت الخبر فى استسلام عجيب كأنه حدث كنت أنتظره منذ زمن طويل.. ربما منذ ولدت.. كان إحساسـى بانتظاره مختبئا فى منطقة اللاشعور.. أشياء كثيرة ننتظرها دون أن نحس بانتظارها.. المـوت.. إننا ننتظر الموت دون أن نتعمـد انتظاره.. ومهما بكينا وصرخنـا فإننا لا نسـتطيع أن نصد الموت.. ولا نحـاول أن نعيد الحياة. إننا فى قرارة أنفسنا مستسلمون له، وكنا دائما فى انتظاره.. وكذلـك.. زواج صفية من رجل آخر.. وكانـت التقاليد الاجتماعية متمكنة منها ومنى إلى حد الإيمان.. كالإيمان بالموت.. فلم نحاول أن نثور، كما لا يثـور الناس على الموت.. ولم نحاول أن نهرب، كما لا يهرب الناس من الموت..

وحدد يوم الزفاف على عجل.. بعد أسـبوعين.. فالرجل مسافر فى بعثة إلى إنجلترا وسيصحب صفية معه..

ولـم أر صفية خلال هذين الأسـبوعين.. وكنت خلالهما أعيش صامتا واجما كالمصعوق، وأتحـرك فى خطوات بطيئة متئدة كأنى أحكـم الحكمـاء، أو كأن فى صدرى قنبلة أخشـى أن تنفجر لأقل حركة..

وفى صباح يوم زفافها جاءت..

جاءت إلى بيتنا..

شعرها مهوش فوق رأسـها.. ووجهها ممتقع.. وبصمات الأرق تحت عينيها.. وشفتاها ترتعشان وقد بهت لونهما..

واتجهت إلى غرفتى مباشرة، كأن ليس فى البيت أحد غيرى.. وألقت نفسـها بيـن ذراعى.. ورأسـها على كتفى.. ثم أجهشـت بالبكاء.. وهى تتمتم:

- محمد.. محمد..

ثـم أخذت وجهى بيـن كفيهـا.. وأصابعها ترتعـش.. وألقت بشفتيها بين شـفتى.. قبلة كبيرة عصيبة عنيفة.. ليس لها طعم، عنفهـا يغلب طعمها.. كأنها كانت تحـاول أن تأخذ منى فى قبلة واحدة ما يكفيها عمرها كله بعيدا عنى.

وأختى كانت واقفة على الباب، تنظر إلينا، وتبكى..

إن أختى خطبت فـى نفس العام.. قبل صفية.. ومن يدرى ربما كان لها هى الأخرى حب ودعته..

وأنا جامد.. لا يستطيع إحساسى أن يلتقط شيئا.. ولا حتى قبلة صفيـة.. لم أبك معها.. ولا لففتهـا بذراعى.. ولا بادلتها قبلتها..

ولا كلمـــة.. إنى جامد.. كل شـــىء فىّ قد توقــف.. وكل ما حولى توقف.. إنى ميت..

وجرت صفية خارجة من البيت تتعثر فى دموعها.

وأنا جامد..

ميت..

وفى المســاء كان مفروضــا أن أذهب إلى حفــل الزفاف.. وأمى تتعجلنى.

– يا للا يا محمد.. ميصحّش نروح متأخرين.. ده احنا أهل.

وخرجـــت وراء أبى وأمى وأختى.. وأنا ما زلت جامدا.. تائها.. أسير فى خطوات ساهمة وئيدة، وفى صدرى هذه القنبلة التى أخشى فـــى كل خطوة أن تنفجـــر.. وما كدت أقترب مـــن بيت صفية حتى دهمتنى أضواء الزينة.. حرقت عينى.. وأصابتنى برعشـــة كرعشة الحمى.. وخفت.. هلعت.. أحسست بالمصابيح الملونة كأنها عيون شياطين تنطلق فى وجهى.. كأنها فوهات مدافع تطلق على النار.

وتراجعت فى خوف..

تركـــت أبى وأمى وأختـــى يدخلون.. واســـتدرت أنا وجريت.. جريت بكل قواى.. جريـــت إلى أن اجتزت حى حدائق القبة.. ثم هدأت خطاى وأنا أتجه إلى حى العباسية.. وسرت.. سرت طويلا.. وأســـياخ من الألم تشـــق كل قطعة منى.. ســـرت إلى أن وصلت إلى صحـــراء العباســـية.. وأقدامى قد ثقلت وهى تتعثـــر فوق الرمال.. والليل يتكاثف حولى حتى لم أعد أرى شيئا.. والألم.. ألم قاس..

ثم شعرت بشيء يسقط على الرمال.. إنه أنا.. وإذا بى أبكى.. أبكى فى عنف.. كل قطعة منى ترتعش وتبكى معى..

وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها كل هذا البكاء..

والمرة الأخيرة..

ورطب البكاء أعصابى.. هدأت.. وسكت عنى الألم.. ورفعت رأسى الذى وقع منى فوق الرمال، وإذا بى ألمح نورا.. نورا ينطلق من داخلي.. من صدرى.. إنه نور الحب.. إن الحب لا يزال معى.. لم يأخذ أحد الحب منى، الحب لم يتزوج رجلا آخر..

والحب هو صفية..

وشعرت بابتسامة تمسح الأسى من شفتى.. ورموشى تهتز وتنفض عنها الدموع، كما تهتز أجنحة العصافير لتنفض عنها الندى..

وعدت..

هادئا.. مستقرا.. تملأ السكينة نفسي.. ورقدت فى فراشى لأقرأ كتابا.. والحب يحملنى فى حنان ودعة إلى النوم..

* * *

كم مضى؟

عشر سنوات..

وقد حدثت أثناء هذه السنوات أشياء كثيرة.. نلت بكالوريوس الهندسة.. واشتغلت مهندسا فى إحدى الشركات.. وتزوجت

أختـــى وأصبح لها بيت وأولاد.. وأحيل أبى إلى المعاش، وفضل أن يأخذ أمي ويقيما في بلدتنا.. واســتأجرت أنا شقة صغيرة في شارع القصــر العينى، جمعت فيها كل حياتى.. كتبى.. واســطواناتى.. ومائدة الرســم.. وهذه الأشــياء الصغيرة الكثيرة التى تخلق من كل فرد شخصية متميزة مستقلة بذاتها..

شيء واحد لم يتغير خلال هذه السنوات..

حبى..

صفية..

إنـــى أعيش فـــى انتظارها كل يوم.. ليس انتظـــارا قلقا.. ولكنه انتظار يســـرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تتردد أنفاسى. انتظار كانتظار المتصوف للقاء ربه.. انتظار حلو هادئ، مستسلم.. وكلما دق جرس الباب مر بى خاطر ســـريع.. إنها قد تكون صفية.. وكلما ذهبت إلـــى زيارة أختى خيل إلى أنى ســـأجد صفية معها.. وكلما ذهبـــت إلى حدائق القبة ومررت ببيتنا القديم خيل إلى أن ســـأجد صفية تطل علىّ من الشـــرفة.. وأخرج خطاباتها وأقرؤها.. ولم أكن أقرؤها بعينى.. ولكنى أقرأها بأذنى.. إنى أســـمعها.. ليس مجرد خيال.. ولكنى أســـمعها.. كان صوتها حقيقة يملأ كيانى كله.. ثم أعود وأنتظر.

كان هذا الانتظار هو نبضى..

ولم تدخل حياتى خلال هذه السنوات العشر أية امرأة..

ولا حتى امرأة عابرة..

هل هذا شذوذ.. أبدا.. إن الذى يرسم تصرفاتنا هو ما نريده.. وأنا لا أريد أية امرأة.. إنى أنتظر صفية..

وأمى تلح على فى كل يوم أن أتزوج.. وأضحك.. إن أمى تعتقد أن فى الدنيا فتاة أخرى غير صفية.. لا.. لا.. بالنسبة لى لا.

وفى يوم..

بعد عشر سنوات..

دق جرس التليفون فى مكتبى بالشركة..

وما كدت أسمع كلمة: ألو.. حتى صرخت:

- صفية..

لقد عرفت صوتها قبل أن تتكلم وبعد عشر سنوات من الصمت.. وقلنا فى التليفون كلاما كثيرا مرتبكا، كأننا كنا نحاول فى هذه اللحظات أن نسترد كل ما فاتنا من كلام خلال عشر سنوات.. ومن ضحكات.. ومن عتاب.. و..

واتفقنا ببساطة على اللقاء فى مقهى هادئ منزو فى شارع الهرم. هى التى اختارت هذا المقهى للقائنا.. وقالت لى إنها كانت تمر بهذا المقهى منذ خمس سنوات.. وكلما مرت به تمنت أن تجلس فيه معى.. رفضت أن تدخله إلا معى..

والتقينا..

ووقفنا ينظر كل منا للآخر وبين شفاهنا ابتسامتان حائرتان مترددتان لا تدريان أى معنى تحملانه..

ولكنى وجدت نفســى أعود عبر الزمن إلى عمر الثامنة عشرة.. وصفية تعود معى إلى عمر السادســة عشــرة.. ربما كانت صفية قد ســمنت قليلا، وربما كان فــى حديثها معان لم أســمعها منها من قبل.. ولكنها لا تزال فى عمر السادســة عشــرة.. لم تمر بنا عشر سنوات.. لم نفترق أبدا.. إنها كانت معى بالأمس..

ويدى فى يدها..

ونتكلم..

ولم نكف عن الكلام..

وأصبحت تتصل بى كل صباح بالتليفون..

وعشت فى كل تفاصيل حياتها.

وعاشت فى كل تفاصيل حياتى.

ثم كان لقاؤنا الثانى بعد أسبوعين..

فى شقتى..

وأحاسيسنا أكثر نضجا..

وقبلاتنا أكثر وعيا..

وكانــت صفية أول امــرأة فى حياتى.. كما كانــت أول فتاة فى حياتى.. الفتاة الوحيدة، والمرأة الوحيدة..

وصفية؟!!

لا.. لا تقلهــا.. لم يكن فى حياة صفية رجل آخر.. إنك لا تفهم ما تقول.. إنك تعلم أن كل إنســان له حياة عامة يعطيها للمجتمع، وحيــاة خاصة يحتفظ بها لنفســه.. إنه دين عليــك نحو المجتمع

الإنسانى أن تخصص جزءا من حياتك له.. الجزء العام.. أو الحياة العامة.. وإلا كنت إنسانا أنانيًّا تافها.. ودين المجتمع الإنسانى نحوك أن يترك لك حياتك الخاصة تتصرف فيها كما تريد ما دمت لا تعتدى بتصرفاتك على أحد.. وحياتى العامة التى أعطيها للمجتمع، هو عملى كمهندس.. والحياة العامة التى تعطيها صفية للمجتمع.. هو عملها كزوجة وأم.. ليس معنى هذا «رجل آخر».. إنه مجرد عمل.. كعملى فى الشركة.. وأنا أحترم زوج صفية احترامى لرئيس الشركة.. ما دام يقوم بواجبه نحو الشركة.. صحيح أنه فى حالات كثيرة تستطيع المرأة أن تجمع فى بيتها بين حياتها الخاصة وحياتها العامة.. كأن تتزوج رجلا تحبه.. ولكنها إذا لم تستطع ذلك فإن هذا لا يحرمها من حياتها الخاصة، ولا يعفيها من واجبها نحو تقديم حياتها العامة للمجتمع.. أن تقدم للمجتمع شيئا.. ولو كانت صفية قد استكملت دراستها وقدمت للمجتمع عملا، كأن تكون طبيبة لأعفاها هذا من الزواج من شخص لا تحبه.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تقدم للمجتمع إلا عملها كزوجة وأم.. فاضطرت..

هل تفهمنى؟

إنى أرفض أى تفسير آخر.. وأرفض كلمة «رجل آخر».. إنه عمل.. مجرد عمل.. مهما تسامت فيه العواطف، فهو عمل.

وانتظمت الحياة.. هادئة، حلوة، رقراقة، بينى وبين صفية.. كانت تحادثنى صباح كل يوم فى التليفون.. لا تحادثنى فى

المســاء، ولا فى أيام الجمع.. ونتلاقى فى فترات متباعدة.. أحيانا كل أسبوعين.. وأحيانا كل شهر.. وكانت أحيانا تسافر مع زوجها عندما ينتدب للعمل فى الخارج.. وتغيب شهورا.. وفى مرة غابت ســنتين.. وأنــا أنتظر.. هذا الانتظار الذى يســرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تسرى أنفاسى..

ولم نعتدِ على أحد بحبنا..

بالعكس..

إنى عندما استكملت ســعادتى بحبى، استطعت أن أقدم إنتاجا أكثر فى عملى.. وعندما سعدت صفية استطاعت أن تضفى على بيتها وأولادها ســعادة أكبر.. إن الإنســان الناقص لا يمكن أن يقدم شيئا كاملا.. وأنا لم أكتمل إلا بصفية.. ولم تكتمل صفية إلا بى.. وعندما اكتملنا استطعنا أن نقدم للناس عملا كاملا، يسعدهم كسعادتنا..

* * *

كم مضى؟

عشرون عاما..

أصبحت فى الثامنة والخمســين من عمرى، وصفية فى السادسة والخمسين..

واتصلت بى بالتليفون وصوتها يرتعش..

لقد مات الزوج..

وكنت أول من تبلغــه النبأ كعادتها منذ كانت طفلة.. تلجأ إلىّ كلما ألمّ بها حدث..

وحزنت صفية على زوجها حزنا عميقا صادقا..

وحزنت معها.. حزنا حقيقيًّا، لا رياء فيه..

ومضى أكثر من عام قبل أن يتبدد حزننا إلى ذكرى عاطرة..

وأنا وصفية كما نحن.. تتصل بى صباح كل يوم فى التليفون.. لم تكن تتصل بى فى المساء، ولا فى أيام الجمع.. حتى بعد أن مات الزوج.. ثم كنا نلتقى فى فترات متباعدة.. أحيانا كل أسبوعين وأحيانا كل شهر..

ثم قلت لها:

- أظن من حقنا نتجوز بأه يا صفية..

ورفعت إلىّ عينيها الناعستين الهادئتين، وصمتت..

ولم يكن هناك ما يمنع من زواجنا.. فأولادها قد كبروا واستقل كل منهم فى بيته.. وهى مصممة على ألا تعيش مع أحد منهم.. إنها تعيش فى بيتها وحيدة مع مربية أولادها..

ولكنها ظلت صامتة..

وعدت أقول:

- إيه رأيك؟!

وتلونت وجنتها بلون الخفر، وقالت وهى ترخى رموشها فوق عينيها:

- مش عارفه يا محمد.. أنا عمرى ما فكرت إننا نتجوز.. متهيأ لى إن حبنا أكبر من الجواز..

قلت:

– حبنا من حقه يستريح ولو اليومين اللى فاضلين..

قالت:

– أنا خايفه يا محمد.. خايفه على حبنا من الجواز.. مش عارفة ليه.. بعد ده كله، نبتدى حاجه جديده..

وفى الواقع أننى كنت أشاركها نفس الخوف.. ونفس التردد.. لقد عاش حبنا طويلا، واكتسب عادات معينة، وطريقة معينة للتعبير عن نفسه.. وارتقى بنا إلى أعلى قمم السمو.. قمم أعلى من كل القمم التى وضعها المجتمع للحياة الفاضلة.. وربما لو نزلنا بحبنا إلى تقاليد المجتمع، لفقد روعته.. وفقد صلابته وعناده.. فقد أفضل ما فيه..

ولم نتزوج..

أصرت صفية على ألا نتزوج..

ومضت ست سنوات ولم يرد، علينا شىء، إلا أنى بدأت أقوم لها ببعض مطالب حياتها التى لا يستطيع أن يقوم بها إلا رجل.. ولم تقدمنى صفية إلى أولادها بعد أن مات زوجها، ولكنها كانت تحدثهم عنى قليلا كصديق من أصدقاء عائلتها منذ أيام حدائق القبة..

ثم مرضت صفية..

وعندما مضى أكثر من شهر وهى لا تستطيع أن تغادر الفراش.. صممت على أن أزورها.. وكانت المرة الأولى التى أزورها فيها فى

بيتها.. دخلت البيت كأنى أدخل قدس الأقداس، خاشعا لرهبته..

وقالت فى ضعف:

- مَكنتش عايزاك تشوفنى وأنا عيانة يا محمد..

إنها لا تدرى..

لا تدرى أنى ما زلت أراها إلى اليوم كما كانت وهى فى السادسة عشرة.. أراها بعينى، لا بخيالى، ولا بأوهام حبى، أرى عينيها الناعستين الهادئتين، ووجنتيها العاليتين، وشفتيها المكتنزتين المملوءتين بالحب، وبشرتها الناعمة السمراء، وشعرها الأسود المسترسل.. إنها لم تكبر أبدا.. أبدا.. إنها الفتاة التى أحبها..

وذات ليلة..

صحوت منزعجا من نومي.. وارتديت ثيابى بسرعة، وجريت إلى الجاراج، وقدت سيارتى إليها.. إلى صفية.. والساعة حوالى الثالثة صباحا.. وضغطت على جرس الباب..

وعدت أضغط بإصرار..

يجب أن أراها الآن.. الآن.

وفتحت لى بعد فترة طويلة، المربية العجوز.. وهرعت إلى غرفتها وكانت راقدة فى فراشها.. بيضاء فى لون الفل، وشفتاها ترتعشان.. وفتحت عينيها عندما اقتربت منها.. وبرقت ابتسامة خاطفة بين شفتيها.. وسمعتها تهمس..

- محمد.

ثم ارتخت يدها فى يدى..

* * *

إنى الآن فى السادسة والستين من عمرى..

وقد مضت أربع سـنوات وأنا فى انتظار صفيـة.. هذا الانتظار الهادئ المتصوف الذى يسرى فى أعصابى كما تسرى أنفاسى.. وأنا واثق أنها سـتأتى يوما وتدعونـى إلى لقائها فى مقهى صغير منزو ترفض أن تجلس فيه إلا معى..

مقهى فى الجنة..

* * *

الله.. الله.. يا ست

بدأ أفراد الشلة يتوافدون على منزل السيد المهندس محمد برعى أحد مديرى العموم بوزارة الأشغال.. وقد تعودوا أن يجتمعوا فى مثل هذا اليوم من كل شهر، فى منزل أحدهم، لسماع حفل السيدة أم كلثوم المذاعة من الراديو..

وكان أول الوافدين السيد إسماعيل سكر مدير مكتب وزير الأوقاف والسيدة حرمه.. واستقبله محمد برعى فاتحا ذراعيه، واحتضنه إلى صدره صائحا:

- إزيك يا أبو السباع.. وحشتنا..

وتبادلت حرم إسماعيل سكر وحرم محمد برعى طرقعة القبلات. وقالت حرم محمد برعى:

- إزيك يا إنصاف.. إزىّ عروستنا الحلوة..

وقالت إنصاف وشفتاها مشدودتان إلى آخرهما ترسم ابتسامة مفتعلة:

- إزيك إنتى يا دودى، وازّىّ الولاد..

وشدتها دودى من يدها وجلستا فى الركن البعيد من غرفة الصالون.. وأخذ محمد برعى صديقه إسماعيل سكر وجلسا فى الركن الآخر بجانب الراديو.. وهو يقول:

– إقعد يا إسماعيل.. إزىّ الحال.. خصموا منك كام الشهر ده..

وتنهد إسماعيل قائلا:

– ميتين خمسة وأربعين قرش. زيادة ضريبة الدفاع، والادخار.. وقال محمد برعى وهو يقهقه:

– يعنى كمان حفلتين لام كلثوم والماهية ميفضلش منها حاجة..

وقال إسماعيل:

– والله ما فى حاجه بتخفف المصايب إلا ام كلثوم.. الواحد يقبض من هنا، ويتغم.. ويفضل مغموم لغاية ما يسمع الست.. ودق جرس الباب، ثم دخل الأستاذ عبد العزيز على المحامى، والسيدة حرمه.. وتكررت الأحضان وطرقعة القبلات.. ثم وصل السيد شكرى ناجى، الموظف بالاستعلامات والسيدة حرمه.. والدكتور رفعت عبد الله طبيب مستشفى الرمد والسيدة حرمه.. وتجمعت السيدات فى الركن البعيد، والتف الرجال فى الركن الآخر حول الراديو..

وعاد محمد برعى يقول:

– اللى عايز اعرفه الخصومات اللى نازله على الماهيات دى آخرتها إيه..

وقال السيد شكرى:

– أنــا مش مجننى إلا الادخار ده.. طيب واحد مش عايز يدخر حد شريكه..

وقال الأستاذ عبد العزيز:

– يــا جماعــة، لا تنظروا إلــى الموضوع من وجهــة المصلحة الفردية.. البلد عليها التزامات كتير ولازم كلنا نتحملها..

وقال الدكتور رفعت:

– التزامات إيه بأه يا ســى عبد العزيــز.. آه.. قول لنا إيه هى الالتزامات دى..

وأطلقت دودى ضحكة مجلجلة لوت أعناق الرجال.. ثم خفضت صوتها وقالت:

– ده الراجــل يــا حبة عينى مخدش منهم يوميــن.. ويا أختى متعرفيش إزاى لفوه.. وراح متجوز الست الكركوبة..

وقالت قدرية حرم السيد شكرى ناجى:

– يعنى بالميت ميجيش عندها أربعين سنة..

وقالت إنصاف:

– واكتر..

وقالت خديجة حرم الأستاذ عبد العزيز؟

– إنما صحيح حتعمل فرح وزفة..

وقالت سوسن حرم الدكتور رفعت:

– دى كانت تبقى فضيحة.. دى تالت جوازه.. فرح إيه وهباب إيه..

وارتفع صوت إسماعيل سكر:

- الساعه كام يا جماعه.. إوعى تكون الست ابتدت..

ونظر شكرى ناجى فى ساعته وقال:

- ياه.. الساعة عشره ونص.. دى زمانها ابتدت من زمان.. وقام محمد برعى وأدار مفتاح الراديو، ثم التفت قائلا:

- طيب لو كانت البلـد عليها التزامات، وكلنا لازم نتحملها.. يبقى لازمة الأرباح اللى بيوزعوها دى إيه.. طيب ما بلاش أرباح، ويسيبوا ما

هيتنا فى حالها..

وقال الأستاذ عبد العزيز:

- الأرباح دى لها هدف تانى.. هدفها إشعار العمال بأنهم ملاك..

وقال شكرى ناجى:

- واشـمعنى يا أخى العمـال وموظفى الشـركات يبقوا ملاك.. واحنـا يا بتـوع الحكومة.. احنا ياللى شـايلين الهم على دماغنا، اشـمعنى احنا كمان ما نبقاش ملاك.. ليه ما يوزعوش علينا نسبه من أرباح الحكومة..

وقال الدكتور رفعت:

- مش مفروض الحكومه تربح..

وقال محمد برعى:

- وبلاش نقول ربح.. نسـميه دخل.. نسميه إيراد.. الحكومه إيرادهـا بيزيد كل سـنه، ليـه ميوزعوش علينا نسـبة من زيادة الإيراد، باعتباره أرباح..

وقال الأستاذ عبد العزيز:

- يـا جماعـة متنسـوش إن الموظفيـن كانوا دائمـا متمتعين بضمانات كافيه.. عندهم معاشات، وأجازات وحمايه من الزفت.. إنما العمال مكانش عندهـم حاجه أبدا.. ومن حقهم إنهم ياخدوا حقهم..

وقال شكرى ناجى:

- طيب بلاش الموظفين.. الفلاحين.. فلاحين الإصلاح الزراعى.. مش الإصلاح الزراعى بيحقق أرباح.. طيب الفلاحين اللى بيشتغلوا فيه واللى ما أخدوش خمس فدادين ما بياخدوش أرباح ليه..

وقال الدكتور رفعت:

- والله الكلام ده لازم يتكتب فى الجرايد..

وقال الأستاذ رفعت:

- سـيبك من الجرايد.. كل اللى بيتكتب فـى الجرايد نوع من اللى نسميه مقالات تبريريه.. يعنى الحاجة تتعمل الأول وبعدين الصحافة تبررها، تقول اتعملت ليه.. معندناش مقالات توجيهيه.. ولا كاتب توجيهى..

وقال شكرى ناجى موظف الاستعلامات:

- لأ.. ملكـش حـق يارفعت.. الجرايد مش سـاكته.. ده إحنا عندنا كل يوم ميت شـكوى من الجرايد بيبعتها الوزراء ورؤسـاء مجالس الإدارات.. هو بس..

وقطعت حديثه دودى وقد قامت تطوف بعلبة الشيكولاتة..

وقال الدكتور رفعت وهو يلوك قطعة من الحلوى فى فمه:

- ما تخرجش عن الموضوع.. تعرفوا العامل النهاردة بتوصل ماهيته كام.. أربعين وخمسين جنيه.. وامبارح عبد الله خليل المهندس فى مطبعة النهضة قاللى إن الأسطى عندهم ماهيته وصلت لمية جنيه..

وقال إسماعيل:

- والله أنا بافكر ما ادخلش ابنى الجامعة ووديه يتعلم صنعه..

وقال عبد العزيز:

- صح.. ده اللى لازم يحصل.. جامعة إيه وبتاع إيه.. وقال محمد برعى:

- برضه يا عبد العزيز.. يعنى لو جالك عامل يخطب بنتك ترضى..

وقال عبد العزيز:

- مَرْضاش ليه.. ما دام بيكسب ويقدر يعيشها كويس..

وقالت دودى وهى تسحب صندوق الشيكولاتة من تحت يده:

- إزاى بأه يا عبد العزيز بيه.. بأه ده كلام.. الأصل برضه عليه عمل.

وقال عبد العزيز:

- أصل إيه يا دودى هانم.. ده كلام بتاع زمان..

وقال محمد رفعت:

- والثقافة..

وقال عبد العزيز:

- الثقافه فى القرايه، مش فى الشهاده.. يعنى أنا كنت اتثقفت فـــى كلية الحقوق.. أبـــدًا والله، لولا الكام كتـــاب اللى قريتهم كان زمانى حمار..

وابتعدت دودى بعلبة الشيكولاتة واتجهت إلى ركن السيدات.. واستقبلتها إنصاف قائلة:

- إلا قوليلى يا دودى.. إنتى لقيتى رز الشهر ده..

وقالت دودى:

- أبدًا والله يا أوختى.. بعتّ الواد النهاردة الصبح رجع من غير رز.. إنما أنا دايمًا عامله حسابى.. مخزنه شهرين لقدام..

وقالت قدرية:

- أنا مريّحه نفسى.. عملت ماهيه ثابته للموظف بتاع الجمعيه.. جنيه فى الشـــهر.. ومافيش جنس حاجه أطلبها ملقيهاش.. وأول الحاجة ماتنزل الجمعية، أبص ألاقيها عندى فى البيت..

وقالت خديجة:

- أنا الشهر اللى فات كنت حاجيب لهم البوليس..

وقالت إنصاف:

- إوعـــى.. ده اللـــى بيجيب البوليس.. بيفضـــل بعد كده جعان طـــول عمره.. الموظفين بتوع الجمعيه بيطلعوا دينه.. اوعى تروحى للبوليس..

وقالت سوسن:

– أنا يا أختى عارفه الحاجات دى كلها بتروح فين.. دى الحاجه يدوبك تنزل الجمعيه أول الشهر، تبصى ما تلقيهاش بعد ساعتين..

وقالت دودى ضاحكة:

– يمكن بيودوها غزة بدل البارفانات وعلب البلوبيف اللى بتيجى من هناك..

وقالت إنصاف:

– يا اختى الناس هى اللى فجعانه.. والفلوس بقت كتير فى إيدين اللى يسوى واللى ما يسواش.. وكل واحد همه على بطنه..

ومد محمد برعى عنقه من ركن الرجال، صائحًا:

– مش نتعشى بأه يا دودى!

وقالت دودى:

– هى الوصله خلصت..

والتفت محمد برعى إلى الراديو، ثم عاد إليها قائلا:

– آه.. خلصت من زمان..

وقالت دودى:

– طيب اتفضلوا..

وقام الجميع يتدافعون إلى حجرة الطعام.. وقال الدكتور رفعت للأستاذ عبد العزيز:

- تفتكر الست حاتغنى إيه الوصلة الجايه؟

وقال عبد العزيز:

- أمل حياتى طبعًا..

وقال شكرى:

- يا سلام.. عظيمه الست دى.

* * *

المدرسة الحديثة

أنا رجل حرفتى الكلام..

لست محاميًا..

لا.. إن المحامى يتحرك لسانه فى أفق ضيق محدود، ومهما كان عبقريًّا فإن عبقريته سجينة وراء قضبان من نصوص القوانين.. أما أنا فلسانى مطلق، وعبقريتى مطلقة.. إنى أضع العالم كله على طرف لسانى، وعبقريتى تجوب السماء والأرض بلا حدود.. وبلا قوانين.. بلا أى شىء.

ولست خطيبًا..

لا.. إن الخطيب يخاطب عواطف الجماهير. أما أنا فحرفتى مخاطبة عقول الناس.. ليس كل الناس. إنى أكره مخاطبة كل الناس.. ولكنى أخاطب مجموعة الأفراد الذين يملكون مصاير الناس.. الأفراد العباقرة الممتازين، الذين تتطلب مخاطبتهم عبقرية خاصة، عبقرية إنسان موهوب.. ويساوى إقناع الواحد منهم، إقناع شعب بأكمله.. والانتصار على واحد منهم - الانتصار بالمنطق - يساوى الانتصار على أمة.. يساوى فتح بلد واحتلاله.. أما الخطيب فهو ليس أكثر من راعى ماشية.. كل قدرته - مهما تفوق - هو أن يتجه بالماشية إلى حيث يريد.. ثم إن الخطيب يحتاج إلى صوت عال..

وأنا أكره الصوت العـالى.. حديثى كله همس.. وصدقونى أن الكلمة الخفيضـة الصوت أقوى ألف مرة مـن الكلمة العالية.. أقوى من كل صراخ العالم، لو قالها لسان موهوب مثل لسانى..

أنا - ببساطة - دبلوماسى..

لسـت وزيرًا ولا سـفيرًا.. لا يمكن أنا أضحـى بمواهبى لأحمل هذه الأعباء الإدارية، وأعباء التحركات والإجراءات الرسمية التى يحملها الوزير أو السفير.. وبرغم ذلك فإن لى مركزًا فى حكومتى لا يقل خطورة عن مركز الوزير أو السفير.. مركز خاص ممتاز، برغم أنى لا أتردد كثيرًا على الحفلات الرسمية.. ولا يشـاهدنى أحد فى الاجتماعات العامة، ولا تتحـدث عنى الصحف إلا نادرًا.. ولكنى دائمًا فـى مقابلات.. مقابلات تنتهى دائمًـا بحدث كبير.. حدث سياسـى أو اقتصـادى أو اجتماعى.. ولا يهم بعـد ذلك أن صورتى لا تبدو فى هذا الحدث.. وأن الفضل فيه لا ينسب إلى.. لا يهم.

وفـى كل حكومات العالم رجـال مثلى.. رجال لهـم أهميتهم القصوى.. ولكنهم لا يظهرون على المسرح، إنهم دائمًا بين الكواليس البعيـدة، الهادئة.. الخافتة الضوء.. فـى لقاءات مع رجال الدول الأخرى.. ويتكلمون..

والكلام ليس مجرد حرفة..

إنه فن..

فن اختيار الكلمة..

وفن النطق بالكلمة..

إن اختيار الكلمة، بمثابة اختيار اللون عندما يهم الرسام برسم لوحة.. الكلمة هى اللون الذى يرسم آراءك، ويرسم أهدافك.. والنطق بهـا بمثابة وضع اللون على اللوحـة.. هل تضعه فى خط عريض.. أو تضعــه فى خط رفيع.. وهل تضعه فاقعًـا أو تضعه خافتًا.. وهل تضعه فى جرة فرشـاة واحدة متصلة، أو تضعه فى نقط مبعثرة.. و .. وأنت تختار الكلمة بعقلك.. أما لســانك فهو الفرشاة التى ترسم بها كلامك..

إنه فن..

فن كبير..

وهو فــن يتطلب إعــدادًا خاصًّا لا يســتطيعه أى واحد من هواة الــكلام.. إنه يتطلب كثيرًا من المعلومــات.. ليس فقط معلومات عن الموضــوع الــذى تتكلم فيه.. بــل معلومات عــن كل موضوع، حتى نكــون دائمًا على اســتعداد لنتكلم فــى أى موضــوع.. وأنا – بكل تواضــع – أحمل فى رأســى معلومات تكفى لتــوزع على ألف رجل كل منهم متخصص فى موضوع، ويحمل فيه شــهادة دكتوراه.. إن رأســى أنسكلوبديا قائمة بذاتها.. لا تقل اتساعًا عن دائرة المعارف البريطانية.

والكلام فن يتطلب أيضًا إجادة أكبر عدد من اللغات، فإنك عندما تتحدث بنفس لغة محدثك تســتطيع أن تكسبه بسهولة أكثر.. ثم

إن استعانتك بمترجم تفقدك ثلاثة أرباع تأثيرك.. إن المترجم صديق تشك دائمًا فى خيانته لك مع زوجتك.. وأنا أكره المترجمين، ولا أثق فيهم ولست فى حاجة إليهم.. إنى أجيد سبع لغات.. أجيدها قراءة وكتابة وكلامًا.. فما حاجتى إلى مترجم.

وفن الكلام يحتاج أيضًا إلى قدرة على التمثيل.. لا يكفى أن تتكلم بلسانك.. بل بعينيك.. ويديك.. وأنفك.. وليس معنى هذا أن تقوم بحركات تمثيلية بحيث تبدو كممثل.. لا.. ولكن يجب أن يبدو الصدق فى عينيك عندما تريد أن تبدو صادقًا حتى لو كان كل كلامك كذبًا.. ويجب أن يبدو التساهل على وجهك حتى لو لم تكن متساهلا.. و.. و.. لا تنسَ أبدًا أن الذى تتحدث إليه ينظر إليك بعينيه، وأن كلامك يجب أن تكون له صورة على وجهك.

وأخيرًا فإن فن الكلام يحتاج إلى مرونة.. مرونة فى كل شىء حتى فى مبادئك.. فليس المهم هو المبادئ.. ولكن المهم هو أن تصل إلى ما تريد.. وبعد هذا فإن الخطيئة يمكن أن تلبسها ثوب الفضيلة. والنفاق يمكن أن تلبسه ثوب الصداقة.. و.. إن ألعن أنواع المتحدثين هم هؤلاء الذين يتحدثون باسم المبادئ، إنهم غالبًا لا يصلون إلى شىء..

إنه فن شاق..

وثقوا أنى ألهث عقب كل لقاء أتكلم فيه.. إن ما يتطلبه الكلام من القدرة على تركيز الذهن.. والسيطرة التامة على كل خلية من

خلايـا عقلك وعضلاتـك، عملية منهكة.. عنيفـة.. إنى أحتاج إلى راحة ست ساعات على الأقل عقب كل ساعة كلام.. وبرغم ذلك فإن تعبى لا يهم ما دمت أستطيع أن أرسم بلسانى هذه اللوحات الرائعة.. اللوحات التى أقنعت وآمن بها كل من تحدثت إليهم، وانتهت بعقد كثير من المعاهدات بين حكومتى والحكومات الأجنبية، وكثير من الاتفاقات التجارية والمالية، بل حلت كثيرًا من الأزمات السياسية..

ولا تعتقدوا أنى كبير فى السن.. لا.. فبرغم موهبتى ونجاحى، فأنا اليوم لا أتجاوز الأربعين من عمرى، وكنت فى الثامنة والثلاثين من عمرى عندما التقيت بكوثر لأول مرة..

التقيت بها فى حفل صغير ضم بعض الرجال الدبلوماسيين - أمثالى - وزوجاتهم.. ووقعت عليها عينى وهى ترقص «التويست».. آسف لعلها كانت ترقص «الباسانوفا».. ووجدت نفسى أتتبعها باهتمام كبير حتى إنى - ربما لأول مرة - نسيت أن وزير خارجية بولونيا يجلس بجانبى وأنها فرصة مناسبة لأرسم له بلسانى لوحة من لوحاتى.

إن كوثر رائعة.. إن جسدها ينساب وهى ترقص كأنه قطعة موسيقية قائمة بذاتها.. وكل قطعة من جسدها ترقص فى رقة وبساطة وحلاوة حتى أصابع يديها ترقص.. ليس فيها قطعة واحدة ليست متأثرة باللحن ومنساقة إليه.. واستنتجت أن كوثر لابد أن

تكــون كريمة أحد الزملاء المدعوين.. فعمرها لا يمكن أن يزيد على الثانية والعشــرين.. والأســلوب الذى ترقص به لا يمكن أن يكون أســلوب ســيدة متزوجة.. ونظرات عينيها فيها هذه اللمعة وهذا النشــاط الذى لا تجده فى الزوجات، وشــعرها الفاتح الساقط على عينيها لا يمكن أن يكون شــعر زوجة.. إنى خبير، وأســتطيع أن أفرق بين «الزوجة» و «الكريمة» فى لمحة واحدة..

وأخذت أسائل نفسى: ترى كريمة من من الزملاء؟

وقبل أن تدلنى فراســتى على أبيها انتهــت الرقصة.. وجاءت كوثــر وجلســت بجانبــى ولا أدرى هــل جاءت بجانبــى بمجرد الصدفة، أو لأن المقعد الذى اختارته كان أقرب مقعد إليها، أو أنها تعمــدت أن تختارنى لتجلس بجانبــى.. لا يهم.. لقد التفت إليها وعلى فمى هذه الابتســامة التى تعــودت أن أفتح بها قلب محدثى وأجذب بها اهتمامه.. إنى أثق كثيرًا فى هذه الابتسامة.. إنها فى قوة الافتتاحية الموسيقية التى تعزف قبل رفع الستار عن الأوبرا.. ولكن يبدو أن كوثر كانت مشــغولة عن ابتســامتى.. فقد جلســت بجانبى وهى تدق على الأرض بقدمها الصغيرة الأنيقة على نغمات الموســيقى الراقصة.. وجســدها يتمايل فى هزات رشيقة.. وتطرقع بأصابعها بين الحين والحين.. وهى تغنى فى صوت خفيض هامس:

– تويست.. تويست..

لا يهم.. إنى واثق أنى أستطيع أن أرسم لها بلسانى لوحة شائقة تبهرهــا وتجذب انتباههــا.. وقد كنت دائمًا قــادرًا على أن أبهر

النســاء.. بل إنى كنت أتعمد أن أجتذب اهتمام الســيدات كوسيلة من وســائل إقناع أزواجهن، وكان مبدئى: «إذا كسبت الزوجة فقد كســبت الزوج»، وقد كســبت جميع زوجات الرجال الكبار الذين كلفنى حكومتى بالتحدث إليهم..

وقلت لكوثر بادئًا الحديث معهــا، وقد وضعت فى عينى نظرة فيها بعــض البريق، وبعــض الحنان، وبعض الجديــة، وجعلت صوتى مليئًا ولكن لا يخلو من المرح:

- إنتى بترقصى مدهش يا آنسه.. تعرفى إن الرقصات الحديثة دى زى التويســت والباســانوفا، دى فى الواقع مش حديثه.. دى مأخوذه من الفولكلور الإنســانى.. أقــدم فولكلور فى العالم.. يعنى أيام ما كان الإنسان لسه عايش فى الغابه.. كان يرقص كده.. وعلشان كده أول ما ظهرت الرقصات دى كانت قريبه من قلب الإنسان و..

وقاطعتنى كوثر قائلة بسرعة:

- واحد قلبه وقف نزل يزقه.. ها.. ها..

وانطلقــت تضحك، ضحــكات رقيقة ناعمة لهــا صوت كصوت الأجراس المعلقة فى رقاب البقر وهى ترعى فى جبال سويسرا..

وارتبكت أنا..

الواقع كانت مفاجأة لى.. ولكنى تمالكت نفسى بسرعة، وضحكت معها..

ثـم كفت كوثر عن الضحك، وعـادت تتمايل وتدق بقدميها على أنغام الموسيقى الراقصة.. وعدت أنا إلى رسم لوحتى بلسانى، وقلت:

الواقـع مش بـس الرقص هو اللـى أصبح يسـتمد خطواته من الفولكلـور القديـم.. الحُلى مثلا.. يعنى الأسـاور اللى بنشـوفها النهاردة فى إيدين الستات و..

وعادت كوثر تقاطعنى قائلة:

– مره واحد حلق والتانى غويشه.. ها.. ها..

وسخسخت على نفسها من الضحك.

وارتبكت مرة ثانية؟، ولكنى بسرعة ضحكت معها.. سخسخت أنا الآخر.. ثم عدت أقول بعد أن أفقنا من السخسخة:

– أنا مره كنت فى انجلتر وزرت قصر اللورد..

وقاطعتنى كوثر:

– واحد نوبه راح قصر الدوباره اتكعبل.. ها.. ها..

واستطردت بسرعة:

– واحد نوبه ربى فراخ فى قفص صدره، ها.. ها.. ها..

و..

– واحد راح سينما ريالتو نزلت.. ها.. ها..

و..

– واحـد قالوا له الصالون الأخضـر فاتح، راح لقاه غامق.. ها.. ها.. ها..

ولم تسكت إلا عندما تقدم لها أحد الضيوف وطلبها للرقص..
وتركتنى مذهولا..
لا يمكن أن تكون كوثر سخيفة وتافهة إلى هذا الحد..
لا.. ليست سخيفة ولا تافهة.. افهمونى، كل ما هنالك أن كوثر تؤمن بمدرسة فنية غير المدرسة التى أؤمن بها.. إنها من أنصار المدرسة التجريدية.. والتجريد فى الرسم معناه أن تجرد اللوحة من الموضوع، وتقتصر فيها على الألوان والخطوط. وتأثير الألوان والخطوط يغنى عن الموضوع.. أى أن تضع اللون الأسود، بجانب الأبيض، بجانب الأخضر، بجانب الأسود.. وهذا يكفى.. يكفى لتكوين لوحة رائعة.. لوحة تجريدية.. وكذلك فى فن الكلام، إنك تستطيع أن تجرد كلامك من الموضوع، ثم تنتقى مجموعة من الألفاظ تضعها بجانب بعضها البعض بحيث تترك تأثيرًا على السامع.. أى تأثير.. تأثير بلا موضوع.. وهذه هى المدرسة الحديثة.. والمدرسة الحديثة فى الرسم لها أنصار كثيرون، وبعض اللوحات التجريدية تباع بآلاف الجنيهات، وكذلك المدرسة الحديثة فى الكلام، لها أنصار كثيرون، ولها تأثير كبير..
وبدأت أراجع كلام كوثر:
- واحد حلق والثانى غويشه.. ها.. ها.. ها..
ضحكت فعلا.. ضحكات من كل قلبى.
- واحد قلبه وقف نزل يزقه. ها.. ها.. ها..

إنـــى أضحك.. أضحك كما لم أضحك قط فى عمرى.. إن المدرســة التجريدية لها تأثير كبير.. تأثير مباشر.

وكوثر ليست تافهة ولا ســخيفة، إنها من أكبر أنصار المدرسة التجريدية..

ولا أطيل عليكم..

لقد تزوجت كوثر..

ومضى عام ونحن نكاد نطير من السعادة.. إننا فى جنة صنعناها مــن حبنا ومــن توافق أمزجتنا وشــخصياتنا.. وإيمانى بالمدرســة التجريدية يشــتد، وقد جمعت خلال هــذا العام من لوحات الكلام التجريدى، عشــرات.. مئات.. ربما أكثر ممــا جمعت كوثر طول حياتها..

ثم لا أدرى ماذا حدث..

ماذا حدث حتى تطردنى حكومتى من عملى هذه الطردة الشنيعة، دون ذنب جنيته، وبعد أن خدمت عشر سنوات ساهمت خلالها فى عقد كثير من المعاهدات والاتفاقات وحل كثير من الأزمات..

كل ما أذكره أن الوزير اســتدعانى مرة إلى مكتبه، وبدأ يحدثنى عن الأوضاع السياسية فى الكونغو وقال فى ضمن كلامه:

إن مبادئ المرحوم لومومبا لا تزال..

وقاطعته قائلا:

- واحد لومومبا والثانى مالوش.. ها.. ها.. ها.

إنها لوحة تجريدية رائعة..

ولكن الوزير لم يضحك.. لقد نظر إلىّ نظرة هائلة، وزم شفتيه فى قرف.. لا يهم.. إن سيادته ليس من أنصار المدرسة التجريدية فى الكلام.. وأنا برغم إيمانى بالمدرسة التجريدية، لست متعصبًا لها، إنى أقبل جميع المدارس الأخرى وأحترمها..

ولكن السيد الوزير ظل ينظر إلى هذه النظرة الهائلة، وشفتاه مزمومتان فى قرف.. ثم أنهى المقابلة فجأة، وصرفنى من مكتبه.

وفى اليوم التالى تلقيت خطاب الاستغناء عن خدماتى..

لماذا؟..

لست أدرى..

* * *

غابة من السيقان

لم أكن أبدًا هذا الإنسان..

كنت دائمًا إنسـانًا مثاليًّا.. ربما منذ ولدت وأنا مثالى.. ولم أكن أدرى أننـى مثالى.. لم أرَ صورة من صـور الحياة حتى أقارن بينها وبـين صورة حياتى، ثم أكتشـف من المقارنة أننى مثـالى.. أبدًا.. كنـت أعتقد أن الحياة كلها هى هذه الحياة التى أعيشـها، الحياة الهادئة، الجادة.. طريقها نور، وسماؤها عفة، وأرضها علم وثقافة وعمل..

وبيتنا الكبـير هادئ دائمًا، نظيف دائمًـا، لم ترتفع فيه يومًا كلمة نابية، ولا دوى فيه صراخ، ولا مر بين جدرانه حادث يمكن أن يضـع معانى الفضيلة والعفة موضع مناقشـة.. وأبى يملأ البيت بهيبته، وطيبة قلبه، وإحساسـه الكبير بالمسئولية.. وأمى تملؤه بجمالها، وحنانها، وبأرقى صورة من صور الأمومة الطاهرة.. وأنا أذهب إلى المدرسة وأعود لأستذكر دروسى ثم أشغل نفسى بهوايتى للرسـم، أو أذهب إلى النادى القريب لألعـب التنس.. وهى هواية ثانيـة مـن هواياتى.. أو أنزل إلى ورشـة النجـارة الصغيرة التى أقامها لى أبى فى البدروم، لأصنع أشـياء من الخشـب.. فقد كانت النجارة هوايتى الثالثة.. أو أقرأ، فالقراءة أيضًا إحدى هواياتى..

وإخوتى لكل منهم هوايته التى يشجعهم عليها أبى.. وكلنا نعيش فى هذا العالم المثالى النظيف.. عالم كله حب، وكله طهر، وعفة، وفضيلة، ومتع راقية وعميقة.. متعة العقل.. متعة الروح.. متعة الرضا عن النفس.. متعة المثالية..

إلى أن تخرجت فى كلية الحقوق..

وعملت محاميًا فى مكتب أبى.

ومكتبنا – أقصد مكتب أبى – كبيتنا.. مكتب نظيف، عف، مثالى.. لم يدخله أبدًا مجرم، ولا تولى الدفاع أبدًا عن جانٍ.. وليس بين دوسيهاته قضية مخدرات أو زنا، أو أى قضية أخرى من هذه القضايا التى تمس الفضيلة والشرف.. كانت كل قضايانا قضايا أنيقة مهذبة، تقوم على خلاف فى تفسير القانون، أو على أخطاء فى الإجراءات، أكثر مما تقوم على نية الإجرام والتعدى.. قضايا الشركات والضرائب، والاستشارات القانونية للهيئات المحلية والأجنبية.. و.. و.. وكان أبى – رحمه الله – يقول لى دائمًا إن المحامى يجب أن يكون أولا قاضيًا، يحكم فى القضية التى تعرض أمامه، قبل أن يعرضها على المحكمة.. ليس من مهمة المحامى أبدًا أن يستغل علمه بالقانون ليتحايل على العدالة، ولا أن يبرئ مجرمًا.. إن مهمته هى نفس مهمة القاضى وكما يعد القاضى حيثيات حكمه.. فكذلك يعد المحامى دفاعه عن حكمه..

ولذلك سميت المحاماة: «القضاء الواقف»، لأن القضاء الآخر «قضاء جالس».. وعلى هذا الأساس كان أبى يرفض كثيرًا من القضايا التى يأتـى بها أصحابها إلى مكتبنا.. يرفضها مهما بلغ إغراء الأتعاب التى تعرض عليه..

وسلكت سلوك أبى فى المحاماة، السلوك العف النزيه الجاد.. وتفوقت.. تفوقت لأنى أحببت عملى.. بل إن المحاماة لم تعد مجرد عمل.. بل أصبحت هواية أضمها إلى مجموعة هواياتى الكثيرة.. وعندما توفى والدى إلى رحمة الله، لم أخسر موكلا واحدًا من موكليه.. كلهم وثقوا بى ثقتهم بأبى..

وفى نفس العام الذى تخرجت فيه من كلية الحقوق، تزوجت نيفين..

تزوجت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمرى..

وكانت نيفين أجمل فتاة التقت بها عيناى فى حياتى.. وبرغم ذلك لم يكن جمالها هو كل شىء.. كان فيها هذا العبير الهادئ العميق الذى يفوح من بنات الناس الأصلاء.. عبير الحنان.. الطهر.. التعفف.. الرقة.. الطيبة.. الفهم.. عبير المثالية.. كانت نيفين مثالية مثلى.. ولم تكن فى حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لنشعر بارتباطنا إلى الأبد.. رباط الحب الأكيد، الحلو، الرائق كقطرات الندى..

وأصبحت زوجًا مثاليًّا..

أذهب إلى المحاكم فى الصباح، وأعود فى الساعة الواحدة لأتناول طعام الغداء، وأستريح قليلا ثم أذهب إلى النادى لألعب التنس.. وفى المساء أذهب إلى المكتب لأبقى فيه حتى التاسعة وأعود إلى بيتى لأجلس مع أولادى، أو أمارس إحدى هواياتى، إن لم تكن - نيفين وأنا - مدعوين على العشاء عند أحد من أصدقائنا الكثيرين..

خمسة عشر عامًا مرت وأنا هذا الزوج المثالى.. عشتها بين عينى نيفين الهادئتين، وابتسامتها الحلوة، وحنانها الفياض، وروحها النقية. وأولادنا حولنا ملائكة، إى والله.. ملائكة..

إلى أن دخلت حياتى سميحة..

سميحة هانم.. حرم المهندس المعروف مصطفى الشريف..

جاءت إلى مكتبى تستشيرنى فى مشكلة خاصة بضريبة التركات المستحقة عليها بعد وفاة والدها.. ولم أكن أعرفها.. ولكنى كنت اسمع عن زوجها المهندس الكبير مصطفى الشريف.. وكنت أحد المعجبين بفنه المعمارى الرائع.. ومن أجل زوجها، واسمه الكبير، استقبلتها باهتمام واحترام شديد.

ولا أدرى كيف وجدت نفسى بعد دقائق من دخولها إلى مكتبى، أستمع إليها وهى تحدثنى فى مواضيع بعيدة كل البعد عن ضريبة التركات.. كانت تحدثنى عن حياتها العائلية، وعن الناس الذين تعرفهم وعن الأفلام، وعن الكتب.. وكان حديثها من هذا النوع

الذكى الذى يشـدك إليه.. ولا تملـه.. الحديث الذى يوقظ انتباهك كلما فتر.. ويثير فيك كل ما تملكه من عواطف.. إثارة عابرة.. لقد جعلتنـى أضحك.. وجعلتنى أحزن.. وارتفعت بى وانخفضت بى.. إنى لم أقابل أبدًا مثل هذه السـيدة.. واكتشفنا أنه مرت بنا ساعة.. ربما أكثر.. ونحن لم ننته بعد من بحث موضوع ضريبة التركات..

وانصرفت على أن تعود..

وليلتها قلت لزوجتى نيفين:

– جاءت إلى المكتـب الليلة سميحة هانم حرم المهندس مصطفى الشريف.. أتعرفينها؟

قالت فى صوتها الهادئ ولسانها العف:

– سمعت عنها..

قلت:

– إنها سيدة مليئة بالحيوية..

وقالت نيفين:

– كلها نشاط.. إنها فى كل مكان..

والواقع أن سميحة لم تترك فى أثرًا بعد لقائنا الأول إلا انبهارى بشخصيتها النشيطة المتدفقة.. انبهار كاد يتلاشى مع الصباح..

ثم عادت سميحة..

وعادت مرة أخرى..

إنها قطعًا ليست أجمل من نيفين.. ولكن فيها شيئًا ليس في نيفين. هذا التدفق.. هذه القدرة الطاغية على جذب كل خيوط انتباهك.. وتحريك مشاعرك.. إنه شيء ليس في نيفين..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أقارن فيها بين نيفين وأي امرأة أخرى.. بل كانت المرة الأولى التي أعتقد فيها أن هناك أي امرأة يمكن أن تقارن بنيفين.. أكثر.. كانت المرة الأولى التي أرى فيها بعينين يقظتين متعمدتين امرأة أخرى غير نيفين..

وجاءت سميحة ذات مساء..

وجلست تستولى على كل اهتمامي.. كأنها تنيمني تنويمًا مغناطيسيًا.. ثم قالت:

– ليس معي سيارتي.. هل توصلني بسيارتك..

ونظرت في ساعتي.. التاسعة، موعد انتهاء العمل..

– لا مانع..

وركبت بجانبي، وحديثها لا يكف عني.. تجعلني أضحك وتجعلني أفكر معها.. أفكر في أشياء تافهة لم يكن يخطر ببالي أني سأفكر فيها يومًا.. الأزياء، نجوم السينما، أي شيء.. ووقفت بها أمام بيتها.. وقالت في بساطة:

– هل لك في كأس؟

وترددت.. فعادت تقول:

– قد نستطيع في جلسة عائلية أن نحصر تفكيرنا في موضوعنا.. أقصد قضية الضرائب..

وعدت أنظر فى ساعتى..
التاسعة والنصف..
أستطيع أن أتأخر قليلا عن البيت..
ودخلت معها.. وكنت أعتقد أنى سأقابل زوجها المهندس مصطفى الشريف.. ولكنه لم يكن فى البيت.. إنه فى الإسكندرية..
وعدنا إلى حديثنا..
وشىء أكثر صراحة ينطلق من عينيها، وينطلق فى كلماتها.. ولم أكن ساذجًا إلى هذا الحد.. إنى أعرف بالضبط ماذا تريد.. ويجب أن أقاوم.. يجب.. إنى رجل مثالى.. وزوج مثالى.. وهى زوجة.. وزوجها معروف.. إنى أحترم زوجها.. ولكنى كنت قد نسيت الزوج.. نسيته ربما من أول لقاء.. إن شخصيتها الطاغية لا تترك مجالا لذكر زوجها.. ومقاومتى تضعف.. وتضعف.. إلى أن وجدت عمرى كله ينهار.. ثمانية وثلاثين عامًا من المثالية تتساقط هشة كالأوراق المحترقة.
وعدت إلى بيتى..
ولأول مرة لا أستطيع أن أواجه نيفين بعينى.. ولا أولادى.. عيناى منكستان.. رأسى منكس.. قلبى منكس.. ضميرى منكس.. فى ضميرى حسرة صارخة كأنى خسرت كل رأس مالى على مائدة القمار فى لحظة واحدة.. ولم يكن لى رأس مال أعز علىّ من مثاليتى..
ولم أنم..

ونسـيت فى الصبـاح أن أقبل أولادى.. وأقبـل نيفين.. وجرت نيفـين ورائى، ولحقت بى عنـد الباب وهى تنظر إلىّ فى دهشـة بريئة.. ومدت إلى خدها، فقبلتها قبلة سـريعة كأنى كنت أخشى على خدها الطاهر أن تلوثه شفتاى..

وكان يجب أن أقاوم..

أقاوم سميحة..

وقد اسـتطعت أن أقاومها فـى التليفون، ولكنى لم أسـتطع أن أسـتمر فـى مقاومتها عندما جـاءت إلى مكتبى بنفسـها لتأخذنى إليها.. إن سـحرًا طاغيًا يرقد فى عينيها السـوداوين الكبيرتين.. سحر الخطيئة.. وانهرت.. أنا الذى كنت أفخر دائمًا بقوة إرادتى.. انهرت.. ربما لأن كل قوى فوقه من هو أقوى منه.. وهاتان العينان السوداوان الكبيرتان أقوى منى..

والانهيار يأكل أعصابى..

إنـى أتغير.. إنى لم أعد هذا الإنسـان الهـادئ الطاهر المثالى.. إنى إنسـان عصبى.. تافه.. ضائع.. أهملت جميع هواياتى بما فيها هواية المحاماة.. أسرح كثيرًا.. وكلما وخزنى ضميرى صرخت فى وجـه نيفين.. كأنى أحاول أن أسـكت صـوت الضمير تحت صوت الصـراخ.. أو كأن نيفين هى ضميرى الذى أحاول أن أسـكته. وهى تنظر إلى فى رهبة تشوبها الشفقة، وفى عينيها تساؤل حائر.. ماذا بى.. لعلى مريض..

وسميحة تتحدث كثيرًا عن نيفين..
إنها تريد أن تتعرف إليها..
- لماذا؟..
- لأزداد قربًا منك.. يا حبيبى.
ولم أرد..
إنى لا أريد أن أجر خطيئتى إلى بيتى..
ثم فوجئت يومًا بنيفين تقول لى فى صوتها الهادئ، ولسانها العف:
- أتدرى.. تعرفت اليوم إلى سميحة هانم حرم المهندس مصطفى الشريف.. إنها سيدة رائعة.. دعوتها غدًا إلى الشاى مع بعض الصديقات.. دعوة للسيدات فقط.
وذعرت..
لقد وصلت الخطيئة إلى بيتى..
ولكن..
هل الخطيئة هى سميحة؟
وأنا.. ألست النصف الآخر من الخطيئة.. وأنا أقيم فى هذا البيت.. فلماذا لا تأتى إليه سميحة أيضًا.
وسكت..
وجاءت سميحة..
وزوجتى مبهورة بها.. إنها تتحدث عنها كأنها تسير فى مظاهرة تهتف باسمها.. تحيا سميحة.. تعيش سميحة.. إلى الأمام

يا سميحة.. وشعرت بنوع من الزهو الخبيث المريض، وزوجتى تتحدث عن إعجابها بسميحة.. شعرت كأن زوجتى تهنئنى على ذوقى فى اختيار النساء.. كأنها تهنئنى على هذا الانتصار يوم نلت سميحة..

وسميحة تتحدث كل يوم فى التليفون مع زوجتى.. فى البيت.

وتتحدث معى كل يوم فى التليفون.. فى المكتب..

ثم مفاجأة أخرى..

إن سميحة تدعونا - زوجتى وأنا - إلى العشاء عندها..

وقد وجهت سميحة الدعوة عن طريق زوجتى دون أن تخبرنى بها.. كأنها بذكائها النسائى كانت تعلم أن زوجتى أقدر على إقناعى بقبول الدعوة.

لا.. لن أقبلها.. إنى مشغول.. مشغول.

وزوجتى تلح..

ثم فوجئت بالمهندس مصطفى الشريف يتحدث إلىّ فى التليفون.. وارتعشت يدى التى تحمل السماعة عندما نطق اسمه.. وسقط قلبى.. ولكنه يشكرنى.. يشكرنى على اهتمامى بقضية زوجته ويكرر دعوة سميحة التى وجهتها إلى زوجتى..

كل الأصول روعيت..

هى دعت زوجتى..

وزوجها دعانى..

فلا أستطيع الرفض..

وذهبنا.. وكل شيء منى ليس فى مكانه.. ابتسامتى ليست فى مكانها المعتاد فوق شفتى.. ونظرتى ليست فى مكانها المعتاد من عينى، وقلبى ليس فى مكانه المعتاد بين ضلوعى.. وأشياء فى داخلى ترتعش.. كأنى آلة انفكت صواميلها.. وخفت.. خفت أن يلمح الناس على وجهى بصمات خطيئتى.. خفت أن يكون فى صدرى ميكرفون يذيع على الناس كل ما فيه من أسرار..

ولكن لا شيء حدث..

سميحة تبدو طبيعية.. مرحة، رائعة..

ولابد أنى أنا الآخر أبدو طبيعيًا.

إن الخطيئة تتحرك ببساطة فى بيوت الناس دون أن يلمحها أحد.. الخطيئة ليس لها وجه.. ليس لها رائحة.. ليس لها صوت..

وراعتنى هذه البساطة التى يمكن أن تعشش بها الخطيئة فى المجتمعات، ووجدت نفسى أتساءل.. إذا كانت هذه هى حال الخطيئة فى المجتمع.. فلماذا لا يكون فى هذا الحفل خطايا أخرى غير خطيئتى أنا وسميحة.. لماذا أفترض أنى بين كل هؤلاء المدعوين الزوج الخائن الوحيد.. ولماذا أفترض أن سميحة هى الزوجة الخائنة الوحيدة؟

وبدأت دون أن أشعر أبحث عن خطايا الناس فى تصرفاتهم، وفى كلماتهم، وفى نظراتهم.. إن فلانًا ينظر إلى فلانة طويلا..

وفلانة تركت يدها مدة أطول من المعتاد في يد فلان وهي تصافحه..
و..

وأصبحت هذه هي هوايتي الجديدة.

هوايتي الوحيدة..

وقد أصبحنا - نيفين وأنا - نخرج كل مساء مع سميحة وزوجها.. وكنت أضحك في صدري ونحن نتحرك معًا.. إن عددنا ليس أربعة.. عددنا ستة.. زوج وزوجته، وزوج آخر وزوجته، ثم عشيق وعشيقته.. والمجموع ستة لا أربعة.. ها.. ها.. ها.. فلسفة، عبقرية.. وفي كل مكان كنا نذهب إليه، سواء ذهبنا إلى حفلة أو إلى سينما أو إلى ملهى.. أبدأ في ممارسة هوايتي.. واكتشاف خطايا الناس، واستنتاجها من تصرفاتهم وهمساتهم.. وكنت أجد لذة في ممارسة هذه الهواية.. لذة فائقة.. أسابيع طويلة مرت وأنا أمارسها.. ولذتي بها تكبر.

ثم..

وكنا مدعوين نحن الأربعة.. آسف نحن الستة.. إلى حفل ساهر.. وسقطت عيناي على وجه نيفين.. زوجتي نيفين.. وإذا بي أتساءل: لما أعفيت نيفين من هوايتي.. لماذا لم أبحث فيها هي الأخرى عن الخطيئة.. لماذا.. لأنها مثالية؟ ولكني كنت أنا الآخر مثاليًّا، ولم أعف من الخطيئة.. ربما هي الأخرى وقعت كما وقعت؟

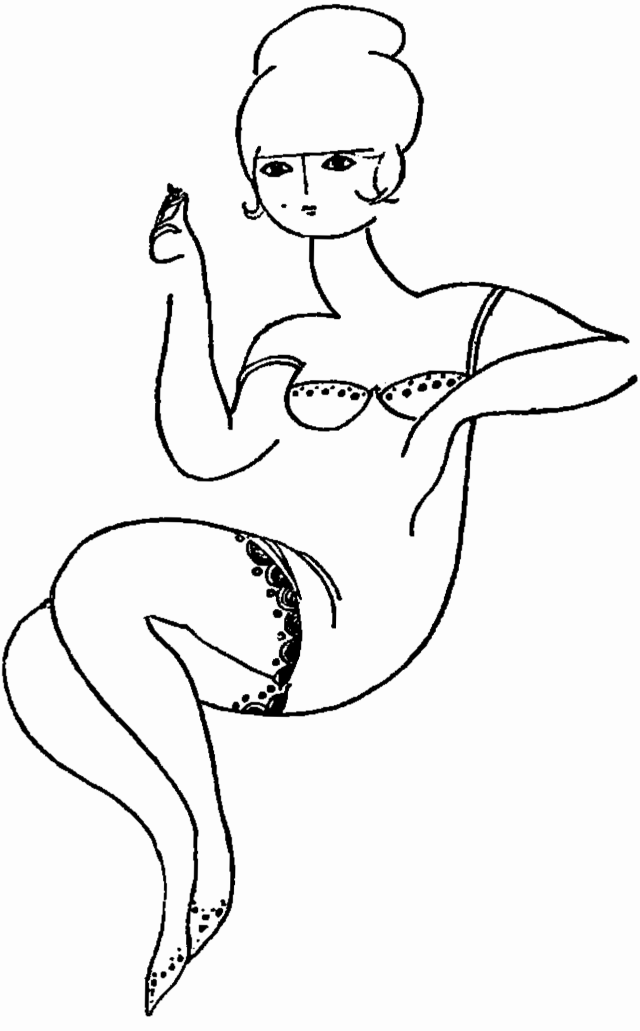

وبدأت أنظر إلى نيفين بعينين جديدتين..

وخيل إلىّ أنى أرى فى عينيها نفس اللمعة التى أراها فى عينى سميحة.. وأرى على شفتيها نفس الابتسامة الواثقة المتحدية.. وألمح فى حديثها نفس الذكاء ونفس الشخصية الجذابة.. و.. و..

وبدأت أختل.

إنى لا أرفع عينى عن نيفين.. وقد كنت أمارس هوايتى على الناس فى الحفلات والمجتمعات فقط.. فأصبحت أمارس هوايتى على نيفين طول النهار والليل.. فى البيت وخارج البيت.. إنى أتنصت عليها وهى تتحدث فى التليفون.. وأفتح دواليبها فى غيبتها.. وأتظاهر بالنوم حتى تنام، ثم أفتح عينى وأبقى يقظًا طول الليل لعلها تقول شيئًا فى أحلامها يدلنى على ما فى ضميرها..

ونيفين صابرة..

وأنا أختل.. وفى كل يوم أختل أكثر..

إلى أن كان هذا اليوم.

وكنا مدعوين نحن الأربعة.. آسف.. نحن الستة.. إلى حفل عشاء يضم أكثر من عشرين مدعوًا ومدعوة، التفوا جميعًا حول مائدة واحدة كبيرة.. كل زوجة بجانبها رجل ليس زوجها.. وكل رجل بجانبه سيدة ليست زوجته.. هذ هى التقاليد.. التقاليد الاجتماعية المعترف بها.. ليس من حقك أن تطالب بأن تجلس زوجتك بجانبك.. عيب أن تجلس الزوجة بجانب زوجها..

فضيحــة كبرى.. إن زوجتــك بجانب رجل آخــر.. وكأن زوجاتنا كلهن من بنات الجيشا، مفروض أن ترفه كل منهن عن الرجل الذى يوضع بجانبها تقول له كلامًا حلوًا.. وتبتســم له ابتســامة حلوة.. وتنظر إليه نظرة حلوة.. تقاليد.. تقاليد الجيشا.

ووضعونى بجانــب سميحة.. أو وضعوا سميحة بجانبى.. إنهم دائمًــا يضعون أحدنا بجانب الآخر وكأن هنــاك اعترافًا ضمنيًّا من المجتمع بخطيئتنا..

ومدت سميحة ساقها ولفتها حول ساقى من تحت المائدة.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى..

إنها دائمًا تلف ســاقها على ســاقى من تحــت المائدة، وتخبط ركبتها بركبتى، كلما جلست بجانبى..

واستسلمت ساقى لساقها..

نامت عليها..

ثم فجأة تذكرت نيفين..

من أدارنى؟!!

واعتدلت فى جلستى..

إنها تجلس فى الناحية المقابلة من المائدة..

ولا يبدو على وجهها شىء..

ولكن سميحة أيضًا لا يبدو على وجهها شىء.. ولو نظر المهندس مصطفى الشريف فى وجه زوجته فلن يرى ساقها ملتفة حول ساقى.

إن الخطيئة لا تبدو فوق المائدة، ولكنها تعيش تحت المائدة..

وتعمدت أن أسقط السكين الذى آكل به على الأرض، وانحنيت لألتقطه، ونظرت تحت المائدة.. ولكنها نظرة سريعة غير مركزة لم ألمح من خلالها شيئًا.

وبعد فترة عدت وأسقطت الشوكة.. وحاولت أن أنظر تحت المائدة.. كانت نظرة أطول وأكثر جرأة من النظرة الأولى.. ولكنى لم أتمكن أيضًا من التأكد من حقيقة ما يدور تحت المائدة..

وحاولت أن أهدأ وأن أنسى الموضوع.. ولكن رغبة جامحة عنيفة تتملكنى لأرى ما يدور تحت المائدة.. ولعل سميحة لحظت اضطرابى فبدأت تتحدث إلىّ وتحاول أن تثير اهتمامى، وحاولت أنا الآخر أن أستمع إلى حديثها وأهتم به، ولكن الرغبة الجامحة العنيفة تلح علىّ.. وتستبد بى.. تستبد بعقلى.. بأعصابى.. بدمائى.. إن بى رغبى جامحة فى أن أرى ما يدور تحت المائدة..

ولم أعد أستطيع أن أقاوم..

أسقطت نفسى من فوق مقعدى، وزحفت على يدى وركبتى ودخلت تحت المائدة.. ووجدت نفسى فى عالم غريب.. عالم خافت الضوء.. مثير.. ومن حولى سيقان كثيرة.. سيقان فى بنطلونات.. وسيقان حريمى.. سيقان رفيعة، وسيقان مليئة.. إنها غابة.. غابة من السيقان، ولو هبت الريح لاصطدمت السيقان بعضها ببعض كما تتصادم أفرع أشجار الغابة.. تتصادم هكذا.. هكذا.. وبدأت أمسك

بالسـيقان من حـولى وألصقها بعضها ببعض.. وأنـا أصرخ: الريح هبت.. الغابة.. الغابة.. الغابة.

* * *

لقـد كنت يومها أدرى تمامًا ما أفعلـه.. كنت فى وعيى.. كنت أعى أنى أسـقطت نفسـى من فوق المقعد، وزحفت إلى تحت المائدة، وأمسـكت بالسيقان أصدم كل سـاق رجل بساق امرأة.. وكنت أسمع صوتـى وأنا أصرخ.. الغابة.. الغابة.. لم أكن مجنونًا. كل ما هنالك أنى لم أسـتطع أن أقاوم هذه الرغبة الجامحة العنيفة التى استبدت بى..

ولكنهم اعتبرونى مجنونًا..

وجذبونى من تحت المائدة..

ونقولنى إلى مستشفى بهمان..

وكان آخـر ما رأيته هـو دموع زوجتى نيفين، قبل أن يسـرى المخدر الذى حقنونى به فى عروقى وأنام.

وقد قضيت فى مستشفى بهمان ستة شهور.

وبرغم ذلك..

صدقونى..

أنا لست مجنونًا..

وأنا أبحث عن عمل..

عبد الله، وفاطمة

يا حضرات القضاة..

أنا لا أطلب الرحمة.. أنا أطلب العدل.. وإذا كان هناك من يقول «الرحمة فوق العدل»، فإني أقول «العدل فوق الرحمة».. إني أتمسك بالعدل، وأرفض الرحمة.. ولا أريد أن أخاطب قلوبكم لأبحث فيها عن الرحمة، بل أكتفي بمخاطبة عقولكم باحثًا فيها عن العدل.. ومهما بدا في حالتي التي أعرضها عليكم من غرابة تصل إلى حد الشذوذ، فإني واثق من أن عقولكم التي تمرست طويلا على اكتشاف خيط العدالة، قادرة على أن تنصفني.. قادرة على أن تعطيني حقي، وتأخذ للمجتمع حقه عليّ..

كل ما هنالك يا حضرات القضاة أني لا أريدكم أن تحكموا عليّ بالظروف التي أحاطت بي عند ما ارتكبت جريمتي.. بل أريدكم أن تبحثوا عما فعلته هذه الظروف في نفسي.. في داخلي.. إن نفس الإنسان عالم قائم بذاته.. في داخل كل إنسان مدينة كبيرة. أكبر من مدينة القاهرة.. مدينة فيها شوارع وحواري وأزقة.. وفيها أتوبيسات وترموايات وسيارات تاكسي.. وفيها عمارات تنهدم، وعمارات تبنى.. وفيها زحام من الناس.. ناس كثيرون، يضحكون ويبكون، ويتناقشون، ويصرخون.. ناس أشرار، وناس أخيار..

ناس ضعفاء ونـــاس أقوياء.. والجريمة التى ارتكبتها وقعت داخل هذه المدينة.. جريمتى لم تقع فى شارع «السد» بحى السيدة زينب، كمـا تقول أوراق التحقيق.. ولكنها وقعت فى شـارع آخر له اسـم آخـر، وفى حى آخر، وفـى مدينة أخرى.. إنهـا وقعت فى هذه المدينة التى تسـمى مدينة النفس الإنسـانية.. المدينة التى تعيش داخلى.. وأنتم لن تجدوا الحقيقة إلا فى هذه المدينة. الحقيقة التى ستهديكم إلى العدالة.

يا حضرات القضاة..

إنـــى أرفـض فى إصرار هـذا التحليـل الذى تقدم به الأسـتاذ المحامـى الذى انتدب للدفاع عنـى.. إنه يحاول أن يبرر جريمتى بالجنون.. وبرغم أنى أقدر حسـن نواياه، وأقدر أن محاولة إثبات جنـون المتهم هى أسـهل الطرق للدفاع عنـه.. إلا أنى أرفض هذه المحاولـة.. أرفض أن أكذب عليكم.. أنا لسـت مجنونًا يا حضرات القضـاة.. أنا فى كامل قواى العقلية.. ولـو أحلتمونى على الطبيب الشـرعى، فسيكتشـف بعد دقائق أنى عاقل.. عاقـل جدًّا.. ولكن الأجـدى لعدالتكـم أن تنتدبوا خبيرًا من خبـراء علم النفس لينير أمامكـم هذه الشـوارع والحـوارى والأزقة التى تتكـون منها هذه المدينة الواسـعة التى ترقد بكل ضجيجها داخل صدرى.. وعندما يضاء النور ستكتشـفون أنى عندما ارتكبت جريمتى كنت فى حالة يسـمونها فى علم النفس، حالة ازدواج الشخصية.. لم أكن ساعتها

شخصًا واحدًا.. بل كنت شخصين.. كنت عبد الله محمد على جابر وكنت فى الوقت نفسه فاطمة السيد شفيق..

نعم يا حضرات القضاة.. كنت شخصين.. اثنين.. ولكن الجريمة كما ثبت فى التحقيق ارتكبها شخص واحد.. فمن الذى ارتكبها؟.

هل ارتكبتها أنا عبد الله محمد على جابر.

أم ارتكبتها أنا فاطمة السيد شفيق؟

وتحديد الشخص الذى ارتكب الجريمة، أو على الأصح تحديد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة، يتوقف عليه حكمكم.. فإن ظروف كل من الشخصين مختلفة، والدافع لكل منهما على ارتكاب الجريمة يختلف.. والظروف والدوافع هى التى تحدد الحكم.. قد تحكمون بالإعدام، وقد تحكمون بالحبس البسيط لمدة ثلاثة أشهر، وقد تحكمون بالبراءة.. ولكن يجب أولا أن تحددوا الشخص الذى ارتكب الجريمة.. أقصد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة..

يا حضرات القضاة..

أرجوكم.. طولوا بالكم علىّ.. ولا تنظروا إلىّ هكذا كأنى مجنون.. إن حديثى قائم على أسس علمية صحيحة.. وقد درست علم النفس.. قرأت فيه أكثر مما قرأ الدكاترة المتخصصون.. وقد دفعنى إلى دراسة علم النفس هوايتى للأدب.. أنا أديب يا حضرات القضاة.. قصاص.. صحيح أنى مغمور، لم تنشر لى الصحف شيئًا،

ولا صدر لى كتاب.. ولكن ليس معنى هذا أنى لست أرقى فى إنتاجى الأدبـــى، وأعمق، وأكثـــر تمكنًا، من كثير من الأدبـــاء والقصاصين المعروفين الذين تنتشر أسماؤهم فوق بقع سوداء كالبراطيش.. متى بدأت هوايتى للأدب.. ربما منذ ولدت، فأنا لا أعى نفســى إلا وفى يــدى قلم.. إن الموهبة تورث يا حضــرات القضاة.. وقد كان جدى الشيخ على جابر أديبًا موهوبًا، وربما ورثت عنه الأدب، كما ورث إســكندر ديماس الابن موهبته عن إســكندر ديماس الأب.. وكنت أطمع دائمًا أن يكون عندنا بين الأدباء العرب «جابر الجد» و«جابر الحفيد» أى أنا. و..

حاضر يا ســيادة الرئيس.. سأختصر.. ولكنى يجب أن أحدثكم عن هوايتى للأدب ولكتابة القصة حتى تصلوا إلى الحقيقة.. الحقيقة التـــى دفعتنى إلـــى الوقوف أمامكم فى قفص الاتهـــام.. إن هوايتى هى التى تحدد شــخصيتى.. أو هى - كما يقول الأســتاذ العقاد فى كتب العبقريات - مفتاح شــخصيتى.. وقــد حالت ظروفى دون أن أتـــم تعليمى.. انقطعت عن المدرســة قبل أن أحصل على الشـــهادة الثانوية، وحصلت على وظيفة ساع فى شركة المقاولات.. وقد أتاح لـــى انقطاعى عن المدرســة فرصة أكبر للتفــرغ لهوايتى.. قرأت.. قــرأت كثيرًا.. عشــرات الكتب فى الأدب، فى علــم النفس، وفى التصوف، وفى العلوم، وكتبت.. كتبت كثيرًا.. عشرات القصص..

وعشرات البحوث الأدبية القيمة.. إن ما كتبته يكفى لإنشاء مكتبة قائمة بذاتها.. مكتبة جابر..

وكانت لى دائمًا قارئة وحيدة..

فاطمة..

جارتى فاطمة..

وكنت أختص فاطمة بقراءة قصصى.. لا أكاد أنتهى من قصة حتى أشير لها من الشباك، فتأتى إلى بيتنا، وتجلس بجوار أمى وأقرأ عليها القصة وأنا أرقب عينيها وهما تسرحان وراء أبطالى وبطلاتى.. وأرى صدرها يتهدج كلما قرأت عليها مشهد غرام، وأرى وجهها يتقلص فى مواقف العذاب، والضحكة تكاد تنطلق من شفتيها فى مواقف المرح.. لقد كانت فاطمة معجبة بكل ما أكتبه، متأثرة به.. كانت مؤمنة بى، وبأدبى.. بعبقريتى..

إلى أن أحبت فاطمة..

لم تحبنى أنا..

ولكنها أحبت المجنى عليه، إبراهيم الدسوقى مرعى..

كان إبراهيم موظفًا فى مصنع النسيج الذى يعمل به فاطمة.. وقد أعجبت به فاطمة قبل أن يعجب بها.. وجاءت إلىّ وصارحتنى بإعجابها وعواطفها، وآمالها.. ثم طلبت منى أن أكتب لها خطابًا ترسله إلى إبراهيم.. ولم أتردد.. كتبت لها الخطاب ووقعته باسمها.. فاطمة.. وكان الخطاب يا حضرات القضاة قطعة أدبية

رائعة، بلغ من قوة تأثيره أن رد عليه إبراهيم فى اليوم التالى.. إن إبراهيم أيضًا صاحب أسـلوب.. إنه يستطيع أن يكتب هو الآخر.. ولكنه طبعًا لا يسـتطيع أن يرتقى إلى مستواى.. وقد فرحت فاطمة بخطاب إبراهيم، وطلبت منـى أن أكتب له خطابًا ثانيًا.. وثالثًا.. ورابعًا.. خطابات أكتبها بلسان فاطمة، وبشخصيتها، وبعواطفها، وبعينيها، وأوقفها باسمها..

يا حضرات القضاة..

هل تعلمون حال الأديب عندما يكتب بلسـان فتاة، أو يعبر عن شـخصية فتاة.. إنه يتقمص هذه الشخصية.. إنه يصبح وهو يكتب هذه الفتاة.. ينقلب فى داخله إلى فتاة.. ويفكر كما تفكر.. ويحس كما تحس.. ويضحك كما تضحك.. ويبكى كما تبكى.. وكلما استطاع أن يندمج فى شخصية الفتاة أكثر، تمكن من التعبير عنها أكثر.. إن الكتاب كالممثلين.. يمثلون.. يمثلون الشـخصيات التى يرسمونها بأقلامهم والتى يعبرون عنها.. الممثل يمثل على المسرح.. ومسرح الأديب هو داخله.. إنه يقوم بالتمثيل داخل نفسه.

ومر عامان وأنا مندمج فى شـخصية فاطمـة.. أكتب كل يومين أو ثلاثـة خطابًا لإبراهيـم.. أبثه عواطفى، وآلامـى، وأحلامى.. أقصد عواطف فاطمة وآلامها وأحلامها.. وكانت فاطمة خلال هذين العاميـن قد بدأت تلقـى إبراهيم، وكانت تعود لتـروى لى كل ما حدث بينهما.. كل التفاصيل.. وكانت فى بادئ الأمر تتردد فى أن

تروى لى كل شــىء.. ولكنى أقنعتها بأنى لكى أكتب لها خطابات صادقــة يجب أن أكون فى نفــس حالتها.. فلم تعــد تتحرج.. كل شىء ترويه.. أدق التفاصيل.. وأنا أعيش فى هذه التفاصيل.. أحس بلمســات أصابع إبراهيم.. وأحس بقبلاتـه.. وأسمع كلماتـه.. أحس بــكل ذلك كما تحس به فاطمة.. لقد أصبحت أنا فاطمة يا حضرات القضــاة.. أصبحت فاطمة كاملة.. لم أكن أفيق من شــخصية فاطمة إلا عندمــا أذهب إلى عملى فى الصباح.. ثم لا أكاد أعود إلى البيت حتى أصبح فاطمة.. أعيش فى قصة حبى لإبراهيم.. اقرأ خطاباتـه.. وأكتب لــه خطابات.. وقد أصبحت أكتــب لإبراهيم دون أن تطلب منــى فاطمة أن أكتب له.. بل أصبحت أرســل له الخطابات دون أن تقرأها فاطمة..

إلى أن استسلمت فاطمة لإغراء إبراهيم..

أصبحت امرأة..

وجاءت تروى لى كل التفاصيل..

وأحسســت بــكل ضعف فاطمــة، وكل خلجــات عواطفها التى دفعتها إلى الاستســلام.. وعشــت كما تعيش فى الأمــل الكبير.. الأمــل فى أن يتزوجنى إبراهيم.. أقصــد يتزوج فاطمة.. وأصبحت خطاباتــى له تنبض بهــذا الأمل.. خطابات فيهــا ضعف.. ضعف لحظة الاستســلام.. وفيها رجاء.. وفيها توســل.. وفيها استكانة وذل لجبروت إبراهيم بعد أن بدأ يتمرد..

وخطابات إبراهيم تبرد وتتباعد.
وتزداد برودًا وتباعدًا..
إلى أن تحرك الجنين فى أحشاء فاطمة.. وفى أحشائى أنا أيضًا.. وأحسست بكل آلام فاطمة.. آلام مريعة.. وكل ضياعها.. ضياع فى دوامة هائلة مخيفة..
ولم يعد إبراهيم يكتب إلىّ..
عشرات الخطابات كتبتها إليه، ولم يرد علىّ.. خطابات فيها توسل.. استغاثة.. وفيها تهديد.. توعد..
ولكن التوسل لم يحنن قلبه..
والتهديد لم يخفه..
وبدأ يهرب من لقائى.. أقصد لقاء فاطمة..
إلى أن جاءت إلىّ فاطمة يومًا وهى كالمجنونة.. لقد خطب إبراهيم فتاة أخرى..
وانهارت فاطمة..
وانهرت معها.
لم تعد المشكلة بالنسبة لى مشكلة شخص آخر..
لم تعد فاطمة فى هذه اللحظة شخصية أخرى..
أنا فاطمة..
وأنا الذى خدعت.. وأنا الذى يتحرك الجنين فى أحشائى.. وأنا الذى هجرنى إبراهيم للضياع، والعذاب، والتشرد.. وجلست أكتب

لــه خطابى الأخير.. لم يكن عبد الله هو الذى يكتب، ولكنها كانت فاطمة بكل آلامها وتمزقها لنفســى.. وكان خطابًا رائعًا.. قطعة من الأدب العاطفى تستحق أن أنال عليها جائزة الدولة..

ولم يرد إبراهيم..

والغيظ يفرينى.. والحقد يمزقنى.. والرغبة فى الثأر تستبد..و.. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل فاطمة عن أحاسيسها حتى أحس بما تحــس، لقد أصبحت أنا فاطمة.. ودون أن أناقش فاطمة الحقيقية، بدأت أعــد للجريمة.. إن فاطمــة الحقيقية يا حضــرات القضاة لا تعلم شــيئًا عن هذه الجريمة، ولم تشترك فى تدبيرها.. ولكن التى دبرتها هى فاطمة الأخرى.. فاطمة التى تعيش فى داخلى..

وقد اشــتريت زجاجة ماء النــار الكاوية.. وأرجو أن تضعوا فى حسابكم أن التفكير فى تشويه وجه المجنى عليه لا يمكن أن يكون تفكيــر رجل.. ليس من طبيعة الرجل عندمــا يفكر فى الانتقام أن يقرر تشويه وجه غريمه، ولكنه تفكير امرأة.. فلم يكن عبد الله هو الذى يفكر، ولكنها كانت فاطمة..

وحملــت الزجاجة فى جيبى، وذهبت إلــى إبراهيم فى بيته.. وحادثتــه فى موضــوع فاطمة، وحاول أولا أن ينكــر علاقته بها.. ولكنــه فوجــئ بالتفاصيل الكثيــرة التى ذكرتها لــه.. كأنى كنت معهمــا فــى كل لقاء، وفى كل لحظة، وفــى كل خطاب.. لقد كنت معهمــا فعلا.. بل كنت أنا فاطمة.. وحاولت كثيرًا أن أقنع إبراهيم

بــأن يصون وعده لى.. أن يتزوجنى.. حــرام عليك يا إبراهيم.. ما تســيبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا يا إبراهيم.. ارحم ابنك اللى فى بطنى يا إبراهيم.. وكنت أتنبه أحيانًا بأنى أحدث إبراهيم بلسان فاطمة.. كأنى امرأة.. فأحاول أن أتخلص من شخصية فاطمة، وأحدثــه كعبد الله.. رجل لرجل.. ولكنى لا ألبث أن أعود وأتحدث كفاطمــة.. حرام عليك يا إبراهيم.. ما تســيبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا يا إبراهيم..

وربمــا ظننى إبراهيم مجنونًا، فبدأ يدفعنى خارج الغرفة.. بدأ يدفعنى فى عنف.. ولم أحتمل عنفه.. فرفعت الشمعدان النحاسى، الذى كان قريبًا من يدى وضربته به على رأسه.. وسقط تحت قدمى.. فانهلت عليه ضربًا، إلى أن ســكت عــن الحركة.. ثم أخرجت ماء النار وسكبته على وجهه، ووقفت أرقبه..

أتدرون ماذا كان إحساسى فى هذه اللحظة يا حضرات القضاة..

أحسست بالدهشة..

نعم دهشت.. فقد أفقت فى هذه اللحظة من الشخصية الأخرى، وعدت إلى شخصيتى الحقيقية.. أصبحت عبد الله.. وعبد الله لا يريد أن يقتل إبراهيم، ولم يفكر فى تدبير الجريمة.. ولكنها فاطمة..

فاطمة هى التى دبرت، وهى التى قتلت..

يا حضرات القضاة..

إن وكيـل النيابة يقول إنى قتلت إبراهيـم بدافع الغيرة، لأنى كنت أحب فاطمة..

لا.. لـم أكن أحـب فاطمة.. كيف أحبها وأنـا الذى كنت أكتب خطاباتها لإبراهيم.. لا.. لم أحب فاطمة..

كنت أنا فاطمة..

فاطمـة التى تعيش فى داخلى هى التى قتلت إبراهيم.. وفاطمة لديها أسباب مخففة.. القانون لا يمكن أن يحكم بإعدام فاطمة، ولا العدالة..

وعدالتكـم تأبى أيضًا أن تحكموا بإعدام عبد الله، لأن عبد الله لم يرتكب الجريمة.. عبد الله لم يقتل، وليس لديه دافع لقتل إبراهيم مرعى الدسوقى.. والدافع شرط أساسى لتوفر أركان الجريمة..

وأنا واثق من عدالتكم..

وعذرًا إن كنت قد أطلت عليكم.

* * *

كل هذا الجمال

أنا هذه السيدة التى يعرف كل الناس أنها ليست جميلة..

وأقول: «ليســت جميلة» لأنى لا أســتطيع أن أقول «قبيحة» أو «دميمة» أو أى وصف آخر من هذه الأوصاف المباشرة القاسية التى يمكن أن يصفنى بها الناس..

الناس تتساءل دائمًا: كيف استطعت أن أحتفظ بزوجى كل هذه السنين برغم أنى لست جميلة؟

وزوجى رجل وســيم، أنيق، ناجح، رائع، إنه حلم.. تحلم به أجمل الجميلات.. فكيف اســتطعت أن أحتفظ بــه.. أنا.. أنا التى ليست جميلة..

بعض الناس يعتقد أنى احتفظت به بذكائى.. وعندما يصفوننى بالذكاء، لا يقصدون الذكاء الطيب الحلو، بل يقصدون الذكاء الشرير الخبيث.. الذكاء الذى اســتطاع أن يسجن هذا الرجل الرائع داخل ســجن له عظام بارزة مدببة كالشــوك وله جلد أزرق مكرمش، وله وجه تعيس ليس فيه خط واحد من خطوط الجمال..

وبعض الناس يعتقد أنى أحتفظ بزوجى عن طريق إثارة إحساسه بالمسئولية نحو أولادنا الخمســة.. كأنى كنت أقصد أن أحمل وأن ألد لا لشىء إلا لأزيد عدد الحبال التى تربطه بى، وتقييده إلى..

وبعض الناس يعتقد أن زوجى رجل طيب، وأنه احتفظ بى بداعى الشفقة.. الغلبانة.. المسكينة.. الوحشة.. إنه لا يستطيع أن يلقيها فى الشارع.. لن تجد رجلا آخر يأويها.. فاحتفظ بها.. شفقة عليها، وتقربًا لله..

و.. كلام كثير يقوله الناس، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يتصور قسوة العذاب الذى احتمتله حتى أحتفظ بزوجى.. عذاب كل يوم.. عذاب كل ساعة.. عذاب كل دقيقة.. فأنا أعلم – قبل أن يعلم الناس – أنى لست جميلة.. وأرى نفسى أكثر مما يرانى الناس.. وأكره نفسى.. أكره هذا الجسد النحيل الذى يلتصق جلده فوق عظامه.. وأكره لونى الغامق الذى يميل أحيانًا إلى اللون الأزرق وأحيانًا إلى اللون الأخضر.. وأكره أنفى.. وأكره شفتى.. حتى رموش عينى أكرهها.. وأنا أعلم أن المرأة لا يمكن أن تكون مجرد رفيقة حياة.. ولا مجرد صديق.. ولكنها يجب أن تكون شيئًا جميلا فى حياة الرجل.. يتزين بها.. ويتباهى بها أمام أصدقائه.. وأنا لست جميلة.. لا يستطيع زوجى أن يتزين بى، ولا أن يتباهى بى.. ولذلك حاولت ألا أتزوجه.. حاولت.. حاولت كثيرًا.. حاولت لأنى كنت أحبه، ولم أكن أريد له زوجة ليست جميلة مثلى.. إنه ابن خالتى.. وعلى عادة العلائلات القديمة تقرر زواجنا منذ ولدنا.. وربما ولدت وأنا أعد نفسى له.. ومنذ بدأت أرى نفسى فى المرآة وأنا أعرف أنى لست جميلة.. ولكنى كنت دائمًا أتعلق بأمل

كبير أن شيئًا ما سيحدث لى أصبح بعده جميلة.. وكل صباح أطل فى المرآة لعل هذا الشيء يحدث.. ولكنه لم يحدث أبدًا..

وأطل فى عينى حسن فأحتار فيهما.. هلى يرانى كابنة خالته، أو يرانى كحبيبته وخطيبته وزوجة مستقبله.. إنه مرح دائمًا.. رقيق.. حتى هذه الأوامر الصغيرة التى يلقيها علىّ بين الحين والحين.. ما تخرجيش.. ما تلبسيش الفستان ده.. و.. و.. قد تكون أوامر رجل يحب ويغار على حبيبته، وقد تكون أيضا أوامر أخ، أو ابن خاله..

وحيرتى تكبر مع عمرى.. إنى لا أستطيع أبدًا أن أعرف إذا كنت حبيبته أم ابنة خالته.. ولم يكن بيننا هذه المواقف العاطفية التى قد تساعدنى على الخروج من حيرتى.. لا كلمات حب.. ولا قبلات.. ولا خلوات.. إنه دائمًا فى بيتنا، وأنا دائمًا بين أفراد عائلتنا.. ودائمًا قد أكون بالنسبة له ابنة خالته، وقد أكون حبيبته.

وحبى يكبر مع حيرتى.. إنى أحبه.. إنه بالنسبة لى ليس ابن خالتى، إنه حبيبى.. إنه خفقات قلبى.. إنه دنياى.. لست حائرة فى حبى له، ولكنى حائرة فى حبه لى..

والتردد والشك يمزقنى.. هل يمكن أن يحبنى.. هل يمكن أن يحب هذه الفتاة الدميمة.. هل يمكن أن يتزوجها.. وإذا تزوجها، فهل تزوجها لأنه يريدها أو لأنه مسئول عنها.. ولأنه يشفق عليها.. ولأنه تورط فى زواجها..

وبدأ الشك يغلبنى..

وبدأت أفكر فى الهروب من هذا الزواج، لا لأنى لا أريده، ولكن لأنى لا أريد له أن يتزوج فتاة مثلى.. ليست جميلة..

إلى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرى، وبدأت العائلة تتفاوض لتحديد يوم الزواج.. وفجأة وجدت نفسى أصرخ:

- مش عايزه أتجوز.

وبهت كل من فى العائلة.. كان زواجنا حقيقة بدهية بين أفراد العائلة، منذ ولدنا، إلى حد أن تركت صرختى أثرًا كانفجار القنبلة الذرية..

وحاولوا معى كل الوسائل..

وحاولوا إقناعى بالرفق.. وحاولوا إجبارى بالتهديد.. ولكنى استعنت بكل عنادى، وأصررت على موقفى، وكانت حجتى أنى أريد أن أتم تعليمى الجامعى، ثم أبحث عن عمل..

إلى أن دخل حسن إلى غرفتى ذات يوم، وأنا ما زلت بقميص النوم.. ووقف أمامى وفى عينيه نظرة حازمة غاضبة، وصرخ فى وجهى:

- اسمعى.. أنا مش عايز دلع.. حانتجوز يعنى حانتجوز.. وحانتجوز الخميس الجاى.. مش عايز اسمع كلام بعد كده..

وهم أن يتركنى ويخرج من الغرفة، ولحقت به، ورفعت إليه عينين خائفتين متوسلتين، وقلت:

- حسن.. إنت صحيح عايز تتجوزنى؟

ونظر إلىّ كأنى مجنونة وقال:

- أمال يعنى عايز إيه؟

وعدت أقول وعينى فيهما هذا الخوف والتوسل:

- إنت متأكد يا حسن.. متأكد انك عايز تتجوزنى..

ونظر إلى حسن نظرة ملؤها الحنان.. ثم جذبنى إليه وضمنى إلى صدره فى رفق، وقال وهو يربت على كتفى:

- متأكد يا سعاد.. ما تبقيش عبيطة..

وكانت هذه أول لحظة حنان يمنحها لى حسن.

وعندما تركنى يومها قررت أن أتزوجه..

وقررت أيضًا أن أحتفظ به كزوج.. مهما كلفنى الاحتفاظ به..

كيف؟

كيف أحتفظ به والدنيا تزدحم بالجميلات، وأنا لست جميلة..

وخيل إلىّ أن الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ به هى أن أجمع كل حياته فى يدى.. كل حياته.. أدق التفاصيل، وأكبر التفاصيل.. واستطعت بذكائى أن أحقق كل ذلك.. أصبحت حياة حسن بين يدى، أنا التى أديرها، وأنا التى أشرف عليها.. أنا التى أشترى له ثيابه وأعدها له.. وأنا التى تختار له أصدقاءه وتجمعهم به أو تفضهم من حوله.. أنا ذاكرته فى عمله.. وأنا البنك الذى يحتفظ فيه برصيده.. وأنا.. لقد أصبح حسن طفلا لا يستطيع أن

يتحرك بعيدًا عن أمه.. وأنا أمه.. التى تصنع له دنياه.. وقد صنعت له دنيا ضيقة ليس فيها ولا امرأة جميلة..

ولكن الجميلات لسن فى المجتمع فقط... إنهن فى المجلات، وفى السينما، وفى التليفزيون.. وأطل فى مرآتى فأرى وجهى ليس جميلا. وأرى جسدى وقد التصق جلده فوق عظامه.. وألتفت فأجد «حسن» يبحلق فى صورة امرأة جميلة منشورة فى مجلة، أو يبحلق فى وجه امرأة تطل من شاشة التليفزيون، فتنتابى موجة قاسية من الخوف.. أخاف.. أخاف على حسن.. إن كل دقيقة من عمرى دقيقة خوف.

وأنجبنا بنتنا فايزة..

ثم ابننا زيادًا..

وعندما حملت فى خالد قررت أن أتخلص من الحمل.. لقد بدأت أحس بأنى قد لا أكون صادقة مع نفسى وأنا ألد هؤلاء الأولاد.. خطر لى مثلما خطر للناس الذين يتحدثون عنى، من أنى ألد لا حبًا فى الأطفال، ولكن لأقيد بهم حسن إلى.. وحاولت فعلا أن أتخلص من حمل خالد.. وثار حسن.. إنه يريده.. ويريد أن يملأ البيت بكثير من أولاده وبناته.

ولكن هذه الفكرة التى سيطرت على جعلتنى شبه مجنونة.. فعدت أحاول أن أتخلص من حملى دون علم حسن.. ولكنى لم أفلح.. وجاء خالد..

والخوف يستبد بى..

ليس الخوف وحده، إنما بدأ الإحساس بأنى أحرم «حسن» من حقه فى الجمال.. حقه فى أن تكون له امرأة جميلة، يتمتع بها، ويتزين بها، ويتباهى بها..

والخوف يكبر..

والإحساس بأنى جنيت على حسن يكبر..

إنى امرأة معقدة..

عقدتى تمزقنى..

ويمزقنى أكثر محاولة أن أخفى عقدتى عن حسن، أن أبدو أمامه دائمًا كامرأة طبيعية..

ثم لم أعد أحتمل كل هذا العذاب.

يئست من محاولتى الاستمرار فى كل هذه المعاناة..

وفى يوم قررت أن أغير كل هذه الحياة..

قررت أن أفرج عن حسن.. أن أطلق سراحه من هذه الدنيا الضيقة.. من هذا السجن الدميم..

وبسرعة فتحت كل الأبواب على الدنيا الواسعة.. بدأت أتعرف على المجتمعات التى تضم أجمل نساء مصر.. كل ليلة فى حفلة..

وعيناى لا تطرفان عن حسن.

إنه يبدو مبهورًا بالدنيا الجديدة التى فتحتها له.. يبدو كالطفل وهو يتفرج على الصواريخ الملونة.. وقد نجحت شخصيته بين

النساء.. وسامته، أناقته، نجاحه، رقته.. ويلتففن حوله، يأكلنه بأعينهن، ثم يلتفتن إلى ويتهامســن.. وأنا أرقب حسن.. أرقب كل نظرة فى عينيه، وكل التواءة بين شفتيه، وكل كلمة يقولها، مهما بعدت عنه لا يفوتنى منه شــىء.. وأكاد أســمع همسات الجميلات عندما ينظرن إلى.. أسمعها بخيالى.. إنهن يتهامسن بأنى وحشة، قبيحة، ويتســاءلن كيف اســتطعت أن أتزوج هذا الرجل الرائع، وكيف استطعت أن أحتفظ به.

ونعود إلى البيت كل ليلة.. وحسن سعيد.. فى منتهى السعادة.. وأنا أكتم عنه عذابى ويأسى.

إلى أن تعرفنا بناهد.

إن ناهد مطلقة شــابة، شــقراء، جميلة، رائعــة الجمال.. أنا نفسى بهرنى جمالها عندما التقيت بها لأول مرة.

وبهرت «حسن»..

ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن «ناهد» قد أخذت من اهتمام حسن أكثر مما أخذت منه أى امرأة أخرى.. ولاحظت أنهما بسرعة.. فى ساعة واحدة.. أصبحا أصدقاء، إنهما يتحادثان فى بساطة وجرأة، ويتضاحكان كأنهما عاشا العمر كله معًا.

وفى هذه الليلة.. الليلة الأولى التى التقينا فيها بناهد.. قررت أن أترك لها «حسن» ليتزوجها.

لــم أتركه لها مــرة واحدة.. ولكنى تعمــدت أولا أن أصادقها..

أصبحت أقرب الصديقات إلى.. نتحادث كل صباح فى التليفون، ونخرج معًا لنطوف بالمحال.. ودائمًا معًا على العشاء أو الغداء.. فى بيتى، أو فى بيتها، أو مدعوين عند بعض الأصدقاء.. وحسن دائمًا معنا، ثم بدأت خطوة أخرى.. بدأت أدعوها إلى الشاى أو العشاء، وقبل أن تصل أخرج من البيت وأنا أقول لحسن:

- ناهد جاية دلوقتى.. اقعد معاها لغاية ما أرجع... مش حاأغيب.

ويأخذ حسن الأمر ببساطة..

وكنت بذلك أتعمد أن أدفعه إليها أكثر.. كنت أريده أن يصل إلى القرار الذى اتخذته أنا، أى أن يتزوجها.. وكنت أتركهما وحدهما فى البيت، وأخرج أجوب على قدمى ساعة أو ساعتين، وأنا أحس بأنى شهيدة.. شهيدة تضحى بنفسها من أجل إسعاد الرجل الذى تحبه.. إن هذا الإحساس.. الإحساس بأنى شهيدة.. يريحنى من عقدتى بأنى دميمة.. يرطب أعصابى.. يملؤنى اعتزازًا بنفسى وبقوتى.. ثم كنت أعود إلى البيت لأجدهما.. «حسن» و«ناهد» جالسين أمام التليفزيون.. أو يسمعان شرائط أم كلثوم.. وأبدو أمامهما مرحة وفى داخلى هذا الإحساس الطاغى الحلو بأنى شهيدة.

إلى أن كان يوم..

وخرجت من البيت وتركت «حسن» وحده.. وعدت بعد ساعتين أسأله:

- محدّش ضرب تليفون؟

وقال حسن في بساطة:

- ناهد اتكلمت، وقعدت ترغى معايا ساعتين.

وجلست قبالته وأنا أبتسم له ابتسامة حزينة.. ابتسامة الشهيد.. وقلت في صوت هادئ أسيطر عليه بكل إرادتى:

- حسن.. إنت لازم تاخد قرار في الموضوع ده..

ونظر إلى في دهشة، وقال:

- موضوع إيه؟

قلت وأنا مسيطرة على كل عصب من أعصابى:

- موضوعنا أنا وانت وناهد.. اسمع.. أنا مستعدة لكل حاجة، إذا حبيت تخلينى أربى العيال وتاخد أنت وناهد بيت تانى.. ما عنديش مانع.. إذا حبيت تطلق أنا..

وصرخ حسن في وجهى:

- إيه الكلام اللى بتقوليه ده.. إنتى اتجننتى يا ست انتى..

قلت في هدوء دون أن أهتز:

- أنا عارفة إن ناهد حلوه..

وصرخ حسن:

- وانا مالى إذا كانت حلوه.. هى بتاعتى..

قلت:

– حتبقى بتاعتك.. اتجوزها.
وصرخ حسن بأعلى صوته:
– إنتى بتخرفى بتقولى إيه.. إيه اللى حصل فى مخك..
قلت وأنا ما زلت هادئة:
– إنت لازم تتجوز واحده حلوه.. حرام..
وعاد حسن يصرخ كأنه جن:
– واتجوز واحده حلوه ليه.. ما فيه ألف واحده حلوه، ما اتجوزهم كلهم.. إشمعنى ناهد.. ما خديجه حلوه.. وفيفى حلوه.. وخيريه حلوه.. و.
وقلت وقد بدأ هدوئى يهتز:
– حرام انك تقعد طول عمرك متجوز واحده وحشه زيى..
وسكت حسن فجأة.. ونظر إلى طويلا.. ثم قال فى صوت هادئ عميق:
– أنا معرفش إنك وحشه يا سعاد.. أنا اعرف إنى بحبك وبكيت..

* * *

صدقونى أنى لا أبذل مجهودًا للاحتفاظ بزوجى.. أعنى أنى لا أتعمد أن أبذل مجهودًا خاصًا أكثر مما تبذله أى زوجة فاضلة.
وإنى أومن الآن بأن ليس هناك زوجة جميلة، وزوجة ليست جميلة.. ولا زوجة ذكية.. وزوجة غبية.. ولكن هناك زوجة

يحبهـا زوجها، وزوجة لا يحبها زوجهـا.. وعندما يوجد الحب يوجد معه الجمـال والذكاء.. يوجد ما يكفى للاحتفاظ بالزوج مدى الحياة..

وزوجى يحبنى..

وحولنا كثيرات من النسـاء الجميـلات.. وأنا بينهن قوية.. لم أعد معقدة.. إنـى قوية.. أقوى منهن جميعًا.. واثقة من نفسـى.. لأنى واثقة من حب حسن.

* * *

اكتشاف الألومنيوم

عـاد جمعـة عبد الصمـد إلى القريـة وهو يرفل فـى جلباب حريـرى، وفى قدميه حـذاء أصفر لامـع، وعلى رأسـه طاقية شـبيكة تميل فوق حاجبه.. ويوسـع فى خطاه فيخشخش طرف جلبابه بين سـاقيه، وكأنه يهمس «اسـكت ما اسـكتش».. وفى ذراعه سـبت كبير من الخوص محمـل بالهدايا.. معظمها هدايا لخطيبته بهية، ولأمه، وحماته فى المسـتقبل، وهدايا صغيرة لأبيه وإخوتـه وأولاد عمومته.. وفى عينيه نظرة فرحة لا تخلو من التعالى السـاذج والغرور الطيـب.. ويتلفت حواليه فيرى كل شـىء كما تركه منذ عشر سـنوات.. أو أن خياله أبى أن يعترف أن شـيئًا يمكـن أن يتغير فى القرية وهو بعيـد عنها.. فلم يلمح مبنى الوحدة المجمعة الذى أقيم خارج القرية.. ولم يلمح طلمبة الميـاه.. لم يلمح أى جديد.. عيناه ممتلئتـان بصورة القرية كما تركها منذ عشـر سنوات.. الساقية العتيقة فى مكانها، ولا تزال تـدور، وخيـل إليه أن الثور الـذى يدور بها هو نفـس الثور.. وزرعة القطن هـى التى تركها فى الغيط.. وقبة الشـيخ العتر.. والطرق المعفرة التى تكسـوها طبقة من التراب الأبيض الناعم.. والمصرف.. وشجرة الجميز..

ومنذ عشر سنوات ترك جمعة القرية، وانتقل ليعيش مع عمه فى البندر.. وكان عمه طباخًا فى سراى المحافظ.. وقد تغير المحافظون ولكن عمه لم يتغير.. ظل طباخًا فى السراى، منذ كان المحافظ «باشا» قبل الثورة، إلى أن شـهد محافظين، يأكلـون الملوخية بأصابعهم كالفلاحين.. واشـتغل جمعة مع عمه.. فى المطبخ.. وعاش يسـمع ترحم عمه على أيام زمان، عندما كان يطبخ كل يوم خروفًا وعشـرة أصناف من الطعام.. ولـم يتأثر جمعة بأيام زمان ولا انصرف إليها خيالـه، فقد كان كل همه أن يتعلم من عمه فنون الطهو.. وصاح فيه عمه وهو يرقب تلهفه على تلقى أسرار المهنة:

– يـا ابنى هو فيه حـد بيطبخ الأيـام دى.. دول كلهم صنفين تعملهم أمك وهى مغضمة..

وبرغـم ذلك تعلم جمعة طهو أصناف من الطعام لا تعرفها أمه، ولا تذوقهـا فى بيته.. تعلم كيفية عمل اللحمة الرسـتو، والحمام الكولباسـت والسـمك الميونيز.. و.. و.. وعندما مرض عمه تولى مكانه.. ولم يشـكُ البيه المحافظ.. بل أشـاد بمهارة جمعة.. ثم.. مات العم.. وأصبح جمعة هو طباخ السراى..

وفكر جمعة فى الـزواج.. وكان تفكيره محصورًا فى الزواج من إحـدى بنات البندر، فهو قد تغيـر، لم يعد من أبناء القرية.. إنه أحد أبناء البندر.. يلبس الجلاليب الصوف والحرير، وأحيانًا يلبس القميص والبنطلون، ويجلس فى قهـوة المحطة، مع أصدقاء كلهم

أفندية. ويقرأ الأهرام كل مســاء.. يقرؤه بصعوبة.. ولكنه يقرؤه.. لقــد تغير كثيرًا، ولم تعــد تصلح له إلا إحدى بنات البندر. وبرغم ذلــك تردد.. تردد طويلا.. لا يدرى لمــاذا.. إن تفكيره فى الزواج ينقصــه الاندفاع.. كان يفكر فى الزواج وهو جالس فى المقهى.. أو وهو جالس فى غرفته يتحدث مع جيرانه.. ولكنه لا يكاد يتحرك من مجلسه حتى ينسى موضوع الزواج..

إلــى أن جــاء إلى البنــدر مدبولى عبد الرحمــن ليجرى عملية جراحية فى المستشــفى الأميرى.. وعم مدبولى يملك ثلاثة أفدنة فى القرية.. وكان بينه وبين والد جمعة – حميدة عبد الصمد – الذى يملك فدانين فى نفس الحوض، حزازات قديمة، ومشاحنات كانت تتســع حتى تخرج العائلتان لتواجــه إحداهما الأخرى فى معارك عنيفــة، ولكنها كانت كلها معارك بيضاء قد يســقط فيها جرحى، ولكن لم يحدث أن ســقط فيها قتيل.. وقد هدأت هذه الحزازات مع الزمن، وبعد أن اســتقر العرف الذى يحكم مياه الرى بين أرض عم مدبولــى، وأرض عم عبد الصمد.. وأصبحــت العائلتان على علاقة طيبة وإن ظلت كل منهما محتفظة بشخصيتها وبكيان زعامتها..

وقد أرســل عم عبد الصمــد إلى ولده جمعة يخبــره بوصول عم مدبولى إلى البندر لإجراء عملية فى المستشفى.. وأوصاه بأن يزوره ويرعى شــئونه.. وكان عم عبد الصمد يبدو فى خطابه سعيدًا معتزًّا بابنه الــذى يقيم فى البنــدر والذى طلب منــه مدبولى أن يوصيه

عليــه.. وفرح جمعة أيضًا وازداد اعتزازًا بنفســه وهو يشــعر أنه ســفير القرية في البندر والمسئول عن شئون رعاياها.. وذهب لتوه لزيــارة عم مدبولي.. وهناك التقى بابنته بهية.. ولم يصدق أن هذه هي بهية.. والله البت كبــرت.. ونظر في عينيها، تطلان عليه من فوق الشال الذي تلفه حول طرف أنفها في حياء وخفر، وأحس أنه وجد بيته في هاتين العينين.. قرر منذ اللحظة الأولى أن يتزوجها.

وفــاض جمعة بكرمــه على عم مدبولي وبهية، واســتعمل نفوذ المحافظ، ونقل عم مدبولي إلى ســرير في الدرجة الثانية، وخصص بجانبه سرير آخر لابنته التي تقوم على خدمته.. وهو دائمًا معهما.. عم مدبولي راقد في ســريره، وهو مع بهية يحدثها عن حياته في البندر، ويبهرها بحكاياته، ولم يكن يحدثها عن فنون الطهو.. إن الطهو هو عمله، وليس من شيمة الرجل أن يحدث المرآة في شئون عمله.. وبهية تنظر إليه وفي عينيها أمل كبير.. أمل لم يكن تعتقد أنه قد يتحقق.. إن جمعة يبدو أمامها إنســانًا كبيرًا من عالم بعيد، لا يمكن أن تصل إليه، ولا أن يصل إليها.. وبرغم ذلك فالأمل لا يريد أن يخبو، وعيناها تــزدادان قربًا من عينيه.. وكما رأى في عينيها صورة بيته، رأت في عينيه بيتها..

ومــا كاد عم مدبولي يعود إلى القرية بعد شــفائه ومعه ابنته، حتى أرســل جمعة خطابًا مستعجلا إلى أبيه يطلب منه أن يخطب له بهية، وأن يتفق نيابة عنه على كل التفاصيل..

* * *

وعـاد جمعة إلى القرية بعد عشـر سـنوات ليعقـد قرانه على بهية..

ورحبت به القرية.. وذبح أبوه خروفين أمام ضريح الشيخ العتر احتفالا بعودة ابنه..

وجلس جمعة مع بهية يحدثها وقال فى سخط:

- ومنكتبـش الخميس الجاى ليـه.. ايه لَزْمـة اللكاعة دى..

وقالت بهية وهى تنظر إليه بعينين متوسلتين حتى لا يغضب.

- أصل لسه النحاس..

ونظر إليها جمعة بعينيه الساخطتين وقال:

- نحاس إيه..

قالت:

- النحاس.. الحلل، والطشـت.. أبويـا بيقول إن الحلّة اللى أد الكوز بقت بأربعة (جنيه)..

وقال جمعة:

- ومين قال له إن احنا عايزين نحاس..

ونظرت إليه بهية فى دهشة وقالت:

- نتجوز من غير نحاس يا جمعة..

وصرخ جمعة:

- نحاس إيه يا بت.. النحاس ده بِطِلْ من زمان..

وقالت بهية ودهشتها تشتد:

– أمال الناس بتطبخ وتغسل فى إيه بأه..

وقال جمعة وهو يبتسم فى وجهها ابتسامة ساخرة.

– فى الألومنيوم..

قالت بهية..

– فى إيه؟

وقال جمعة وهو ويضغط على مخارج ألفاظه.

– الألومنيوم..

وقالت بهية وهى تمصمص شفتيها تعجبًا

– وإيه بأه الألومنيوم ده..

قال جمعة:

– ده أحسن من النحاس.. أخف، وأرخص، وعمره ما يجنزر.. مش عايز تبييض ووجع قلب زى النحاس..

ونظرت إليه بهية كأنها تنظر إلى مجنون، وعادت تقول:

– نتجوز من غير نحاس يا جمعه.. نحاس أحمر.. البلد تقول علينا إيه؟..

وصرخ جمعة:

– يا بت اتنورى بأه.. ما حدس دلوقتى بيجيب نحاس.. دى سراية البيه المحافظ كلها مفيهاش حتة نحاس واحده.. كله ألومنيوم.

وقالت بهية كأنها لم تسمعه:

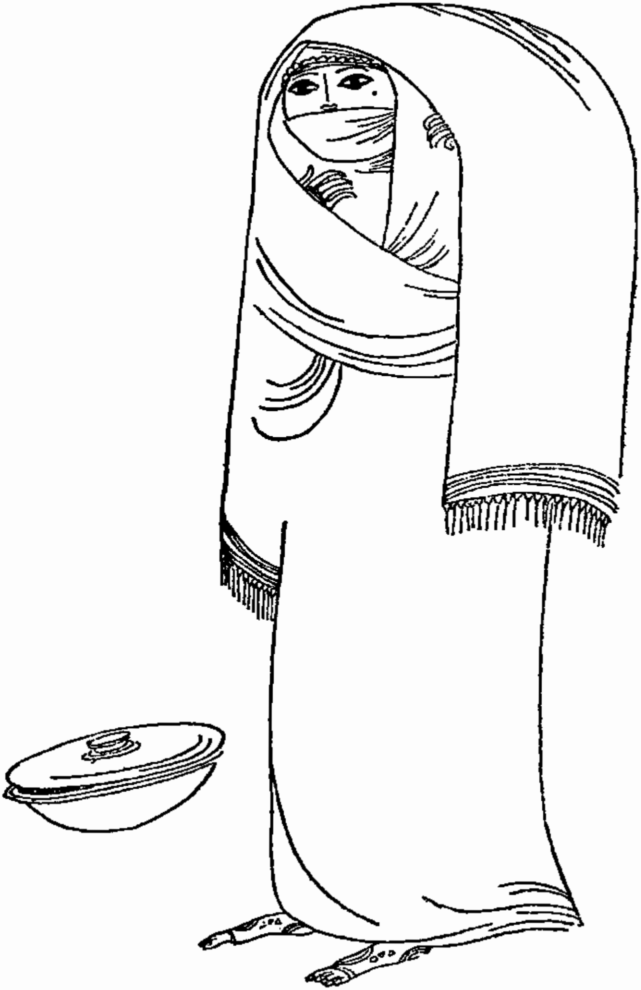

– نحاس احمر أفرح بيه..

وعاد جمعة يصرخ:

– ومتفرحيــش بألومنيوم أبيض ليه.. اسـمعى يا بهيه.. كلمه واحــده.. أنا مش عايز نحاس فى بيتــى.. ولو أبوكى جاب نحاس حابيعه واشترى ألومنيوم..

ورددت بهية والدموع تنبثق من عينيها:

– أتجوز من غير نحاس يا جمعه.. أنا اتجوز من غير نحاس.. ويخلصك برضه يا جمعه..

ثم فزعت من جانبه وجرت إلى أمها تسبقها دموعها..

* * *

فى صباح اليوم التالى دخلت أم بهية على أم جمعة، وجلسـت بجانبها وقالت:

– إيه يا ست أم جمعه الحكايه.. يعنى إيه سى جمعه مش عايز نحاس.. إحنا كنا اشـتكينا ولا قصرنا.. النحاس حييجى لو دفعنا بدل الجنيه ألف..

وقالت أم جمعة..

– يــا اختى ما حدش قــال كده.. بس أصل ابنــى جمعه متنور وعايش طول عمره فى البندر.. وبرضه يفهم أحسن منا يا فلاحين..

وقالت أم بهية:

- ودى عايزه فهم.. هو فيه جوازه من غير نحاس..

وقالت أم جمعة:

- أصل سى جمعه بيقول النحاس بطل.. والناس بتطبخ وبتغسل فى حاجه مش عارفه اسمها إيه كده.

وقالت أم بهية:

- بأه فى ذمتك يوم متجــوزى بنتك فردوس، ترضى تجوزيها من غير نحاس..

وقالت أم جمعة:

- والنبــى لو بنتــى لقت راجل زى ابنى جمعه لامشــى كلامه عليها وعلينا وعلى البلد كلها.. الرك ياختى عالراجل..

وقالت أم بهية:

- والراجل يبهدلنا فى وســط البلــد.. وده كلام تقوليه برضه.. والله بنتى ما تتجوز من غيــر نحاس أبدًا.. نحاس أحمر وملعلع.. واللى مش عايز نحاس ميتجوزش بنتى..

وقالت أم جمعة وهى تصرخ:

- لا يا ام بهية.. مــا تغلطيش.. اللى مش عايزنا مش عايزينه ده ابنــى كانت بتجرى وراه كل بنات البندر.. غيرش انه ابن أصل وحب يأخد من بلده.

وقالت أم بهية وهى تصرخ هى الأخرى:

– والله يا اختى ضفر بنتى بكل بنات البندر.. هو حد كان شـده من قفـاه وقاله تعالى اتجـوز من عندنا.. وعلى إيـه.. ما بلاش.. بلاش خالص.. بلاش نحاس وبلاش جواز..

وقامت من جانبها تدب الأرض بقدمها الثقيلة..

* * *

وفى المساء اجتمع عم مدبولى، وعم عبد الصمد، والشيخ يحيى إمام الجامع، وإخوة جمعـة، وأولاد مدبولى، ودار الحديث حول النحـاس والألومنيوم.. وقـال جمعة وهو يحاول أن يسـيطر على أعصابه ويبدو هادئًا:

– اسمع يا عم مدبولى.. دى شغلتى.. أنا طباخ وأعرف اللى ينفع واللى ما ينفعـش.. والنحاس الأحمر مبقاش ينفع.. الناس الأكابر بتسـتعمل دلوقتى الألومنيوم.. حلل ألومنيوم.. وطشت ألومنيوم.. وأطباق ألومنيوم.. ليه.. إشـمعنى الألومنيوم ومش النحاس.. لأن الألومنيـوم مَبيجنزرش.. مفيش خوف أنه يسـم حد زى النحاس المجنزر ما يسم الناس.. ومش محتاج نجيب مبيض نحاس يبيضه كل يوم والتانى.. ووزنه أخف.. يعنى بدل البت من دول ما تشيل حله واللا طشت نحاس يقسم وسطها، تشيل حلة ألومنيوم خفيفه.. زى الريشه.. ثم إن الألومنيوم أرخص.. و..

وقاطعه عم مدبولى قائلا وهو يستغفر الله:

– شـوف يا ابنى.. الصراحه أحسـن.. إنت دفعت مهر سـتين

جنيــه، وأنا لغاية دلوقتى دفعت فوقهم أربعين.. جبنا الســرير، والمراتــب، والحصر، والـدولاب، وفاضل النحــاس.. والنحاس متأخرش علشــان الفلوس.. والله شــهيد على ما أقول.. أنا مستعد أدفــع فوق الأربعين أربعين كمان.. وإذا كنت فاكر إنك بتوفر لى.. لا والله.. أنا بنتى لازم تتجوز كاملة من كله.. والنحاس جاى يعنى جاى..

وصاح جمعة..

– يا عم مدبولى مش مســألة فلوس.. أنا عايز اعيش زى الناس المتمدنة.. حد شــريكى يا عالم.. أنا عايــز ألومنيوم.. مبقاش حر فى بيتى يعنى.. وبكره حتعرفوا إن الألومنيوم أحسن من النحاس.

وقال عم عبد الصمد وهو غير مقتنع تمامًا بكلام ابنه:

– مَتْسيبه يا مدبولى.. خده على عقله.. مَدَام مش عايز نحاس.. خلاص.. يوفر..

وقال الشيخ يحيى:

– الواقــع أننــا نحكم على مجهول، فليس منــا من يعرف هذا الميموم.

وقال جمعة:

– إسمه الألومنيوم..

وقال الشيخ يحيى:

– لا نعرفه..

وقال مدبولى:

- نعرفــه والــلا منعرفوش.. مش ممكن بنتــى تتجوز من غير نحاس.. عايزين تفضحونى فى وســط البلــد.. وبلاد المركز كله.. عيب يا عبد الصمد.. عيب يا جمعه..

* * *

والقريــة كلها تتحــدث عن النحاس والاكتشــاف الجديد الذى يسمى الألومنيوم..

وفى الصباح الباكر ذهب جمعة إلى البندر واشترى مجموعة من الأوانى الألومنيوم.. وعاء كبير أكبر من أكبر حلة.. ووعاء أصغر.. وأصغر، وطشت.. ومجموعة من الأطباق.. كلها من الألومنيوم وعاد بها إلى القرية فى المساء..

والتف أهل القرية يتفرجون على الألومنيوم..

وقال الشيخ يحيى وهو يقلب فى يده طبقًا من الألومنيوم:

- هذا صفيح، أو كالصفيح..

وصرخت أم بهية:

- يا خرابى.. بنتى تتجوز بصفيح..

قال شحاتة:

- لأ.. مش صفيح.. ده زنك..

وقال عباس:

– دى حاجات بتاعة المستشفيات.. يكونش جمعه ناوى يسكن فى مستشفى..

وقال عوضين:

– دى حاجات خواجات وانت الصادق.. الخواجه اللى كان فاتح فى المركز كان بيطبخ فى بتاعه زى دى..

وقالت بهية والدموع فى عينيها:

– أنا عايزه نحاس أحمر..

وصرخ مدبولى:

– اسمع يا جمعه.. الجوازه مش نافعه.. بهية مش لك..من بكره حايتكتب كتابها على عباس..احنا لا من أهل البندر.. ولا خواجات..

وصرخ جمعة:

– بهيه بتاعتى.. مراتى.. قريت فتحتها.. محدش يقدر يتجوزها غيرى..

واشتد الصراخ..

وتجمعت عائلة مدبولى فى جانب.

وعائلة عبد الصمد فى جانب.

وارتفعت أعواد الشوم الغليظة فى الهواء..

وفى المساء.. نفس المساء.. تسلل بعض أولاد عبد الصمد إلى أرض مدبولى، وقطعوا المياه عنها.. ولمحهم أولاد مدبولى..

وانطلق الرصاص.. وخرج جمعة من البيت يجرى.. لم يكن يعلم ما يجرى.. ولم يكن يعلم من أين ينطلق الرصاص.. وشق طريقه بين الجانبين.. فى الظلام.. وأصابته رصاصة.. لا أحد يعلم حتى اليوم، هل هى رصاصة أطلقها إخوته، أو أطلقها أخوة بهية.

وقتل جمعة..

وبعد أربعة أيام قتل شحاتة بن مدبولى وأخو بهية.. ثأرًا لجمعة..

وبعد شهور مات عبد الصمد حسرة على ابنه..

ومات فى نفس الشهور مدبولى حسرة هو الآخر على ابنه..

* * *

ونسيت القرية مشكلة النحاس والألومنيوم..

والثأر لا يزال قائمًا بين العائلتين.

ثأر لا موضوع له.. ولكن له ضحايا..

وخرجت فردوس أخت المرحوم جمعة تحمل على رأسها الوعاء الألومنيوم الكبير الذى اشتراه جمعة يومًا ما.. وقالت لها فتحية:

- والنبى يا اختى ده أخف من الداهية النحاس اللى أنا شايلاها على دماغى..

وقالت عزيزة:

- ويستحمل زى النحاس وأكتر..

وقالت فتحية:

- ولا يصدى.. ولا يجنزر، ولا عايز تبييض ولا حاجه..

وقالت سنية:

- وبيقولوا أرخص..

وبدأت نســاء القرية وبناتها يستعملن الأوانى الألومنيوم.. دون أن تتذكر واحدة منهن جمعة.. شهيد الألومنيوم..

واحدة فقط كانت تذكره وفى قلبها حسرة كبيرة..

بهية..

وعندما تزوجت بهية كانت كل أوانيها من الألومنيوم..

* * *

الهزيمة

أحمد.. عزيزى:

رأيتك أمس..

بعد خمسة عشر عامًا، رأيتك.. أتدرى.. إنك لم تكبر.. بشرتك السمراء المشدودة.. أنفك المستقيم الذى يحمل ملامح شخصيتك القوية.. عيناك الجادتان الحازمتان كأنهما تلقيان فى كل لفتة أمرًا عسكريًّا.. ابتسامتك الدائمة التى تشق خطًّا رفيعًا بين شفتيك الغامقتين الممتلئتين.. و.. كم عمرك الآن.. الخامسة والخمسون على ما أعتقد.. وبرغم ذلك فإنك ما زلت تبدو كما تركتك فى الأربعين.

والحمد لله أنك لم ترنى عندما رأيتك، وإلا لما عرفتنى.. أنا تغيرت كثيرًا يا أحمد.. جلدى ارتخى فوق عظام وجهى.. جفناى سقطا فوق عينى.. تشققت شفتاى.. لم أعد هذه الزوجة الصغيرة الحلوة التى عرفتها منذ خمسة عشر عامًا.. بل لم أعد أبدو فى سنى.. سن الثامنة والثلاثين.. إنى أبدو أكبر بكثير.. وأحاول كثيرًا أن أنكر هذه الحقيقة، فأقف أمام مرآتى وأشد جلد وجهى بكفى، وأفتح عينى على وسعهما لأدارى تجاعيد جفنى، ولكنى لا أكاد أرفع كفى، حتى يعود جلدى ويرتخى، ويسقط جفناى.. وأرى نفسى كما أصبحت..

نعم.. لقد تغيرت كثيرًا يا أحمد..

وعندما رأيتك، وتداريت خلف فانوس النور أرقبك وأنت تركب سيارتك، أحسست فى لحظة واحدة أنى عدت إلى عمرى معك.. إلى شبابى.. إلى أيامنا.. وابتسمت ابتسامة كبيرة زغردت فى صدرى بل كدت أضحك كما تعودت أن أضحك وأنا صغيرة..

وبعد أن ابتعدت، واختفيت عن عينى ربما لسنوات طويلة أخرى، تذكرت، وابتسامتى لا تزال فى صدرى، أنى لم أقل لك حتى اليوم لماذا هجرتك.. هكذا فجأة.. وتركتك حائرًا، تردد فى دهشة.. مجنونة.. مجنونة..

وربما كنت مجنونة فعلا..

ولكن كل مجنون له منطقه..

وأنت لم تعرف بعد منطق المجنونة التى هجرتك فجأة..

عزيزى أحمد..

أتذكر..

لقد عرفتك وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى عندما التحقت طالبة بكلية الآداب.. وبهرت بك منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه علينا لتلقى محاضرتك فى تاريخ الفلسفة.. ولم أكن وحدى التى بهرت بك.. كل بنات الكلية كن يبهرن بك.. لا لأنك أستاذ فحسب، ولا لأنك رجل وسيم فحسب، بل لأنك أيضًا أنيق، ولأنك تملك سيارة أنيقة تقف على باب الكلية كالفرس الأصيل فى

انتظار فارسها.. وكل ذلك كان يجعل منك حلمًا جميلا لكل بنت.. ولكنى لم أبهر برجولتك ولا بسيارتك، ولكنى بهرت بعلمك.. هذه هى الحقيقة.. ومنذ أن انســاب صوتك إلى أذنى عميقًا رزينًا يروى لنا قصة الفلســفة.. استغرقت فيك كما أســتغرق فى كتاب ممتع.. أخذتنى كلى.. عقلى، وخيالــى وأعصابى.. وأصبحت أنتظرك.. أو على الأصح أنتظر محاضرتك.. بشــوق ولهفة. كأنى أنتظر اللحظة التى أدخل فيها إلى فراشى وأستغرق فى كتابى المفضل..

وكنت أيامها مجنونة بشــىء اسمه الثقافة.. كنت أريد أن أكون مثقفة، وأن أحس بأنى مثقفة.. لا مجرد طالبة، بل مثقفة.. وكنت أعيش مع أمى وحدنا ننفق من معاش أبى الذى توفى منذ سنوات.. لــم يكن لــى أخ ولا عم ولا خال.. عم واحد ســافر إلــى كندا وبقى هنــاك وانقطعت الصلــة بينه وبيننا.. وربما كانــت هذه الوحدة.. وحدتى فى الحيــاة.. هى التى دفعتنى إلى القــراءة والثقافة، لقد قــرات كثيرًا، أكثر مما تتصور.. ووجدت إخوتى وآبائى، وأعمامى وأخوالــى، فيمن قرأت لهم.. كانوا هم الذيــن يصنعون لى مبادئى وتقاليدى، وشــخصيتى.. وكنــت أحبهم كما أحــب عائلتى.. لقد جعلت منهــم عائلتى.. وكنت أخاف من الفيلســوف «بيكون» كما أخاف من أبى.. وأحترم أرســطو كما أحترم جدى.. وأناقش سارتر كمــا أناقش ابــن عمى.. إلى أن التقيت بــك.. فأصبحت أنت أقرب واحد إلىّ ممن أقرأ لهم.. ربما لأن كل الذين قرأت لهم كانوا مجرد

حروف ترسم لى ثقافتى، أما أنت فكنت ثقافة حية.. كنت لحمًا ودمًا.. وكنت صورة حلوة للثقافة.. صورة أنيقة جذابة..

وبرغم ذلك لم أحاول أن أعرفك وأنا طالبة.. لم أحاول أن أجرى وراءك بعد المحاضرة كما تجرى وراءك بقية الطالبات.. فإن ثقافتى أشاعت فى نفسى نوعًا من التعالى، أو من مركب العظمة، إذا أردنا أن نستعمل التعبير العلمى.. ولا شك أن هذه الثقافة قد حمتنى فى هذه السن من كثير من نزوات الشباب.. بل إنها فى الواقع كانت تنفر منى كل الشباب والرجال الذين يحاولون مغازلتى، فقد كان الواحد منهم لا يكاد يقترب منى حتى أبدأ معه مناقشة علمية فى الفلسفة أو فى الأدب، أحاول خلالها استعراض ثقافتى، فلا يلبث أن يتضاءل أمامي، ويفر.. ولكن.. إذا كانت الثقافة قد حمتنى.. فقد أصابتنى أيضًا بهذا التعالى، وهذا الكبر، وهذه الحساسية المرهفة بكل ما يمكن أن يمس كبريائى.. وفى كثير من الأحيان كانت هذه الحساسية تنطلق من تفسير كاذب غبى لتصرف من التصرفات، وينبنى عليها معركة كاذبة وهمية دفاعًا عن كبرياء كاذب أيضًا..

لهذا لم أحاول أن أقدم لك نفسى كأى طالبة تقدم نفسها لأستاذها، وكنت أنت كريمًا مع نفسك معتزًّا بشخصيتك، فلم تحاول أن تفرض نفسك علىّ، كأى أستاذ يفرض نفسه على طالبة.. ولكن أكثر من مرة التقت نظراتنا وأنت تلقى محاضراتك، ورأيت

فى عينيك تساؤلا عجيبًا مهذبًا كأنك تسألنى فى أدب: متى وأين.. ولعلك رأيت فيٍ عينى هذا الإصرار العجيب الذى يثيره إحساسى بالتعالى مختلطًا بإعجابى وإيمانى بك..

وقد بقى هذا الإصرار قائمًا.. برغم أن إعجابى بك بدأ يتطور.. بدأت صورة الأستاذ المثقف تختلط بصورة الرجل.. بدأت أحبك.. ولكنى قاومت بعنف.. قاومت حبك، وقاومت فيك صورة الرجل.. وحاولت أن أتشبث بكل قواى فى حائط الثقافة الذى يحمينى من الرجال.. من الحب.. أنت لا شيء سوى كتاب.. ثقافة.. هكذا كنت أحاول أن أقنع نفسى..

إلى أن انتهى العام الدراسى.. ونجحت فى مادتك بأعلى درجة حصلت عليها طالبة، ربما حتى الآن..

وفى فترة الإجازة، مرضت أمى..

واشتد بها المرض..

وبدأت بين آهاتها التى تنطلق من آلامها الفظيعة تلحّ علىّ أن أتزوج.. كانت تحس بأنها على وشك الموت، وكان الزواج هو الحل الوحيد لإعالتى بعد أن تموت.. فلم يكن لى أحد، ولم يكن لى سوى ما يتبقى من معاش أبى..

وثارت كبريائى..

وثار عنادى..

إن الــزواج معناه القضاء على كل أحلامــى.. ولكن تأوهات أمى وذبولها يومًا بعد يوم، كان ينقلنى من ســماء كبريائى، ومن أحلام ثقافتى، إلى الواقــع.. إلى الأرض.. إنى فعلا وحيدة.. وفعلا ليس لى من يعولنى بعد أمى..

وبدأت أفكر فى الزواج..

ولكنــى لم أفكر فى الزوج.. رضيت بــأول الواقفين على الباب، وكان أكثرهــم إلحاحًــا، وكان أيضًــا أغناهم.. إنه تاجــر.. يعمل بالتصدير والاســتيراد.. ويملك مصنعًا صغيرًا للحلوى.. وعمارة.. وخمسين فدانًا..

ولــم أكن أنتظــر أن يكون مثقفًا.. ولكن غــرورى جعلنى أتصور أنى أســتطيع أن أجعل منه إنســانًا مثقفًا.. أن أضع كل ما فى عقلى من كتب، فى عقله.. وربما كان استســلامه لــى فى فترة الخطوبة القصيرة، واحتماله فى صمت لمحاضراتى الطويلة التى ألقيها عليه قد أثار غرورى أكثر، وطمأننى أكثر إلى أنى أستطيع أن أجعل منه الرجل الذى أريده..

وتزوجنا بعد شــهرين من إعلان خطوبتنــا.. وانتقلت معه إلى بيتى الجديد.. شقة فاخرة كان زوجى قد أثثها بنفسه أثاثًا باذخًا..

وماتت أمى بعد زواجى بأسبوعين.. راضية.. مطمئنة علىّ..

ولــم يبــق لى إلا زوجــى، وثقافتى بكل ما تثيره فــىّ من تعالٍ وكبرياء كاذبة..

وقبل أن ينقضي الشـهر الأول بدأت أكتشـف هذا الرجل الذى تزوجتـه، بعد أن أزاح عن وجهـه الصمت الذى كان يختفى وراءه فـى فترة الخطوبة، اكتشـفت أنه لم يكن يريدنى كإنسـانة مثقفة مهذبة، ولكنـه فقط كان يريدنى كامرأة.. وقـد عرف منذ الليالى الأولى أنى لا أسـتطيع أن أكـون المرأة التى يريدها.. واكتشـفت أيضًا أن هذه الشـقة الفخمة الباذخـة الأثاث لم يؤثثها لى، ولكنه أثثها ليصطاد فيها عملاءه الذين يتاجر معهم، أو يستفيد منهم فى تجارتـه.. ويومًا بعد يوم، أصبح أكثر صراحـة.. إن موائد القمار تمتد فى بيتى كل ليلة.. وزجاجات الويسكى.. وجوزة الحشيش.. ونسـاء لسـن بالزوجات يصحبن الرجال.. وهو يريدنى أن أرضى بكل ذلك، بل أن أشترك فيه.. يريدنى أن ألعب القمار، وأن أسكر، وأن أدخن الحشـيش، وأن أصادق هؤلاء النساء.. بل أكثر من ذلك.. يريدنى أن أكون سهلة مع أصدقائه الرجال.. أن أكون لطيفة.. دمى خفيـف.. أتحمل غزلهم.. و.. واعترضت.. حاولت أولا أن أعترض فى هـدوء.. أن أقنعه بأن هناك طريقًا آخـر للحياة أنظف وأجدى مـن هذا الطريـق.. كنت أريـد أن أقنعه بمتعة العقـل.. إن العقل وحده يسـتطيع أن يحقق شـيئًا أكثر مما تحققه الشهوة، والغريزة الإنسانية البدائية السخيفة.. ولكنه كان يسخر منى ومن ثقافتى.. ويتهمنـى بالبرود ويصفنى بثقل الدم.. وكنت أصرخ، فيصرخ أكثر منـى.. إلى أن ضربنى مرة.. ضربنى لأنى أهنت رجلا من أصدقائه

حاول أن يشد امرأة جاء بها فى إحدى هذه الليالى، ويدخل بها إلى فراشى.

ولم أستطع أن أهجر هذا الزوج حتى بعد أن ضربنى، فلم يكن لى مكان أذهب إليه إذا تركته..

كل ما فعلته أنى تعاليت عليه.. واجهته وواجهت أصدقاءه باحتقارى.. وانزويت فى مكان ضيق من البيت أنا وكتبى، أقرأ.. وأقرأ.. ولا أعترض على شىء مما يجرى فى بيتى.. ولا أطلب من زوجى شيئًا.. الشىء الوحيد الذى طلبته هو أن يسمح لى باستكمال دراستى الجامعية، بأن أعود إليك.. ولكنه رفض ساخرًا.. وقال لى إن الأجدى لى أن أتعلم كيف أكون امرأة.. ولم أرد عليه.. ولم أتمسك بالعودة إلى الجامعة، وأقنعت نفسى بأن الثقافة فى الكتب وليست فى الجامعة.. وبينى وبين هذا الزوج معركة رهيبة صامتة.. معركة بين كبرياء الإنسان المثقف وكبرياء الإنسان الغنى.. معركة بين الثقافة والمال.. ولم أكن أحسّ بلحظات الهزيمة إلا عندما يأتى إلى ويطالب بحقه فى جسدى كزوج.. وأعطيه جسدًا أبرد من لوح الثلج، أحس به يذلنى.. يهيننى.. يصفعنى..

عزيزى أحمد..

فى هذه الأثناء بدأت أتصل بك فى التليفون.. كنت فى حاجة إليك.. كنت فى حاجة إلى إنسان من عالمى يشعرنى بأنى ما زلت على قيد الحياة.. كنت فى حاجة إلى نافذة أفتحها وسط هذا الظلام

البشـع، ليطل عليّ من خلالها قبس من النور النظيف.. نور العقل والـروح.. وكنت أنت هـذه النافذة.. وقد تذكرتنـى منذ مكالمتنا الأولى.. هل تذكر.. كأنك كنت دائمًا فى انتظارى.

وتعددت مكالماتنا فى التليفون. كل يوم نتحدث.. أناقشك فيما أقرؤه.. وأطير معك فـى عوالم الثقافة.. ولكن.. لم يكن هذا كافيًا، كان لابـد أن نلتقى.. وأنت تلح على لأحدد لـك موعد اللقاء.. وأنا أرفض فـى رفق.. ولم تكن تدرى كم أتعذب وأنا أرفض.. وكم أدفع مـن أعصابى ثمنًا لإرادتـى.. لقد كنت أيامها أحبـك.. أحبك حبًّا كامـلا، وعندما كنت فتاة كنت أحبك بعقلى، وخيالى، وعواطفى، ولكنـى بعد أن تزوجت أصبحت أحبك بجسـدى أيضًا.. إن الزواج يربط الجسـد بالعاطفة.. والعاطفة بالجسـد.. ليسـت هناك امرأة تسـتطيع أن تحب بعواطفها فحسب.. إن الفتاة بعد أن تصبح امرأة لا تسـتطيع أن تفصل خيالها عن واقعها.. لأنه لا يصبح هناك شىء من التقاليد ولا من الإحساس الفسيولوجى يفصل بينها وبين الواقع، وهكذا كنت أحبك.. خيالـى وواقعى.. كنت أريدك أن تعطينى كل ما حرمنى منه هذا الزوج.. العقل، والقلب.. والجسد.. وبرغم ذلك قاومت، لأن استسلامى كان معناه هزيمتى.. هزيمة كبريائى.. كان معنـاه أنى لم أعد أفضل من هذا الزوج الذى أحتقره.. كان معناه أن كل مـا يفصل بينـى وبينه هو اختلاف فى المـزاج لا اختلاف فى المبادئ وفى المستوى الثقافى.

وكان زوجى قد بدأ يسافر كثيرًا إلى الخارج، ويغيب فى كل مرة شهرًا وشهرين.. ورغم ذلك كنت أرفض أن أذهب إليك.. وأنت صابر يا حبيبى... لا تملنى.. وتعطينى من روحك قوة أستعين بها على حياتى.

إلى أن عاد زوجى مرة من الخارج.. وجاء إلىّ.. وأسلمته هذا الجسد البارد، وأنا أحتقره وأزدريه.. وفجأة انتفض بعيدًا عنى وهو يصرخ ويعلن فى وجهى خطة انتقامه الرهيب.. إنه لن يعود إلىّ.. سيتركنى.. ولكنه لن يطلقنى حتى لا يتزوجنى رجل آخر.. وسيترك لى هذه الشقة، ويدفع إيجارها.. ولكنه لن يدفع أكثر من ذلك.. سيتركنى أعول نفسى.. ولنر إذا كانت ثقافتى ستنفعنى.. وقبل أن يخرج من البيت جمع كل مصاغى وكل قرش، وأخذه معه.

خطة دبرها صاحب مال، يريد أن يخنقنى بحاجتى إلى المال..

وقد قلت لك كل ذلك فى التليفون.. وكنت رقيقًا حنونًا ورجوتنى أن اعتبرك مسئولا عنى إلى أن أستطيع أن أدبر أمرى.. وعرضت على أن ترسل لى مبلغًا من المال.. ولكنى رفضت.. قلت لى أن أعتبر المبلغ على سبيل القرض، ولكننى رفضت.. وقلت لى وأنت تحتد احتداد إنسان يحب، إنه لا يعقل أن تحبنى وأحبك، دون أن أعتبرك رجلى المسئول عنى.. ولكنى رفضت..

وبدأت أواجه أيامًا غريبة..

إنى أقيم فى شقة فخمة، وفى أرقى حى من أحياء القاهرة، وليس معى ولا قرش.. كيف آكل.. وكيف أدفع حساب التليفون،

والنـــور، وبائع الصحف.. و.. و.. أشـياء كانت تبـدو صغيرة فى حياتى، أصبحت مشاكل ضخمة.. معضلات..

واقترضــت من صديقتى فتحية التى تقيم فى الشـقة المجاورة، عشرة جنيهات..

وبعد أيام وجدت فى البيت بضع زجاجات الويسكى التى تركها زوجــى وراءه، فأعطيتها لفتحية.. وأعطتنى ثلاثين جنيهًا بعد أن خصمت العشرة جنيهات التى اقترضتها منها..

وأنا حائرة.. يائسة.. ولم أكن أستطيع وسط هذه الحيرة البائسة أن أستمر فى مقاومتك.. فى مقاومة نفسى..

ذهبت إليك..

ولم نكن فى حاجة إلى مقدمات.. لقد اسـتمرت المقدمات بيننا أكثـــر من عامين.. وكان توتر أعصابى كفيلا بأن يدفعنى إليك كلى.. أعطيتك نفســى منذ اللقاء الأول.. لا.. لم أعطك نفسى، بل أخذتك، فربما كنت فى حاجة إليك، أكثر من حاجتك إلى..

وقبـل أن أنصـرف مــن بيتك.. لمحتــك تدير ظهــرك وتخرج محفظتك وتلتقط منها مبلغًا من المال، وتدسه فى حقيبتى..

لمحتك..

وأحسســت بتيار بارد كريح الثلج يســرى فــى عروقى كلها.. ولكنى سكت..

لم أتكلم..

حملت حقيبتي كأني لم ألمح شيئًا.. وتركتك تقبلني على جبيني البارد، وخرجت عائدة إلى بيتي، وفي كل خطوة تكتمل في خيالي صورة بشعة لنفسي.. خط بعد خط يرسمه خيالي حتى اكتملت الصورة.. صورة مومس.. نعم صورة مومس.. امرأة تبيع جسدها.. وصدقني أني حاولت كثيرًا أن أبعد هذه الصورة عن خيالي.. حاولت أن أقنع نفسي بأنك تحبني، ولأنك تحبني فأنت مسئول عني كزوجي وأكثر.. وحاولت أن أقنع نفسي بأن ما أعطيته لي هو مجرد قرض.. حاولت كثيرًا.. ولكن عبثًا.. صورة المومس تكبر في خيالي.. وتكبر.. وتكبر.. لقد ذهبت إليك وأنا إنسانة مثقفة وزوجة التاجر الكبير عبد القادر عبد الله، وخرجت من عندك.. مومسًا..

ووصلت إلى بيتي وانكفأت على وجهي أبكي..

بكيت كثيرًا..

بكيت الإنسانة المثقفة التي فقدتها..

بكيت كبريائي وعنادي..

بكيت هزيمتي أمام الزوج الذي أكرهه..

وأفقت من بكائي وفي رأسي قرار حاسم.. لن أراك بعد اليوم.. لا أريد أن أراك كمومس.. ولم يكن هناك شيء يستطيع أن يقنعني يومها بأني لست مومسًا، وأنني فقط امرأة في حاجة إلى معاونة حبيبها..

كنت أعرف أنى لن أذهب إليك بعد اليوم إلا وأنا أشعر بحاجتى إلى النقود، وأنت تشعر بواجبك الذى يحتم عليك إعطائى النقود.. ستظل النقود بيننا عنصرًا من عناصر حبنا.. أو علاقتنا.. ولم يكن هذا فى حسابى أبدًا.. لم أحبك أبدًا وأنا أشعر بحاجتى لأن تنفق على.. كنت أحبك وأنا أشعر بحاجتى إلى ثقافتك، وإلى رجولتك.. وإلى حنانك. ولن أذهب إليك أبدًا وأنا فى حاجة إلى مالك.. إنى لا أحبك وأنت تعطينى مالا.. إنك تجرحنى.. تهيننى.. لا تقل لى أن أعتبرك زوجى، فأنت لست زوجى.. إن الزواج ليس علاقة بين شخصين.. ولكنه علاقة مع مجتمع.. مجتمع يسمح للرجل أن ينفق على المرأة.. وأنت وأنا ليس لنا مجتمع.. إننا نختبئ من المجتمع.. والمجتمع لا يسمح لك أن تنفق على إلا إذا اعتبرنى مومسًا.. امرأة تبيع جسدها.. وأنا لا أريد أن أكون مومسًا.. لا أريد.

ولن أراك بعد اليوم..

وعندما اتصلت بى فى التليفون تسألنى لماذا لم أتصل بك، قلت لك فى صوت مبحوح خطير، كأنه بقايا روحى:

– أرجوك.. لا تتصل بى بعد الآن..

وسمعتك تقول كلامًا كثيرًا.. ثم تردد.. مجنونة.. مجنونة..

وتعود تقول كلامًا كثيرًا..

وأنا صامتة..

وأعدت السماعة إلى مكانها..

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى سمعت صوتك فيها.

وبرغم ذلك.. فقد أنفقت النقود التى أعطيتها لى.. كنت فى حاجة إليها.. كم أعطيتنى.. خمسين جنيهًا على ما أذكر.. وقد صرفتها فى أقل من شهر.. وعدت واقترضت من صديقتى فتحية.. وأنا أعيش حياتى كالمشلولة، ولا أدرى كيف أتصرف.. ولا ماذا أفعل.. أفكر فى أن أعمل.. وفى أن أدرس.. ولكنى لا أعمل شيئًا، ولا أدرس شيئًا.. وفتحية تعرف عنى كل شىء.. وتعرف أيضًا قصتى معك، وقد حاولت كثيرًا أن تقنعنى بأن أعود إليك، على الأقل إلى أن أحل مشكلتى مع زوجى.. ولكنى أرفض فى عناد وفى كبرياء.. وأنت قد أخذتك العزة بنفسك بعد أن قطعت حديثك فى التليفون، فلم تعد تحاول أن تتصل بى.. وزوجى لا أدرى مكانه، ومكتبه يتولى دفع إيجار الشقة كل شهر.. فقط إيجار الشقة..

ودعتنى فتحية إلى قضاء السهرة عندها.. وكان هناك رجل وسيم مهذب.. أخذت فتحية تروى أمامه قصة زوجى معى.. وهو يواسينى.. ويقترح على الحلول.. ثم اتصل بى بالتليفون فى اليوم التالى.. و.. و.. ولا أطيل عليك.. ذهبت إلى لقائه. واستسلمت وأنا مذهولة.. لم أكن أدرى أيامها أين أقف، ولا ما هى مبادئى، ولا ماذا أقاوم من أجله.. وفى نفس اللحظة الجارحة.. اللحظة التى انتهى فيها منى، وبدأت أرتدى ثيابى.. لمحته كما سبق أن لمحتك.. لمحته يفتح محفظته، ثم يدس فى حقيبتى مبلغًا من المال.

وخرجت من بيته وخيالي يرسم لي نفس الصورة.. وخط وراء خط واكتملت الصورة.. صورة المومس.. والصورة تكبر في خيالي.. وتكبر.. وتكبر.. وانكفأت على فراشي أبكي..

ورفضت في عناد عجيب أن أذهب إلي لقائه مرة أخرى.. برغم إلحاحه وتوسلاته، وبرغم كل محاولات صديقتي فتحية في إقناعي.. لقد ذهبت إليه وهو يعتقد أني إنسانة مثقفة وحرم التاجر الكبير عبد القادر عبد الله، ولن أعود إليه كمومس.

وبرغم ذلك أنفقت النقود التي أعطاها لي.. كم أعطاني.. أربعين .. ربما كان ينوي أن يعطيني خمسين، ثم اختصر عشرة جنيهات في آخر لحظة..

و..

كم رجل..

كثيرون.. ولم أكن أقابل الواحد منهم إلا مرة واحدة.. كل منهم أذهب إليه كزوجة تخون زوجها، ثم أرفض أن أعود إليه كمومس .. ولم أكن أذهب إلي واحد إلا بعد أن تنتهي النقود التي أخذتها من الذي قبله، وبعد أن أقترض من فتحية عشرة جنيهات.. وفتحية تقول عني إني مجنونة.

وكنت لا أزال أقرأ وأقرأ.. ولكني لم أعد أحس بأني محترمة وأنا ممسكة بالكتاب كما كنت أحس دائمًا.. ثم لم أعد أحس بأني من عائلة أرسطو وهكسلي وسارتر.. حتى هذه العائلة فقدتها..

يتيمــة.. بلا عائلة.. وبــلا مال.. وبلا زوج.. وبــلا ولد.. وبلا حبيب.. بلا أحــد يحترمنى وأحترمه.. حتى نفســى لا أحترمها ولا تحترمنــى.. وانطلقت أضحك ضحكات مجنونة.. لقد هزمت.. هزمت منــذ زمان طويل، وهزمــت أمام صاحب المــال.. المثقف هزمته حاجته إلى المال.. وقســوة الإنسان الغنى، هزمت كبرياء الإنسان المثقف.. وبسرعة جريت إلى التليفون، واتصلت بمدحت درويــش.. إن مدحت كان أكثر أصدقاء زوجى إعجابًا بى، وأكثرهم جرأة على مغازلتى، وكنت أصده وأحتقره.. وكان زوجى يجن كلما صددتــه.. إنه موظف كبيــر.. صاحب نفوذ.. فكيــف أعامله هذه المعاملــة.. لــن أعامله هذه المعاملة.. وضحكت لــه فى التليفون، ودعوته لقضاء الســهرة معى.. فى بيتــى.. وذكرته بأن يأتى معه بزجاجة ويسكى..

وجاء مدحت..

وزجاجة الويسكى..

ولم يترك لى شيئًا فى حقيبة يدى قبل أن يتركنى، ولكنه اقتنع بــأن زوجى يجب أن يعود إلىّ وتعهد بــأن يعيده.. وقهقه قهقهة عالية فظيعة وهو يقول: هو جوزك حايلاقى واحدة زيك فين..

وعاد الزوج..

وعادت مائــدة القمار، وزجاجات الخمر، وجوزة الحشــيش، والنســاء اللاتى لســن زوجات.. وأنا أشــارك فــى كل ذلك.. ألعب القمار، وأدخن الحشيش، وأسكر.. و.. كل شىء..

إنى أعيش فى هزيمتى..
وزوجى يعيش فى انتصاره.
شــىء واحد حميته من هزيمتى ومن انتصار زوجى.. حبى لك، حميتــه بابتعادى عنك.. فقد أحببتــك كما كنت، منتصرة.. لا كما أصبحت، مهزومة.

عزيزى أحمد:
الآن.. وبعد خمسة عشر عامًا.. لعلك تستطيع أن تفهمنى..
وشكرًا لأنى رأيتك..
وشكرًا لأنك لم ترنى..

* * *

لا تذبحوا الفراخ..

لا تقتربوا منى..
أنا مجنون..
وجنونى قاتل..

ولكنى أختلف عـن بقية المجانين بأنى أعـرف أنى مجنون.. وأعـرف بالضبط متـى أصبحت بالجنـون.. إنه جنـون من النوع المتقطـع.. فتـرات تمر بى، ثـم أفيق منها، وأعود إنسـانًا عاقلا يسـتطيع أن يناقش جنونه ويدرسه ويعرف أسـبابه، وإن كان لا يستطيع أن يقاومه..

متى جننت؟..

فى الحادية عشرة من عمرى.. منذ حوالى الثلاثين عامًا.. وبرغم أن جسـمى أيامها كان يبدو أضخم وأكبـر من عمرى، إلا أنى كنت صبيًّا رقيقًا خياليًّا.. كنت أهوى الرسم.. وأقضى معظم أوقات فراغى أرسـم هذه الرسوم الساذجة التى يرسـمها الأطفال.. وكنت أحب أن أجلس مع جدتى، أسـتمع منها إلى حكاياتها الحلوة المثيرة.. وكنت أجرى إلى أبى كلما وقـف للصلاة لأصلى خلفه، وأحاول أن أقلده فى صوته وحركاته.. كنت طفلا يملأ السلام قلبه وخياله.

وكنا أيامها نقيم فى حارة نصير بالعباسية.. وأذهب أنا وثلاثة

من أبناء الحارة إلى مدرسة السلحدار الابتدائية التى تقع عند بوابة الفتوح ملاصقة لجامع الحاكم بأمر الله.. وكنا نذهب إليها سيرًا على الأقدام برغم بعد المسافة.. مسافة طويلة نقطعها فيما لا يقل عن ثلاثة أرباع الساعة.. وكان يجب أن نمر فى طريقنا بشارع الحسينية.. الشارع الذى يشق الحى الشعبى العريق.. وكان صبية حى الحسينية يعتبرون كل تلميذ يمر بهم مرتديًا بدلة، وفى قدمه حذاء، وعلى رأسه طربوش.. كانوا يعتبرونه غنيمة لهم.. فيجرون وراءه ويخطفون طربوشه أو يضربونه عليه حتى يبطحوه، ولا يتركونه إلا فى نهاية الشارع عندما يصل إلى بوابة الفتوح..

وكنت أنا وزملائى لا نكاد ندخل شارع الحسينية فى طريقنا إلى مدرستنا، حتى تمتلئ قلوبنا بالرعب من صبية الحى.. ونسير فى خطوات مرتجفة حذرة، ملتصقين بالجدران، ونحن نتلفت حولنا حتى إذا لمحنا الصبية يهجمون علينا التجأنا إلى أقرب دكان أو إلى أقرب مقهى نحتمى بصاحبه ونحن نصرخ:

- والنبى يا عم.. حوش عنا العيال يا عم..

وكان صاحب الدكان أو المقهى يحمينا فعلا، ويطرد الصبية من ورائنا.. ثم نعود نسير فى خطواتنا المرتجفة الخائفة، حتى نحتمى فى دكان آخر أو فى مقهى آخر.. وهكذا من دكان إلى دكان، ومن مقهى إلى مقهى، حتى نصل إلى المدرسة.. وبرغم هذا.. لم

نكن دائمًا نصل ســالمين.. كنا كثيرًا ما نصل وطرابيشــنا مبططة أو مفقودة، وثيابنا ممزقة..

وكانت أخطر المناطق التى نمر بها فى شــارع الحســينية، هى منطقــة ضريح ســيدى البيومى، وهــى تقع فى النصــف الأول من الشــارع، من ناحية العباسية.. كان أولاد البيومى هم أشرس أولاد الحســينية، وأكثرهم تحديًــا وحقدًا على أولاد العباســية.. ربما لقــرب حيهم من حينا.. ولأنهم كانوا – حتى الأطفال – ينفســون عن حقد طبقى يلح عليهم.. فــأولاد البيومى كلهم من أولاد البلد.. أولاد صغــار الباعــة، والعمال، والعاطلين، بينما أولاد العباســية أغلبهم مــن أولاد الموظفين، وضباط الجيــش، والتجار.. صغارهم وكبارهم.. فقد كانت العباســية تنقســم إلى حيين.. الحى الشرقى ويسكنه كبار الموظفين وكبار الضباط وكبار التجار، والحى الغربى ويســكنه صغار الموظفين، وصغار الضبــاط، وصغار التجار.. وتقع فيه حارتنا.. حارة نصير..

وكنا نعود من المدرسة فى المساء ونجتمع بأولاد حارتنا، ونروى لهم ما حدث لنا فى يومنا مع أولاد الحسينية، وخصوصًا أولاد سيدى البيومى. وبدأت اجتماعاتنا فى الحارة تتخذ شكل مجلس أعلى يضع خطة لحمايتنا أثناء ذهابنا إلى المدرسة وعودتنا منها..

وقــد اقترحت أن نذهــب ونقابــل المعلم إبراهيم عــرا.. فتوة الحسينية ونطلب حمايته لنا.. ورد ابن حارتنا، محمود حسنين:

– مينفعش..

وقال واحد منا:

– أمال إيه اللى ينفع؟

وقال محمود حسنين وهو يشوح بيده:

– نحاربهم..

ولفتنا سحابة من الوجوم والصمت..

وصرخ محمود:

– إحنا خايفين ليه.. إذا كانوا همّا ولاد الحسينيه برضك إحنا ولاد العباسية..

وهلل أولاد حارتنا.. وانطلق الحماس من حناجرهم..

وكان محمود أكبرنا سنًّا.. إنه فى الخامسة عشرة من عمره، وهو ابن الحاج حسنين صاحب المخبز البلدى الذى يقع فى شارع رضوان شكرى، وهو الشارع الذى تتفرع منه حارتنا.. وكان محمود يسيطر علينا جميعًا.. لا لأنه أكبرنا وأقوانا، ولكن لأنه أيضًا شديد الذكاء، لا يكف عن ابتكار المشروعات التى يشركنا فيها جميعًا.. أقام مرة مشروعًا لخيال الظل، وكان هو بنفسه الذى يحرك الدمى خلف الشاشة، وكان يتقاضى من كل واحد منا مليمًا أجرًا لمشاهدة خيال الظل.. وفى مرة أخرى حصل على أدوات صنع الدندرمة، وصنعها بنفسه وأخذ يبيعها لنا.. لم يكن رأسه يكف

عن المشـــروعات.. وكان مشروع إعلان الحرب على أولاد الحسينية هو واحد من هذه المشروعات.

وذهب محمود ومعه بعض أولاد الحارة إلى الحسينية، وقابلوا شــلة الصبية المتجمعين عند ضريح سيدى البيومى.. طبقًا لتقاليد الفتوات الكبار.. وقالوا لهم:

- إطلعوا لنا بره..

ورضى أولاد ســيدى البيومى أن «يطلعوا بره».. أى فى أرض لا يملكها أحد.. لا هى أرض الحســينية ولا أرض العباسية.. واتفقوا على أن يلتقى الجيشان.. جيشنا وجيشهم.. فى مكان يسمى «أرض العيــون» يقع فى صحراء العباســية.. وذلك فى يــوم الجمعة عقب الصلاة..

وبدأ محمــود يتولى القيادة، ويضع الخطــط.. وأخذنا معه إلى أرض العيون، وحدد المكان الذى سنبدأ منه هجومنا.. وجمع قطع الحجارة فى أكــوام وغطاها بالرمال حتى لا يكتشــفها العدو.. ثم بــدأ يدربنا على اســتعمال «المقلاع» الذى تقــذف به الحجارة من بعد كبير.. وأخيرًا جمع بعض العصى الغليظة وأخذ يشــق كل عصا من طرفهــا ويثبت فيها قطعة من حجر البازلــت الثقيل ويربطها بقطــع من القماش، وخيوط من الســلك، فتصبح كبلطة من التى كان يســتعملها الإنســان الحجرى، أو التى يســتعملها الهنود الحمر الذين نراهم فى أفلام رعاة البقر..

وكان إحساسى حتى هذا اليوم إحساسًا سلبيًّا، لم أكن أشعر بحماس ولا بفتور.. ولم أكن أتصور نفسى عندما يبدأ القتال.. ولم أكن أدرى كيف أتصرف.. كنت فقط أزامل أولاد الحارة فى كل ما يفعلونه لمجرد إحساسى بأنى ابن الحارة.

إلى أن وضع محمود فى يدى إحدى «البلط» التى صنعها.. وقد اختارنى فى فرقة حملة البلط لأنى - كما قلت - كنت أبدو أكبر وأضخم من سنى..

وما كاد محمود يترك البلطة فى يدى حتى أحسست بها تأخذنى معها..

تشدنى إليها..

وأحسست بأصابعى تلتف حول مقبضها، فى قوة، كأنها التصقت بها.. أحسست أنى لن أستطيع أبدًا أن أفك أصابعى من حولها.. ليست أصابعى هى التى التفت حول البلطة.. ولكنها البلطة التى جذبت أصابعى إليها ولفتها حولها، كأنها مغاطيس..

وأحسست بشىء يتحرك فى صدرى..

لا أدى ما هو..

كأنه عفريت كان نائمًا ثم بدأ يستقيظ.. ويتثاءب.. إنى أكاد أسمع صوت تثاؤبه.. أكاد أراه وهو يمد ذراعيه داخل صدرى، ويتمطى.. لعل هذا العفريت كان نائمًا فى صدرى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان..

وفجأة رفعت البلطة إلى أعلى وضربت بها الفضاء..
لا..
أقسم لكم أننى لم أرفع البلطة..
هى التى رفعت ذراعى..
هى البلطة..

وأصابعى ملتفة حولها لا تريد أن تتركها.. لا تستطيع.. حتى عندما ذهبت لأنام ظلت ملتصقة بأصابعى.. وكنت أحس بها - بالبلطة - تهزنى فى نومى إلى أن أستيقظ.. أستيقظ فعلا.. وتشدنى من فراشى.. وترفع ذراعى، ثم تهوى بنفسها فى الفضاء.. ثم أعود لأنام، إلى أن توقظنى البلطة مرة ثانية..

وكان اليوم التالى هو يوم المعركة..
وجاء جيش سيدى البيومى..
واصطف جيشنا فى خطوطه..
وبدأ التقاذف بالطوب..
والبلطة فى يدى..
وهذا الشيء الذى فى صدرى يصرخ..

ثم فجأة وجدت البلطة تشدنى وتجرى.. تجرى بى.. تجرى بى نحو خطوط الأعداء..

ورفعت البلطة ذراعى، ثم هوت بنفسها فوق رأس طفل من أطفال البيومى..

لقد رأيت هذا الطفل..

رأيته بعينى.

رأيته قتيلا والدم ينزف من رأسه..

وأذكر أنى ضحكت.. أو أنى سمعت صوتًا كالضحك.. ولا أدرى أأنا الذى كنت أضحك أم البلطة.. ولكنه كان ضحكًا كالصراخ..

ولا أذكر شيئًا بعد ذلك.. أفقت وأنا فى فراشى أعانى من حمى خطيرة، أرقدتنى أكثر من شهرين..

ولم يكن أحد قد اكتشف بعد أنى مجنون..

* * *

وقد انتقلنا من حارة نصير بعد معركة أرض العيون، وسكنا فى مصر الجديدة، وخصوصًا أن أبى ارتقى أيامها إلى الدرجة الخامسة.. وخرجت من مدرسة السلحدار، والتحقت بمدرسة مصر الجديدة..

وأصبحت إنسانًا هادئًا.. أكثر هدوءًا من شاب فى مثل سنى.. أصبحت منطويًا.. نفورًا من الناس.. لم يكن نفورًا ولكنه كان أشبه بالخوف.. ولم أكن أخاف من الناس، بل كنت أخاف عليهم.. أخاف عليهم من نفسى.. لا أدرى لماذا.. ولكنى فعلا كنت أخاف عليهم، إلى درجة أنى لم أحاول أن أتخذ صديقًا.. لم يعد لى أصدقاء..

وفى صدرى دائمًا شىء ثقيل.. نائم. كأنه هذا العفريت الذى ولد معى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.. ولكنه نائم..

إلى أن بلغت التاسعة عشرة من عمرى..

وكنت أستعد لامتحان شهادة التوجيهية، وسمح لى أبى أن أذاكر على مكتبه..

وعلى مكتب أبى «فتاحة ورق» على شكل خنجر.. مقبضه يملأ الكف، وسلاحه رفيع حاد..

ولاحظت أن الخنجر ينظر إلى..

كان ينظر إلى فعلا..

وكنت أشيح عنه وجهى، ولكنى لا أكاد ألتفت حتى أراه لا يزال ينظر إلى.. ويدعونى.. يدعونى إليه.. الخنجر..

وجذب الخنجر يدى نحوه.. وطوى أصابعى حول مقبضه.. ثم رفع ذراعى، وهوى بنفسه على خشبة المكتب..

ولا أستطيع أن أفك أصابعى من حول مقبضه.. كأنها التصقت به بمغناطيس.. وهذا الشيء بدأ يتحرك فى صدرى.. إنى أكاد أسمعه يتثاءب مستقيظًا من النوم.. وأكاد أراه داخل صدرى يمد ذراعيه ويتمطى..

وفجأة دخلت خادمتنا سنية إلى الغرفة.. وإذا بالخنجر يشدنى من فوق مقعدى، ويرفع ذراعى فى الهواء، ثم يهوى بنفسه على سنية..

ورأيتها..

رأيتها تحت أقدامي والدماء تنزف منها.. وسمعت ضحكًا.. لا أدرى هل أنا الذى ضحكت أم الخنجر..

ولكنه كان ضحكًا كالصراخ.

ولا أذكر شيئًا بعد ذلك..

وأفقت وأنا صريع الحمى.. وعلمت أن سنية لم يقتلها الخنجر.. فقد أصابها فى كتفها وفى رقبتها..

وربما عرف أبى أيامها أنى مجنون.. ولكنه أخفى جنونى.. أبت عليه كرامته، أن يعلن جنونى.. واستطاع أن يسوى الجريمة مع أهل سنية.. عالجها ودفع لها تعويضًا.. وكان يقول لمن سمع الخبر إنى كنت مرهق الأعصاب من أثر المذاكرة، وأن سنية أثارتنى، ولكن أمى صممت أن تدعو الشيخ إدريس ليطرد عنى العفاريت التى تركبنى..

وجاء الشيخ إدريس.. وقرأ أوراده فوق رأسى، وأحرق من حولى البخور، ثم اختلى فى إحدى حجرات البيت ليلة كاملة وهو عار من كل ثيابه.. بلبوص.. ليس معه إلا مبخرة، وصينية عشاء فاخرة..

وخرج الشيخ إدريس علينا فى الصباح – بعد أن ارتدى ثيابه – ليقول لنا إن الجن تطلب منى أن أذبح فى كل يوم فرخة.. أن أذبحها بيدى..

إن كلام الجن لا يخلو من المنطق.. إنهم يريدون أن يداوونى بالتى كانت هى الداء.. يريدون أن يشفونى من ذبح الناس بأن يعودونى ذبح الفراخ.. منطق..

ولكنه منطق فارغ..

إنهم لا يعلمون أنى لا أريد أن أذبح لا الناس ولا الفراخ.. أنا لا أريد أن أقتل.. السكين هى التى تريد أن تقتل.. البلطة هى التى تريد أن تقتل.. المسدس يريد أن يقتل.. الدبابة تريد أن تقتل.. القنبلة تريد أن تقتل.. الصاروخ يريد أن يقتل.. أما أنا فلا.. لا أريد أن أقتل.. صدقونى أننى لا أريد أن أقتل..

ولكن أمى الطيبة مقتنعة بكلام الشيخ إدريس، وتريدنى أن أذبح فى كل يوم فرخة..

يا أمى.. قليل من الذكاء.. لو أن ذبح الفراخ يعوض عن ذبح الناس، لكان معنى ذلك أن الحروب لا تقوم إلا لأن الناس لا تجد فراخًا تذبحها.. ولكن الحروب تقوم.. ويذبح الناس بعضهم بعضًا. ويذبحون أيضًا الفراخ والحمام والبط والخراف والجاموس.. والعصافير..

يا أمى يا طيبة.. لا تضعى فى يدى السكين. أتوسل إليك.. لا تضعى فى يدى السكين.. إن السكين التى تذبح الفرخة تذبح أيضًا الناس.. قد تذبح أبى.. أخى.. ابن عمى.. حتى أنت يا أمى، قد تذبحك السكين التى تذبح الفرخة..

إنها سلاح يا أمى..

والسلاح يطول.. كما يقول الناس.. السلاح يطول، حتى على صاحبه..

* * *

أنا الآن موظف..

ولا أحد يدرى بجنونى..

وفى كل صباح أنظر إلى الجندى الذى يقف على باب الوزراة ، وقد علق مسدسه على جانبه، نظرة إعجاب وتقدير.. بل تقديس..

إنه بطل..

بطل كبير..

لا لأنه يحمل سلاحًا..

ولكن لأنه لا يستعمل سلاحه..

إنه بطل لأنه يملك سلاحه، وليس سلاحه هو الذى يملكه..

وأنا خائف..

خائف دائمًا..

خائف على الناس.. من جنونى..

* * *

صائد الغزال..

ابنى محمود فى السابعة عشرة من عمره، وبرغم ذلك فهو زير نساء.. دون جوان.. فالنتنيو.. عمر الشريف.. وأراه كل يوم يقف أمام المرآة، يسبسب شعره.. ويستعرض عضلاته.. ويهندم ثيابه.. ويدق جرس التليفون، وأسمع صوت صبية صغيرة.. أقدر أكلم محمود من فضلك.. وينتفش صدرى كالديك الرومى فرحًا بابنى محمود.. وأرفع صوتى كأنى أسد يزأر، وأصيح به.. تليفون علشانك يا محمود.. ثم أقف لأسمعه يحادث البنت فى خيلاء.. إنه واد تقيل يحادث البنات كأنه ربهن الأعلى.. ولكن محمود لا يتركنى أتمتع بسماع حديثه طويلا، إنه يأخذ التليفون، ويختفى به فى غرفته، ويغلق الباب وراءه..

إنى فرح بمحمود..

فرحتى بشبابى..

أنا أيضًا كنت فى شبابى، زير نساء، .. دون جوان.. فالنتينو.. ولكن.. كانت مهمة الزير، أو الدون جوان أصعب على أيامى.. لم يكن عندنا تليفون.. ولم تكن البنات قد خرجن إلى المصانع والمكاتب والجامعات.. ولم تكن البنت تذهب إلى السينما وحدها.. أبدًا.. إن الدون جوانية هذه الأيام هواية سهلة، كقزقزة اللب..

أما علـى أيامنا فكانـت تتطلب ذكاء وصبـرًا، وحرفنة.. كان صيد البنت أصعب من صيد الأسد!!

وكنت في شـبابي أسـكن في حي الدراسـة.. وكانت لي ميزة كبيرة على جميع شـبان الحي.. فقد كنت سـاقط بكالويا.. مثقف يعني.. وكنت موظفًا في وزارة الأشـغال.. كاتب أرشيف.. وكنت أرتدي بدلة وطربوشًـا.. أفندي يعني.. ثم إني كنت وسيمًا، أنيقًا، فهلويًّا.. كنت أملا كبيرًا لكل بنت من بنات الحي.. ولكني لم أكن أصطاد في حينا.. عيب.. ما يصحش.. على أيامنا كان الشـاب يغار على بنـات الحي كلهن غيرته على أخته، وعلى أمه.. فلا يسـمح لنفسه بأن يتعرض لهن.. ولا يسمح لغريب.. الغريب الذي يتصدى لبنت من بنات الدراسة، وقعته سوداء..

كانت أماكن الصيد المفضلة عندي هي شارع الموسكي، والغورية وبين الصورين، ثم شارع الأزهر..

وكانت الجميلات على أيامنـا يختبئن في الملاءات اللف.. كل بنات هذه الأحياء كن يلبسـن الملاءة اللـف.. وكان هناك كثيرات مـن جميلات الأحياء الأخرى يفدن على الموسـكي والغورية وهن مرتديات الزي الإفرنجي.. الفستان.. والبالطو.. ولكني كنت دائمًا – وما زلت – أفضل الملاءة اللف.. الملاءة اللف لها طعم آخر.. إنها شيء كقشـرة الموزة المعسلة.. فيها رخاوة.. وفيها أنوثة.. أنوثة

ناعمة.. سـايحة.. وفيها إثارة الكنز المخبأ الثمين.. الملاءة اللف هـى المرأة.. المرأة بكل ما فيها من سـحر.. وروعة.. وغموض.. وأحلام.. إنها تلف القمر فى سواد الليل.. تلف النور فى الظلام.. يـا أرحم الراحمين.. أموت فى اللـف.. واللف يتعب.. وقد كنت أتعب كثيرًا.. كنت أمشـى وراء البنت سـاعات.. وأحيانًا أيامًا.. أدخل من دكان إلى دكان.. ومن شـارع إلى شارع.. ومن حارة إلى حـارة.. وعيناى الظامئتان لا ترتويان من الجسـد الملفوف الذى يتلوى أمامى.. والملاءة مشدودة حوله تبرز كل خط فيه.. والذراع البضـة تطل منها حينًا، وتختفى حينًا كأنها عمود من نور البرق يشـق كبد الليل.. والكعبان يرقصان فوق الشبشب المطرز كأنهما كعبا غزال.. رقيقان.. مشربان بالحمرة.. شيهان كقلب التفاحة.. يتاكلوا أكل.. يا باشـا.. يا أرض احفظـى ما عليكى.. يا خويا رد علينا.. يا جميـل ارحم.. وبعدين معاك يا واد يا تقيل.. و.. وكل كلمة من هذه الكلمات لها معنى خاص، وتوقيت خاص.. ومناسبة خاصة.. إنك لا تسـتطيع أن تلقى الـكلام هكذا جزافًا لمجرد أنك تحفظه أو لمجرد أنك وقـح.. لا.. إنك بذلك كأنك تطلق الرصاص فى الهواء، فيفر الغزال.. كل كلمة لها معنى، ولها مناسبة.. «يا باشـا» غير « يا جميل».. و.. «ارحم بأه» تقال فى مناسبة تختلف عـن «التقل صنعة».. والصياد الماهر هو الذى لا يطلق الرصاص إلا فى المليان..

وكانت كل رصاصاتى تصيب..

وكنــت أتلقى الجواب من حــركات الملاءة اللــف.. إن الملاءة اللف لها لغة خاصة.. ولها قاموس خاص.. يحتفظ به المتخصصون فى صيد الغزال من أمثالى.. علم واســع، يحتاج إلى دراسة وخبرة وصبر طويل..

هل تريد أن تعلم شيئًا من قاموس الملاءة اللف؟

اسمع يا سيدى..

إذا فــردت البنت ملاءتهــا بذراعها الأيمن ثــم عادت وضمتها حول جسدها.. فمعنى هذه الحركة.. حصلنى..

وإذا رفعت يدها وشــدت طرف الملاءة من فوق رأسها، فمعنى هذا.. كلامك على رأسى..

وإذا ضمت الملاءة على صدرها بكلتا ذراعيها وبحيث تخفى بها كل صدرها، فمعنى هذا.. أبويا ورايا..

وإذا رفعت يدها، وعدلت عروسة البرقع فوق أنفها، فمعنى هذا أنت فى عنيه..

وإذا طرقعت بكعب الشبشب أثناء سيرها.. فمعنى هذا.. وقعتك سودة..

و..

كل حركة، إشارة لها معنى..

إنه قاموس..

علم واسع..
والله أعلم..
ولـم يحـدث لى إطلاقًا أن طرقع كعب الشبشـب فى وجهى.. أبـدًا.. بعد كلمة أو كلمتين، تطلق على البنت سـهم عينيها، وما تـكاد تلمحنى حتى تفـرد ملاءتها بذراعها اليميـن.. وحصلنى.. بعـض البنات كن لا يحتملن كلمة والثانية.. وبعضهن كن يعذبننى وراءهن سـاعة وساعتين.. وأحيانًا يومًا ويومين.. والصبر يا جميل جميـل.. وينتهى صبـرى دائمًا بأن تفـرد البنت دائمًـا ملاءتها بذراعها اليمين.. وحصلنى..
وأحصلها..
تسـير فى شـارع الموسـكى وأنا وراءها، حتى نصل إلى ميدان العتبـة الخضراء.. وكان ميدان العتبة علـى أيامنا هو بر الأمان.. تسـتطيع فيـه البنت أن تتحرر من تحفظها بعيـدًا عن أعين تجار الموسـكى والغورية، وحماشـة أولاد البلد.. وتسمح لى بأن أسير بجانبهـا.. ونركب عربة حنطـور - أو تاكـس - إذا كنا فى أول الشـهر.. أو ندخل حديقـة الأزبكيـة.. وفى الجبلايـة أمان من العواذل، وعسـكرى البوليس.. ثم أنا وبختـى.. يا طلعت على ما قسـم، يا إما جميلة دمها خفيف وقرفتها خفيفة وبحبوحة.. لقد وقعـت لى قطع فى منتهى الجمـال.. غزلان يا بنى.. غزلان.. وأنا الصياد.. صياد الغزال..

إلى أن وقعت فى قسمتى، نفيسة..

شى لله يا ست..

اللهم اجعل كلامى خفيف عليها..

رأيتها أول مرة فى شارع الموسكى أيضًا.. قوامها صغير زى اللعبة.. والملاءة اللف تلتف حولها كأنها ستأكلها أكلا.. وجسدها مشفى من غير عضم.. ومشيتها.. يا أرض احفظى ما عليكى.. كأن كل قطعة منها تمشى وحدها.. صدرها يسبقها.. وعجزها يجرى خلفها.. وعندما لمحت عينيها تطلان من فوق البرقع خيل إلى أنى أصبت.. إيه ده يا جدعان.. دول مش عنين دول.. دول نجوم.. دول دنيا.. عالم.. تهت فى عنيها يا رجاله.. خدنى وراكى يا ست قبل ما اتوه..

ومشيت وراءها..

وأطلقت أول رصاصاتى.. هدى الخطوة يا جميل.. ثم رصاصة أخرى.. وبعدين معاك بأه، تعبنا.. ورصاصة ثالثة.. ورابعة..

ولا حركة..

ولا إشارة..

مشيت وراءها شارع الموسكى كله إلى أن وصلت إلى ميدان الحسين، ثم انحرفت إلى الباب الأخضر.. واضطررت أن أقف.. فالمنطقة التى تقع فيما وراء الباب الأخضر لا تصلح للصيد.. إنها منطقة تحتلها شلة من الفتوات، مرهوبى الجانب..

وعدت يائسًا..

ولكنى فى اليوم التالى لمحتها.. نفيسة.. فى شارع الموسكى.. فى نفس الموعد.. رب صدفة خير من ميعاد.. ومشيت وراءها.. برضه كده يا جميل.. همَّا علموك التقل ده فين.. أموت يعنى ولا أموت.. يا واد بحبحها شويه..

ولا حركة..

ولا إشارة..

إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر..

وعدت وأنا مصدوم..

وفى اليوم الثالث..

يا خويا ارحم بأه.. والله ما بنام الليل.. و..

ولا حركة.. ولا إشارة.. إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر.. الباب الأسود.. الباب المهبب.. وعدت وأنا أشعر بأنى أهنت.. بأه بت مفعوصة زى دى تغلبك الغلب ده كله.. عيب عليك يا حسنى، يا صياد الغزال..

واليوم الرابع..

والخامس..

أسبوعين.. ثلاثة.. وقد أصبحت المسألة خطيرة.. البت جننتنى بجد.. ما بنامش واللى خلقك..

ثم كان يوم..

ومرت نفيسة.. تأخرت يومها قليلا.. ومشيت وراءها وأنا أشعر بأني قد فقدت الثقة في نفسي.. صوتي ضعيف منهك.. وعيناي الوقحتان ماتت فيهما الوقاحة.. وأمشي كأني منساق وراء قدري.. اتأخرت ليه النهارة يا جميل.. يا جميل يا أبو قلب قاسي.. ارحم يا سيد الراحمين.. ولا يعني أموت..

وفجأة..

فردت نفيسة ملاءتها بذراعها اليمين وعادت وضمتها..

جاءت الإشارة..

حصلني..

أحصلك لآخر الدنيا يا دنيا.. يا ترى آخرة الصبر ده كله إيه..

ورفعت نفيسة يدها ولمست عروسة البرقع..

إشارة أخرى معناها: «أنت في عنيه»..

تسلم عنيكي يا ست الكل.. يا أحلى من الفل.. دوختني يا بتاع الدوخة أنت.. قوللي على فين وأنا وراك..

وعادت تفرد ملاءتها بذراعها اليمين..

حصلني..

ما تخفش يا حتّه من جوّه.. محصلك..

ولم تتجه نفيسة إلى الباب الأخضر.. دخلت من الموسكي إلى النحاسين.. ثم انحرفت إلى بيت القاضي.. وبين كل خطوة وأخرى تعطيني إشارة.. حصلني.. يا خويا محصلك.. بس على فين..

وخيالى يسبقنى.. ربما أخذتنى إلى بيت صديقة من صديقتها.. ربما كانت تعرف امرأة عجوزا تستطيع أن تأوينا ساعة شهد.. ساعة حظ.. آه يا نفيسة.. ده أنا حاكلك أكل..

تخرج من حارة وتدخل حارة.. وعيناى مركزتان على ظهرها.. وكعبى قدميها.. وكل ثنية من جسدها.. والنار تشتعل فى عروقى.. عقلى فى النار.. قلبى فى النار.. نار وقايدة يا جميل.. خلصنا بأه..

وفجأة..

وأمام دكان بقال..

استدارت نفيسة إلىّ، وألقت بملاءتها من فوق رأسها ثم قذفت بفردة الشبشب من قدمها، والتقطتها بيدها من الهواء.. ثم هجمت علىّ.. وهى تصرخ.. يا افندى يا عرّه.. يا إبره مصديه، يا ماسح، يا ماسخ.. يا.. وانهالت علىّ ضربا بالشبشب.. وخرج البقال من دكانه.. وانشقت الأرض وانطلق منها عشرات.. كبار وصغار.. كلهم يضربوننى.. وصوت نفيسة، أعلى من صوتهم.. وشبشبها يحكم التصويب على رأسى خيرا من صفعاتهم ولكماتهم.. ولم أصرخ.. عيب يا حسنى.. ماتشمتش فيك العيال..ووقفت أتلقى شبشب نفيسة ولكمات أهل حتتها، وعيناى مركزتان على وجهها.. إنها جميلة.. حتى وهى تردح.. جميلة بنت الإيه.. جميلة ولو أنها راجل.. وصدمت نفيسه بهدوئى.. وقوة احتمالى.. والتقت عيناها بنظرتى الثابتة التى تأكل وجهها.. وأحسست أنها بدأت تلهث..

وتقاوم شـيئا فى داخلها.. أحسسـت أنها تعود أنثـى.. بنتا.. ثم سـمعت صوتها وهى تفتعـل الحزم والمجدعة.. وتشـخط فى أهل حتتها:

– بس يا دوكشـه.. بس يا واد أنت وهـوَّه.. كفايه يا حماده.. وكف الضرب عنى..

ونظرت إلى وهى تلهث كأنها تبذل مجهودا عنيفا لتحتفظ بقوة شخصيتها قبل أن تذوب أمامى:

– إنت عايز إيه منى يا جدع انت. بقالك شهر داير ورايا.. عايز أيه.. ما تتكلم..

وقلت فى هدوء..وأنا أبتسـم لها ابتسامة ساخرة،أسخر بها من «مجدعتها».. خليك صياد يا حسنى إوعى تنخ.. وقلت كلمة واحدة:

– عايزك..

تعجبنى ياواد يا جامد..

وقالت نفيسة فى غيظ:

– شوف الراجل وبجاحته عايزنى يعنى أيه ياجدع انت..

قلت:

– عايزك وخلاص..

قالت:

– اللى عايزنى يتجوزنى على سنة الله ورسوله..

قلت:

- وماله.. نتجوز..
ونظرت إلى كأنها لا تصدقنى، قالت:
- تلاقيك بتتجوز كل يوم واحده..
قلت:
- أبدا وحياة شبشبك..ده بس علشان خاطرك يا جميل..
وقالت فى حدة:
- طيب اتفضل اتجوزنى..آدى أبويا، وآدى أخويا..
وشدت البقال من بين الزحام.. أبوها.. وأشارت إلى حمادة أخوها..
وقلت:
- وفين أمك؟..
ورفعت حاجبها الأيسر، وقالت كأنها تسخر منى.
- تعيش انت..
قلت:
- عرفت تخلف.. الله يرحمها..
ثم التفت إلى أبيها وإلى أخيها، وقلت:
- تحبوا نكتب دلوقتى.. ولا نجيب امى الأول.
وقالت وهى ترفع حاجبها الآخر وتلم ملاءتها حول جسدها:
- لا.. روح هات امك.. ياروح امك..
قلت:

- بيجى معايا حمادة.. رهن.. أحسن أرجع ملقكيش..
وقالت وهى تبدو مسيطرة على الحارة كلها:
- روح معاه يا حماده.. ليتجوز فى السكه..
قلت كأنى أصبحت زوجها فعلا:
- إعملى لى كباية شاى على بال ما نرجع.. أنا احب الشاى تقيل..
وهممت أن أنصرف، فصاحت بى:
- تعالى هنا يا فندى.. ما ترجعش لامك بالشكل ده..
وجذبتنى إلى دكان أبيها البقال، وأمسكت بفوطة بللتها بالماء، وأخذت تمسح وجهى من أثر الكدمات، وهمست:
- واسم حضرتك أيه بأه؟
قلت:
- حسنى.. حسنى عبد العاطى..
قالت:
- ويا ترى بتشتغل شغله تانيه.. ولا بس معكساتى..
وضحكت قائل:
- موظف فى وزارة الأشغال.. ماهيتى تمانيه جنيه وكسور..
وعدت أملأ عينى من وجهها.. جميلة بنت الأيه.. وأنا صياد.. صياد الغزال.. لا تستطيع غزالة أن تفرمنى..
وتزوجت نفيسة..

ومـن يوم أن تزوجتها إلى اليوم وأنا أخاف من شبشـبها.. وقد أقلعت عن صيد الغزال.. غزالتى تسـاوى كل ما فى شارع الموسكى من غزال.. وتفرغت لمستقبلى.. درست من جديد، ونلت البكالوريا ودرسـت الحقوق وأنا موظف فى الأشغال، ونلت الليسانس.. وأنا الآن محامى.. ونسـكن فى العباسـية.. وعندنا تليفون وتلفزيون.. وسيارة نصر.. ومحمود.. نفيسة هى أم محمود..

وأنا لا أخاف على محمود لأنه دون جوان..

سيجد حتما الفتاة التى تضربه بالشبشب..

* * *

القضية الأخيرة..

كانـت هوايتـى منذ كنـت طالبا فـى المدرسـة الثانوية، هى الخطابـة، وكتابـة البحوث الاجتماعية.. والـذى يهوى الخطابة نـادرا ما يهوى كتابـة البحوث.. فالخطابـة مواجهة الجماهير، وكتابة البحـث تتطلب العزلة عند الجماهيـر.. والخطابة هى أن تصع عقلك على طرف لسـانك، والبحث يتطلب أن تضع عقلك على طرف قلمك.. الخطابة تعتمد غالبا على إثارة العواطف.. على إقناع العاطفة.. وكتابة البحث تعتمد دائما على إقناع العقل..

هوايتان متنافرتان، وبرغم ذلك فقد جمعت بينهما.. وكنت وأنا طالب فى المدرسة لا تفوتنى مناسبة سواء كانت وطنية أو اجتماعية إلا وأقف فيها خطيبـا بين زملائى.. وفى لحظات أملك عواطفهم، وأهزها هزًّا عنيفا.. أبكيهم على زميل توفى.. أو أحمسهم للخروج فى مظاهرة.. أو ألهب أكفهم بالتصفيق لفريق كرة القدم عندما نقيم لـه حفلة تكريم فى مناسـبة فوزه.. وفى الوقت نفسـه كان لى فى كل أسـبوع بحث مكتوب عن إصلاح نظم المدرسة.. أو عن التنشيط الاجتماعى.. أو.. أو.. بحوث أقدمها لناظر المدرسـة أو للأسـاتذة المشرفين، فتلقى اهتمامهم وإعجابهم..

وقادتنى هوايتى إلى كلية الحقوق..

ولـم أكن أحلم بأن أكون وزيرا، أو زعيمـا، كما كان يحلم بقية طلبـة الحقوق فى عهد ما قبل الثـورة.. أبداً.. كل ما كنت أحلم به هـو أن أكون محاميـا.. محاميا كبيرا.. أخطـب.. وأكتب البحوث القانونية والاجتماعية والسياسية..

وتفوقت فى كلية الحقوق.. وتفوقت فى هوايتى.. وأصبحت جميع الهيئات السياسية والاجتماعية داخل الكلية، وخارجها، تدعونى إلـى الخطابة فى اجتماعاتها، وإلى إعداد البحوث عن نشـاطها.. ولـم أكن منتميا إلى واحدة من هـذه الجمعيات، ولا إلى حزب من الأحـزاب.. أبدا.. كان كل ما أحرص عليـه هو أن أقتنع بالموضوع الذى أخطب فيه، أو الذى أعد بحثى عنه.. سواء كان هذا الموضوع يهم الوفديين أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين.. أو.. أو.. المهم عـو عدالة القضية التى أدافع عنها.. وقد كنت حريصا فعلا على ألا أتكلم إلا فى القضايا العادلة.. وبلغ منى الحرص إلى حد أن العدالة أصبحـت تعرف بى.. فإذا أعلن أنى سـأخطب فـى اجتماع ما آمن الناس كلهم بأن القضية التى سـتبحث فى هذا الاجتماع، عادلة.. وفشـلت كل الوسـائل التى تعرضت لها كى أشـترك فى الدفاع عن قضايا لا أومن بعدالتها.. فشل التهديد، والإغراء.. وفشل التشهير والنفـاق.. وبقيت صلبـا قويًا، فخورا بصلابتـى وقوتى، ومكانتى التى اكتسبتها بين طلبة وأساتذة الكلية.

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق.. طبعت بطاقة تحمل اسمي.. «محمود عباس» ثم «المحامي»..

كنت واثقا من حصولي على الليسانس.. ونلته فعلا عام ١٩٤٣م بمجموع ٨٥ في المائة.. والتحقت بمكتب الأستاذ عبد التواب عبد الحي، محاميا تحت التمرين.. وذهل الأستاذ عبد التواب.. ذهل من المذكرات القانونية التي أعدها، ومن الأسلوب الجديد الذي أتبعه في المرافعة أمام المحكمة.. أسلوب هادئ.. رنان.. يتسلل إلى قلب القاضي، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السهل على أن أكسب العقل.. وأكسب القضية..

ولكني كنت مصرًّا على ألا أقبل الترافع في أي قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها.. قضايا كثيرة من التي ترد على مكتب الأستاذ عبد التواب، كنت أرفض المساهمة فيها، لا لشيء إلا لأني غير مقتنع بعدالة موقف الموكل.. وكنت أصارح الأستاذ عبد التواب، برأيي هذا، فلم يكن يغضب، بل ازداد تقديره لي، واحترامه لشخصيتي، إلى حد أنه بعد عام واحد من اشتغالي في مكتبه، قرر لي مرتبا عشرة جنيهات في الشهر.. برغم أن المحامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب..

وبرغم ذلك..

وبرغم هوايتي.. وبرغم كل هذا النجاح الكبير.. وبرغم حلم العمر.. هجرت المحاماة قبل أن أتم فترة التمرين.. ذبحت

هوايتى.. دفنت نجاحى.. مزقت حلم العمر.. وضحيت بالجنيهات العشــرة.. كانت هذه الجنيهات العشرة تعنى شيئا كبيرا بالنسبة لــى.. فقد كان والدى يعطينى حتى ذلك الحين ثمانيـة جنيهات فى الشــهر إلى أن أستطيع أن أعول نفسى.. وكانت أمى قد ادخرت لى مائة جنية لتدفعها مهــرا لى عندما أتزوج ابنة عمى.. إنى أحب ابنـة عمى.. ومنذ قبضت العشــرة جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الــذى أنفقها فيه مع ابنـة عمى بعد أن نتزوج.. ولكنى ضحيت بالعشرة جنيهات أيضا..

ماذا حدث..

حدث أن جاءنى فى بيتى الأسطى محمد أحمد محمود المكوجى، الذى يقع دكانه تحت بيتنا مباشرة.. وأبلغنى أنه قبض على ابن عمه عبد المجيد علوان، متهما بســرقة مجموعة من ولاعات السجائر.. مــن المحل التجارى الذى يعمل فيه.. وأقســم لى أن علوان مظلوم، وأنه ضحية اضطهاد رئيسه الذى كان يطلب منه أن يذهب إلى بيته لينظفه ولأن علوان كان يرفض، فقد دبر له الرئيس هذه التهمة..

- علوان ابن عمى فقير.. ماحلتوش حاجه.. وبيجرى ورا ســبع عيال.. غير.. أمه.. ومظلوم والله..

ولا أدرى لماذا تحمست فورا لهذه القضية..

ربما لأنها أول قضية تأتى إلى مباشــرة، وباسمى، لا عن طريق مكتب الأستاذ عبد التواب.

وربمـا لأنى أردت أن أثبـت لأهل الحى أنى أقـف بجانبهم، والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذا..

وربما لأنى أصبـت بنوبة من العطف المفاجئ على عبد المجيد علوان وأولاده السبعة..

ورفضت أن أناقش الأسـطى محمد أحمـد محمود فى الأتعاب.. وذهبت إلى الأسـتاذ عبد التواب المحامى واستأذنته فى أن أتولى القضية بنفسى ولحسـابى، فقد كان يجب أن استأذنه لأنى مازلت تحت التمرين.. وسمح لى الأستاذ عبد التواب.. بل قال لى:

- اعتبر نفسـك صاحـب هذا المكتـب.. كل إمكانيات المكتب تحت أمرك..

وشكرته..

وأسـرعت إلى النيابة ونسخت محضر التحقيق بنفسى. فإنى لم أرد أن أشـغل كتبة المكتب فى نسـخه، مادام المكتب لن يستفيد شيئا فى هذه القضية..

وقرأت التحقيق بإمعان..

إن السـرقة كبيرة.. مائة ولاعة ماركة رونسـون.. ثمن الولاعة الواحدة يصل إلى خمسـة جنيهات.. أى أن قيمة المسروقات تصل إلى خمسمائة جنيه.

والاتهام قوى..

لقد عثـروا علـى ولاعتين من الولاعـات المسـروقة فى منزل عبد المجيد علوان..

وذهبت لزيارة المتهم فى السجن، وقلت له:

- اسـمع يا علوان.. قولّى الحقيقه علشـان اقـدر اخدمك.. كل الحقيقة..

وأقسـم علوان أنه لم يسرق.. وأقسم أن رئيسه يضطهده وأنه هو الذى سـرق الولاعات ودس اثنين منها فـى بيته حتى يثبت عليه التهمة..

وأفاض علوان فى التفاصيل..

كلها تفصيل معقولة..

وعلـوان رجل عجـوز، تبدو الطيبـة على وجهه.. والشـقاء.. والفقر.. وإرهاق العمر الطويل..

وتأثرت..

تأثرت جدًّا..

وانتهى علوان من كلامه، ثم قال:

- أقول إيه كمان يا أستاذ.. دلنى!

ولم تعجبنى هذه الكلمة.. لم اسـترح لها.. ماذا يعنى.. ربما لم أفهمه تماما.. لا يهم.. وتبخر قلقى بسرعة وقلت لعلوان:

- إطّمن.. براءة بإذن الله..

وانهمكت فى القضية..

كل وقتى..

كل عقلى..

ولا أريد أن أروى التفاصيل.. ولكنى استطعت بعد جهاد عنيف أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيها..

ولم يكن مع علوان هذه الخمسون جنيها..

وقريبه الأسطى محمد أحمد محمود، لم يستطع أن يدفع أكثر من خمسة جنيهات، فذهبت إلى أمى وأقنعتها بأن تعطينى خمسين جنيها من مهر ابنة عمي.. على أن أردها بعد أن يحكم ببراءة المتهم.. إنى واثق من أنى سأحصل له على البراءة.. ورفضت أمي.. وألححت.. لأول مرة أختلف أنا وأمي.. وتماديت فى الإلحاح محاولا إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلى كمحام.. وأخيرا خضعت أمي بلا اقتناع وأعطتنى الخمسين جنيها، دفعتها فى خزينة المحكمة ليفرج عن علوان.. وأفرج عنه..

وقال لى علوان يومها وفى عينيه لمعة غريبة، خيل إلى برهة أنها لمعة خبث..

– كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ.. الصبر طيب!!!

ورفض صاحب العمل أن يعيد علوان إلى عمله، فأعطيته خمسة جنيهات قرضا إلى أن يستطيع أن يجد عملا آخر.. وأعطيته خمسة جنيهات أخرى.. وخمسة جنيهات ثالثة.. لقد ذهبت إلى بيته ورأيت ما فيه من فقر.. رأيت أولاده السبعة حفاة.. عراة.. تطمس

القــذارة وجوههم.. ولم أكن أســتطيع أن أتركــه دون أن أمد له يد العون.. إنه مظلوم.. إنى واثق أنه مظلوم..

وعاد علوان يردد:

- كله يترد لك يا أستاذ.. الصبر طيب..

ولم أفهم ما يعنيه..

وحماسى لا يفتر..

بل إنى كدت أتشـاجر مع القاضى مرة لأنــه أراد التأجيل.. إن حالة علوان لا تحتمل التأجيل.. إنه لا يسـتطيع أن يعمل والاتهام معلق فوق عنقه.. وأولاده جياع..

وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب.. إنهم يدرســون القضية معى.. ويدلون بآرائهم.. والكتبة يسـاعودننى.. صحيــح أنى أعطيت واحدا منهم جنيهين.. والثانى جنيها، عندما كلفتهــم بمهمات تتعلق بالقضية.. ولكنهم كانوا متحمســين.. بل إنى نقلت الحماس إلى المحكمة كلها.. أصبحت أعرف هناك باسم «محامى علوان» ! !

وبعد ستة أشهر..

حكمت المحكمة..

براءة..

لم يكن الأمر ســهلا.. أبدا لم يكن سهلا أن أدحض أدلة الاتهام القوية، ولقد هنأنى الأستاذ عبد التواب على هذا الحكم.. وزملائى.. واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى.

وبعد أيام..

جاءنـــى علوان فى بيتى، وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة، وقال لى بعد أن كرر شكره لى:

- أنا راجل حقانى يا أســتاذ.. وانت عملــت كتير.. جميلك ما مَيتنسيش.. ودول ميت ولاعه.. يبقى لك منهم خمسين..

ثم فتح اللفافة التى فى يده.. ولمعت أمام عينى الولاعات..

الولاعات المسروقة..

وصرخت:

- إيه دول يا علوان..

وقال علوان ضاحكا:

- دول الولاعــات إياهم.. كنــت مخبيهم عند مراتى الجديده.. والحقيقــة أنا كان نفســى ابيعهــم بمعرفتى واجيب لــك تمنهم.. إنما السوق واقف.. وأحســن الواحد يتقل.. قلت اجيب لك نصيبك تتصرف فيه بنفسك..

ولم أرد..

بدأت أشعر بدوار..

وقال علوان:

- ودى فوق البيعه.. إحنا لنا بركه إلا انت يا أستاذ..

ووضع أمامى قطعة حشيش..

وصرخت:

- شيل الحاجات دى من قدامى.. شيلهم بقولك.. شيلهم احسن اوديك فى داهيه..

وارتفعت نظرة غبية مذهولة فى عينى علوان.. وقال:

- جرى إيه يا أستاذ.. ما هو متبقاش طماع.. كفايه كده قوى..

وعدت أصرخ:

- أخرج بره.. أخرج بره..

وجمع علوان الولاعات، وأعاد قطعة الحشيش إلى جيبه، واختفى من أمامى..

وسقطت فى هاوية الصمت..

لا أريد أن أتكلم..

لا أريد أن أرى أحدا.. ولا أمى.. ولا خطيبتى.

وألم ساحق يفرى صدرى.. ولم أكن أتألم لأنى وقفت بجانب مجرم وبرأته.. بل لأن علوان كان طول هذه الشهور، يعتقد أنى أعرف أنه سارق الولاعات، وأنى كنت أدافع عنه لأطالبه بنصيبى فى المسروق..

وأفقت من نوبة الصمت..

وعدت إلى المكتب..

وحاولت أن أبدأ من جديد.. ولكنى لم أستطع.. لقد فقدت ثقتى فى نفسى.. وثقتى فى الناس.. لم أعد أصدق أحدا.. ولا كلمة.. ولا حتى الأستاذ عبد التواب نفسه..

وهجرت المحاماة..

إنى الآن موظف فى شركة.. موظف صغير..

وعيبى أنى لا أصدق أحدا.. وهو عيب أبعدنى عن الناس.. ولكنه يحمينى منهم..

إنى أخاف من الناس..

أخاف..

ولم أتزوج ابنة عمى.. لأنى أخاف..

* * *

الحب والعدالة

يا حضرة القاضى..

أرجـوك.. دعنـى أتكلم.. إنى لا أسـتطيع أن أحتمـل كل هذا الـكلام الذى يقال هنا.. سـواء الـكلام الذى يقولـه الدفاع أو كلام ممثـل النيابة.. إنهم يتكلمون على أسـاس أنى ارتكبت جريمة.. وكان يجب أن يسـألوا أنفسـهم أولا.. هل هناك جريمة؟.. أين هى الجريمة يا سـيادة القاضى.. إن الجريمة تعنى الاعتداء.. فأين هو الاعتـداء.. من هو الضحية فى هذه القضية.. من هو المعتدى عليه.. من الذى أصابه أذى منى.. إن السيد ممثل النيابة يقول إنى اعتديت على النظام العام.. وصدقنى، يا سيادة القاضى، أنى لا أدرى ما هو هذا النظام العام.. ولم يسـبق لى أن تشرفت بمعرفته.. ولكن كل ما أعرفه أن أى اعتداء يجب أن يكون له دافع وهدف.. فما هو الدافع الذى يمكن أن يقودنى إلى الجريمة.. وما هو الهدف الذى يمكن أن أصل إليه من وراء هذه الجريمة.. السـيد وكيـل النيابة يقول إنى ارتكبت تزويرًا فى أوراق رسمية.. ماذا اسـتفدت من هذا التزوير إن كان حقيقة أنى وزورت.. ما هى حاجتى إلى هذا التزوير..

لا يا حضرة القاضى.. أرجوك.. أتوسـل إليـك.. لا تمنعنى من الكلام.. إنى لا اسـتطيع أن أسـكت.. ولا أسـتطيع أن أنتظر حتى

يأتــى دورى فى الكلام.. بــل لا أطيق أن أسمــع كل هذه النصوص القانونية تنطلق إلى أذنى كالصواريخ.. نح القانون جانبًا.. دعك من القانون الآن يا سيادة القاضى.. واستمع إلَى كإنسان.. إنك لم تجلس على منصة القضاء إلا لأنك إنســان كبير.. الإنسان فيك هو الأصل لا القاضى.. الإنسان فيك أكبر من القاضى.. وأنا أخاطب فيك الإنسان، وأترك مهمة مخاطبة القاضى للأستاذ المحامى الذى يترافع عنى.

شكرًا يا سيادة القاضى على سعة صدرك.. إنى عاجز عن الشكر.. والآن..

لماذا أنا هنا فى ساحة عدالتكم..

إنى هنا لأنى أحببت هــدى، زميلتى فى العمل.. لا أدرى متى أحببتهــا.. ربما منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بالعمل وعينت كاتبة على الآلة الكاتبة فى قسم الحسابات.. لقد رفعت عينى إليها وخيل إلى ســاعتها أنى لن أستطيع أبدًا أن أرخى عينى عنها.. إنها جميلة يا سيادة القاضى.. رقيقة.. هادئة.. ولكنها ليست ضعيفة.. إنها شخصية ثابتة حلوة.. وابتسمت لها.. ربما كانت أول ابتسامة أحــس بها تملأ قلبــى.. وتعيش فيه.. إن نفس هذه الابتســامة لا تزال فى قلبى حتى اليوم.. حتى هذه اللحظة.. إنى أبتســم الآن يا سيادة القاضى أبتسم لها.. لهدى..

وهــى أيضًا، ربما أحبتنى منــذ اليوم الأول.. فقــد بدأ كل منا يقــترب من الآخر فى خطى ســريعة طبيعيــة، لا افتعال فيها ولا

تعمد.. قوى أكبر منا تشـد أحدنا للآخـر.. إلى أن تنبهنا فجأة إلى أنه الحب.

وبدأنا نقاوم..

نقاوم الحب..

لقد أشفق كل منا على الآخر من حبه.. خفت عليها من حبها.. وخافـت علىّ مـن حبى.. فقد كان كل منا يعلـم مدى العذاب الذى ينتظـر الآخر.. كل منا يرى الصخرة الهائلة التى يمكن أن يتحطم عليها حبنا فى آخر الطريق..

فأنا مسيحى.. مسيحى صريح.. اسمى لويس إسكندر منقريوس..

وهى، هدى عبد الفتاح.. مسلمة..

وأقسـم لك يا سيادة القاضى أننا قاومنا كثيرًا.. أكثر مما يحتمل أى إنسـان يحـب.. قاومنا إلى حـد أن قررنا أن يبتعـد أحدنا عن الآخـر.. لم نعد نلتقى.. بل لم نعد نتبادل الكلام، ولا حتى تحية الصباح.. كانت تدخل إلى المكتب فلا تقول لى صباح الخير.. وأخرج فلا أقول لها سـعيدة.. ووصل الأمر إلى حد أنى طلبت نقلى من قسم الحسـابات.. وفى نفس اليوم طلبت هى أيضًـا نقلها.. وصدر قرار بنقلى أنا إلى قسم المشتريات.

واستمرت هذه القطيعة ستة أشهر.. ستة أشهر يا سيادة القاضى والحب فى قلبينا.. فى رأسـينا.. فى أعيننا.. فـى أعصابنا.. وأنا أذبل.. وهى تذبل.. نكاد نموت يا سيادة القاضى..

لا يـا سـيادة القاضى.. إنـى لا أبالغ.. ولا أتكلـم كلامًا عاطفيًا منمقًـا.. أبدًا.. إن العاطفة هى واقع.. هى جسـم الجريمة فى هذه القضية إذا أرادت النيابة أن تسـميها جريمة.. ولم نكن نسـتطيع أن نعيش بعيـدًا عن واقعنا.. أعنى بعيدًا عن عواطفنا.. عن حبنا.. فقررنا أن نستسلم.. وعدنا.. عدنا إلى الحب.. إلى دنيانا.. إلى الهواء الذى نستمد منه حياتنا..

لا تنس يا سيادة القاضى أننا قاومنا.. وأننا قاومنا إلى هذا الحد.. لماذا قاومنا؟ لأننا كنا معترفين بالتقاليد التى تحكم مجتمعنا.. لأننا لم نكن نريد أن نتحدى المجتمع.. ولا أن نتحدى شريعة كل منا.. كنا نحترم الشـرائع.. ونحترم المجتمع.. ونحترم أهلى وأهلها.. وكان يمكـن أن نرتاح لو أننا اسـتطعنا أن نسـتمر فـى المقاومة.. ولكننا لم نسـتطع.. لأن حبنا كان أقوى مـن أهلى وأهلها.. وأقوى من المجتمع.. وهو ليس أقوى من الشـريعة.. ولكن الشريعة.. كل الشـرائع.. هى شـرائع حب.. الله هو الحب.. وقد كان حبنا نظيفًا نقيًا بحيث نفخر بأن ننسبه إلى الله.. الله.. الله الواحد.. إله المسلمين والمسيحيين.. مهما تعددت شرائعه..

ماذا نفعل بهذا الحب يا سيادة القاضى..

كان أمامنا طريقان..

إما أن نبقيه سرًّا، خوفًا من الناس ومن الأهل، إلى أن ينقلب إلى خطيئة، لا نرضاها لحبنا..

وإما أن نعلنه للناس.. ونسير به في الطريق الذى رسم للحب منذ بدء الخليقة.. أن تكون لى وأكون لها.. أى أن نتزوج..

ولكن نتزوج، يجب أن يبدل أحدنا دينه..

إما أن أعلن إسلامي..

وإما أن تتنصر هدى.. تعلن اعتناقها للدين المسيحى..

واسمح لى يا سيادة القاضى أن أتكلم بصراحة أكثر.. وأنا واثق أن سعة صدرك، وسمو تفكيرك ومشاعرك، يمكن أن تفسح لى مجال الصراحة.

لقد كنا نعتقد أن تغيير أحد منا لدينه، ما هو إلا مجرد إجراء شكلى مضطرين إليه، ولن يؤثر على معتقدات أحد منا.. سواء أسلمت أنا، أو تنصرت هى.. فسيبقى كل منا محتفظًا بحقيقة مشاعره ومعتقداته.. المشاعر والمعتقدات التى تعيش فى قرارة صدره، والتى تنظم صلته بالله، ولا يملكها أحد إلا هو، ولا يحاسبه عليها أحد إلا الله..

كان هذا هو تفكيرنا فى مبدأ الأمر..

ولكننا عندما تعمقنا أكثر اكتشفنا أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه السهولة..

فتغيير أحدنا دينه سيسبب جرحًا لأهله، ولقومه.. أمى وأمها.. وأبى وأبوها.. وإخوتى وإخوتها.. أى فريق نعرضه للصدمة.. أى فريق نضحى به.. واحد منا يجب أن يضحى بأهله

وبقومه.. التضحية بهم بمعنى جرح شعورهم وتعرضهم للصدمة.. ثم هناك تضحيـــة أخرى.. تضحية ذاتية.. فلا شــك أن واحدًا منا ســيضحى بجزء من معتقداته.. أو على الأقل سيضحى بمظهر هذه المعتقدات.. بالأشياء الصغيرة التى تربينا عليها.. بالتقاليد والبدع التـــى أصبحـــت.. إلى حد ما جـــزءًا من حياتنا.. ولا شــك أن حبنا يحتمـــل هذه التضحية.. ولكن لا شــك أيضًـــا أن التضحية تؤثر فى الشــخصية.. واحد منا ســيتنازل عن قطعة من شخصيته.. ستهتز شخصيتة.. وقد يصاحبه أثر اهتزاز الشخصية طول حياته..

فمن منا يقدم على هذه التضحية..

أنا..

أو هى..

وصدقنى أننا ناقشنا هذا الموضوع بصراحة، وبساطة، وحلاوة.. كان حبنا - ولا يـــزال - يحتمل مواجهة الواقع.. ليس فقط الواقع المادى.. بل الواقع النفســـى.. واقع أحاسيســـنا النفسية.. لم يحاول أحد منا أن ينافق الآخر.. أو يتظاهر بالاندفاع فى ســـبيل حبه أكثر من الآخر..

وكنت مستعدًا أن أقبل التضحية..

وكانت هى أيضًا مستعدة أن تقبل التضحية..

أنا مستعد أن أعلن إسلامى..

وهى مستعدة أن تعتنق المسيحية..

وضحكنــا معًا، وكل منــا يحاول أن يعفى الآخــر من التضحية ويحتملها عنه..

أتــدرى يــا ســيادة القاضــى.. لقــد ســبق أن قرأنــا قصــة لإحســان عبد القدوس، اسمهــا «الله محبــة» تــدور حول مشــكلة كمشــكلتنا، وقد وصــل البطل والبطلة فى القصــة إلى حل غريب.. أجريا «طس» بينهما.. أمسكا بقطعة نقود، واختار كل منهما وجهًا مــن وجهيها.. ثم قذفا بها فى الهواء.. والوجه الذى تســقط عليه قطعة النقود يغير صاحبه دينه..

وربما كانت القصة مجرد خيال انطلق فى رأس الكاتب.. ولكننا فكرنــا فى أن ننفذ هذا الخيال.. ثم أبته عقولنا.. لم نقتنع به.. إن دين كل منا لا يمكن أن نعلقه فى قطعة من ذات الخمسة القروش.. ولا يمكن أن نتركه لعجلة الحظ.. إنما يجب أن نصل إلى حل نقتنع به بعقولنا.. فإننا إذا اقتنعنا احتفظنا بسلامة شخصياتنا.. الاقتناع وحده هو الذى يحفظ قوة الشخصية..

وعدنا نفكر..

فكرنا كثيرًا يا سيادة القاضى.. كثيرًا جدًا..

وانتهينا إلى الحل الذى تسميه النيابة جريمة..

لقد تزوجنا مرتين..

مرة كمسلمين..

ومرة كمسيحيين..

ذهبت وأعلنت إسلامى.. ثم تزوجتها أمام المأذون..

ثم.. بعد ذلك.. ذهبت هدى واعتنقت المسيحية، وتزوجتنى مرة ثانية فى الكنيسة..

فأين الجريمة هنا يا سيادة القاضى..

هل جريمة أن يحب أحدنا الآخر إلى هذا الحد..

لنفرض أن اثنين من دين واحد، خطر لهما أن يتزوجا مرتين تأكيدًا لحبهما.. لنفرض أن رجلا تزوج امرأة.. وبعد خمس سنوات أو عشر خطر لهما أن يتزوجا مرة ثانية تأكيدًا لحبهما.. مجرد خاطر حلو من الخواطر التى ترد فى عقول المحبين.. إن أم كلثوم تقول فى أغنيتها «لو كنت أقدر أحب تانى أحبك أنت»، وهو تعبير صادق عن خواطر تطلقها فعلا عقول المحبين.. إن الزوج كثيرًا ما يقول لزوجته التى يحبها: «لو كنت أقدر أتجوز تانى أتجوزك انتى برضه».. فهل لو تزوجا مرة ثانية.. لمجرد حبهما بطريقة خطرت لهما، يعتبر هذا جريمة..

لا..

لا يمكن..

لا يمكن أن يكون الارتفاع بالحب إلى هذا المستوى يعتبر جريمة..

وهذا ما فعلناه يا حضرة القاضى..

تزوجنا مرتين تأكيدًا لحبنا..

مرة بعد أن غيرت دينى من أجل هدى..

ومرة بعد أن غيرت هدى دينها من أجلى..

صحيح أننا أخفينا مـا فعلناه عن كل من حولنا.. أخفينا خطتنا عن المأذون والقسـيس.. وتركنا البعض يعتقد أنى أسلمت وتزوجت زواجًا إسـلاميًّا.. والبعض الآخر يعتقد أن هدى تنصرت وتزوجت زواجًا مسـيحيًّا.. ولكننا لم نخف شـيئًا لأننـا اعتبرناه جريمة، ولكننـا أخفيناه لأنه كان كان إجراء يخصنـا وحدنا.. هدى وأنا.. إجراء يسمو بحبنا، ويحفظ لكل منا شخصيته..

ولكن النيابة تقول إننـا زورنا فى أوراق رسمية.. إننا لم نزور فى أوراق رسمية يا سـيادة القاضى، ولكننـا أكدنا حبنا فى أوراق رسمية.. التزوير يجب أن يهدف إلى فائدة غير مشـروعة يجنيها المزور.. فهل الزواج غير مشروع.. إنه مشروع فى الأوراق الرسمية المسيحية.. ومشروع فى الأوراق الرسمية الإسلامية.. فكيف تنطبق هنا جريمة التزوير..

وبعد ذلك.. فإنى واثق يا سيادة القاضى أنك لا يمكن أن تحاسبنا على حقيقة عواطفنـا ومعتقداتنا الدينية، فهذا شـىء بيننا وبين الله.. وسـواء اعتبرتنا أنا وهدى مسلمين، أو اعتبرتنا مسيحيين.. فنحن نحـب الله.. ونؤمن بـه.. ونؤمن بأن الله يحبنا، وإلا لما وهبنا كل هذا الحب الذى حدثتك عنه..

والأمر لك يا سيادة القاضى..

وحكمك لن يكون علينا.. ولكنه على الحب..

وأنا وهدى مطمئنان إلى أن الحب هو العدل.. وأنك عادل..

وسام للمهتم

يا سيادة القاضى..

ثـق أنى حائـر.. والمحامى غالبًـا لا يحتار فـى موقفه.. فهو دائمًـا يقف بجانب المتهم الذى قبل أن يدافع عنه.. وأنا الآن واقف بجانب أربعة من المتهمين الشـبان، ومعترفين بجريمتهم.. ولكن حيرتى هى أنى برغم اعترافهم لا أسـتطيع أن أعتبرهم مجرمين.. حتى أدافع عنهم.. إنى فـى الواقع معجب بموقفهم، حتى لو كان هـذا الموقف خلف قضبان القفص الحديـدى.. وواجبى الذى أحس بـه ليس هو واجب الدفاع عنهـم، ولكنه واجب المطالبة لكل منهم بوسـام يعلقه على صدره.. فهل من حقى أن أطالب لمجرم معترف بوسام؟..

النيابـة طبعًا، سـتقول، لا.. وقد عصرت القانـون عصرًا حتى تستطيع أن تستخرج منه ما يكفى للحكم على الأربعة المتهمين.

ولكنى واثق أن السيد وكيل النيابة لو انتقل الآن إلى مقعد القضاء لتغير منطقه.. ولاحتـار مثلى.. وبرغم أنى أسمو بعدالة المحكمة عن مسـتوى الحيرة.. إلا أن الحيرة هنا وفى هذه القضية بالذات.. هى حيرة إنسـانية.. والإنسانية تعلو فوق القانون.. الإنسانية هى العدالة، وليس القانون..

يا سيادة القاضى..

البراءة ليست هى موضوع دفاعى.. أنا لا أطلب البراءة.. فإنى لست فى حاجة إلى طلبها.. إنها ثابتة قانونًا.. ولكنى أطلب أربعة أوسمة لأربعة متهمين.. إنى أطمع فى أن أضع تقليدًا قضائيًّا جديدًا بأن تسجل المحكمة فى حيثيات الحكم، أنه برغم وقوع الجريمة، وبرغم اعتراف المتهمين، فإن المحكمة تثبت إعجابها بهم، وتقديرها لموقفهم، ونوصى الهيئات المختصة بمنح كل منهم وسامًا..

لا تبتسم يا سيادة القاضى..

أرجوك لا تبتسم..

إنى لا أبالغ.. ولا أفتعل مدخلا جديدًا لدفاعى.. إنى أتكلم بإحساسى كمواطن عادى، يرى فى الجيل الجديد الذى يمثله هؤلاء الشبان، روحًا جديدًة، تثير الإعجاب.. جيل له أخطاؤه، ولكنه جيل بطل.. وله نقط ضعفه، ولكنه جيل قوى.. أقوى من ضعفه..

واسمح لى سيادتكم بأن أعرض موضوع القضية بسرعة.. وأقول «موضوع».. ولا أقول «جريمة»..

من هم المتهمون؟

إنهم محمد، وأحمد، وعلى، وحسين.. أربعة من طلبة كلية الهندسة.. أكبرهم فى الثانية والعشرين، وأصغرهم فى التاسعة عشرة.. محمد هو أول دفعته فى كلية الهندسة.. وحسين حصل

على تسعين فى المائة من مجموع الدرجات فى شهادة الثانوية العامة، ومنح مجانية التفوق.. وأحمد وعلى من الطلبة الممتازين.. الأربعة يا سيادة القاضى، حاجة تفرح.. ليس فى ماضى واحد منهم ما يشينه.. والأربعة تلتف حولهم قلوب زملائهم، إلى حد أن قامت ضجة فى كلية الهندسة يوم بدأ التحقيق معهم..

وكان الأربعة مجتمعين فى بيت محمد للمذاكرة.. عندما دخل عليهم عمه.. عم محمد.. وطلب أن يتطوع واحد منهم، ويأخذ سيارته.. سيارة العم.. ويذهب بها إلى بيته فى مصر الجديدة ليعود بالسيدة حرمه..

وقرر الأربعة أن يذهبوا سويًّا..

فسحة..

وفى شارع رشيد بمصر الجديدة.. والدنيا ظلام.. والشارع هادئ، خال من المارة.. انحرفت السيارة التى يركبها الأربعة، وصعدت فوق الرصيف وصدمت الإنسان الوحيد الذى كان يمر فى الشارع فى هذا الوقت.. وقتلته..

قضاء وقدرًا..

وكان المتهمون يستطيعون الهرب بالسيارة..

لا أحد رأى الحادث..

لا شهود عليهم.. حتى عسكرى الدورية لم يكن فى مكانه ليشهد عليهم..

لو أنهم هربوا لما كانوا اليوم واقفين أمام عدالتكم.. ولما استطاعت قوة فى الأرض أن تكتشفهم.

لكنهم لم يهربوا..

أرجو أن تقدر هذا يا سيادة القاضى.. إنهم لم يهربوا.. ضمائرهم الحساسة النظيفة القوية، لم تسمح لهم بالهرب.. وبالعكس..

حملوا جثة القتيل داخل السيارة، وذهبوا إلى قسم البوليس.. وسلموا الجثة.. وسلموا أنفسهم..

واعترفوا..

وهنا أيضًا لم يكونوا فى حاجة إلى الاعتراف أو على الأقل لم يكونوا فى حاجة إلى أن ينسبوا الخطأ إلى أنفسهم.. كانوا يستطيعون أن يقولوا مثلا إن الرجل القى بنفسه تحت عجلات السيارة.. كانوا يستطيعون أن يقولوا إن الرجل كان يسير فى منتصف الطريق.. وإنهم استعملوا آلة التنبيه.. وإنهم استعملوا الفرامل.. و.. و.. إلى آخر المبررات التى كان يمكن أن تعفيهم من تهمة القتل الخطأ..

ولكن، لا..

اعترفوا بكل التفاصيل.. اعترفوا بأن الرجل كان يسير على الرصيف وأن السيارة صعدت إليه وقتلته..

ولم يرجعوا عن اعترافهم عندما تولت النيابة التحقيق..

إنها رجولة يا سيادة القاضى..

رجولـــة مبكرة، قوية، تعبر عن المعانى الجديدة التى يدين بها الجبل الجديد..

وإنى أعترف لك الآن يا ســيادة القاضى بأنى حاولت أن أقنعهم بالعدول عن هذا الاعتراف، بدافع الحرص على مستقبلهم.. حاولت كثــيرًا.. بلا فائــدة.. إنه إصرار عجيب.. إصــرار على الصدق.. لا يريدون أن يكذبوا حتى لو كان فى الكذب السلامة..

ولكن..

من كان يقود السيارة لحظة وقوع الحادث؟

هنا حدثت المفاجأة..

لا أحد يدرى حتى الآن من كان يقود الســيارة.. هل هو محمد.. أو أحمد.. أو على.. أو حسين؟!

لقد سئلوا طبعًا، عمن كان يقود السيارة.. فأجاب كل منهم:

- مَعْرَفْشْ..

كلمة واحدة لم تتغير طول التحقيق.. مَعْرَفْشْ!

ولا بد أن ضابط البوليس الذى بدأ التحقيق قد جن عندما واجهوه بهذا الجواب الحاسم.. ما اعرفش.. ولا بد أن السيد وكيل النيابة قد بذل كل جهده حتى يأخذ منهم كلمة أخرى غير كلمة «مَعْرَفْشْ».. وينتزع السر الكبير من صدورهم..

وقد اتبعت معهم كل طرق التحقيق..

سئلوا مجتمعين فى مواجهة بعضهم البعض.. وسئلوا أفرادًا..

ولا أريـد أن أقول إن المحقق قد اسـتعمل معهـم طرق التهديد الأدبى.. بل اسـتعمل معهم نوعًـا من أنواع التعذيب الجسـدى، عندما حبس كلاًّ منهم حبسًـا انفراديًّا.. وصمم على حبسـهم برغم أن القانـون لا يبيح له حق الحبس فى هذه الحالة.. ولكنى لا أريد أن أثير هذه النقطة فى دفاعى.. لسـبب واحد.. وهو أن المتهمين لا يريدون إثارتها..

وفى مرحلة من مراحل التحقيق، خيل للمحقق أنه وجد الطريق لمعرفة السـائق.. فطلب مـن الفنيين أن يلتقطـوا البصمات من فوق عجلة القيادة..

أتدرى ماذا وجد خبير البصمات يا سيادة القاضى.

وجـد أن المتهمين قد حرصوا قبل أن يسـلموا أنفسـهم على أن يمسـحوا البصمات من فوق عجلة القيادة.. ومن فوق الباب المجاور لمكان السائق.. كما هو ثابت فى تقريره المقدم منه!

إذًا فموقف المتهمين موقف متعمد..

وهذا صحيح..

إنى أتصورهـم وقد اتفقوا بعد وقوع الحـادث، على اتخاذ هذا الموقـف، ورفعوا كلمة «ما اعرفش» كشـعار لهـم.. ثم اتجه بهم ذكاؤهـم وهم قطعًا أذكياء بدليل تفوقهم فى دراسـتهم.. إلى مسـح البصمات من فوق عجلة القيادة.

وقد لجأ المحقق إلى طريقة أخرى..

لجأ إلى آباء المتهمين، وأخذ أقوالهم على أمل أن يعترف أحد منهم على ابن الآخر..

لا..

لم يعترف أحد من الآباء على ابن الآخر..

لا لأن كل أب سما بنفسه عن الوشاية بصديق لابنه..

ولكن لأن أحدًا من الآباء لا يعرف حتى اليوم من كان يقود السيارة.. لقد أخفوا السر حتى عن آبائهم.. بل إنى أعرف أنهم أخفوه حتى عن أمهاتهم..

وأنا..

أنا المحامى الذى يتولى الدفاع عنهم، لا أدرى اليوم من كان منهم يقود السيارة.. وقد حاولت أن أعرف.. هذا الموقف العجيب وهذا الإصرار، أثارا فضولى إلى حد كبير.. فحاولت أن أعرف.. حاولت كثيرًا.. ولم يكن معقولا أن يخفوا عنى السر لأنهم يثقون فىّ.. فأنا محاميهم.. وبرغم ذلك رفضوا أن يفشوا لى سرهم العجيب.. وقال لى محمد وأنا أناقشه:

– لقد اتفقنا على أن ننسى من كان منا يقود السيارة.. وقد نسينا فعلا.. بذلنا مجهودًا نفسيًا كبيرًا حتى ننسى.. وثق أننى لا أقاوم الآن الإفشاء بالسر، لأنى نسيته..

يا سيادة القاضى..

لماذا اتخذ المتهمون هذا القرار؟

لأنهم يؤمنون بمبدأ: الكل فى سبيل الواحد، والواحد فى سبيل الكل.. لأنهم مصرون على ألا يتخلوا عن واحد منهم.. وأن يتحملوا المسئولية معًا..

إنهم لا يحاولون التهرب من المسئولية..

لا..

لو أرادوا التهرب من المسئولية، لتركوا القتيل فى الشارع وهربوا.. ولما اعترفوا.. ولكنهم لم يفكروا أبدًا فى التهرب من المسئولية.. كل ما أرادوه هو أن يحملوا المسئولية معًا.. أن يكون الكل فى سبيل الواحد.. أن يضحى ثلاثة منهم فى سبيل واحد.. وكل ذلك بدافع من الرجولة القوية.. وصلابة الخلق.. والشهامة.. والتضامن أمام الخطر..

ولكنهم بموقفهم هذا - دون أن يتعمدوا - خلقوا مشكلة قانونية.. فنحن أمام أربعة معترفين بجريمة لا يمكن أن يرتكبها إلا واحد.. وفى الوقت نفسه لا نعرف من هو هذا الواحد، حتى نحكم عليه..

وقد تخبطت النيابة فى مطالبها.

لقد حاولت أن توحى إلى المحكمة بأن محمدًا هو الذى كان يقود السيارة، لأنه ابن أخى صاحب السيارة.. وهذا كلام لا يمكن أن يكون جديًّا.. فليس هناك ما يمكن أن يسمى «متهمًا بالقرابة».. ولا تكفى أبدًا قرابة محمد لصاحب السيارة حتى نعتبره الفاعل

الأصلى.. مستحيل.. هذا منطق لا يقره القانون أو العدالة.. إن أى واحد من الأربعة يمكن أن يكون هو قائد السيارة لحظة وقوع الحادث، خصوصًا إذا عرفنا أن الأربعة يجيدون القيادة وكل منهم يحمل رخصة قيادة..

ثم حاولت النيابة أن تكيف التهمة تكييفًا آخر.. حاولت أن تعتبر الأربعة فاعلين أصليين.. أى أن الأربعة كانوا يقودون السيارة فى وقت واحد.. وهذا أيضًا مستحيل.. هذا إسراف فى الخيال.. ولا أريد أن أقول إنه تعنت فى توجيه الاتهام.. فلا يمكن أصلا وعملا أن يتولى أربعة قيادة سيارة واحدة فى وقت واحد.

ولا أريد أن أرد على الكلام الكثير الذى قاله ممثل النيابة، عن جنون الشباب واستهتارهم.. ومحاولته الربط بين هذا الحادث، وحادث الأتوبيس الذى راح ضحيته عدد من القتلى نتيجة إهمال السائق.. هذا كلام، أعتبره كلامًا فى غير موضعه.. ولا يستحق أن يرد عليه..

ولكن هذا لا ينفى أن هناك حادثًا قد وقع راح ضحيته قتيل..

وأن هناك أربعة معترفين بارتكاب الحادث، الذى لا يمكن أن يرتكبه إلا واحد منهم فقط.. وبما أننا لا نعرف وكلنا عجزنا عن معرفة سائق السيارة لحظة وقوع الحادث..

فإنى واثق أنكم ستحكمون بالبراءة..

ولكن البراءة لا تكفى..

هذا التضامن الرائع بين الشبان الأربعة.. هذه الشهامة.. هذه الصلابة.. هذا الخلق النظيف القوى.. هذه الروح الجديدة التى تنطلق من الجيل الجديد.. ليس بينهم جبان.. ليس بينهم من يتخلى عن زميله.. ليس بينهم من يريد أن يهرب بجلده..

كل هذا..

يستحق وسامًا..

* * *

غلطة حبيبى

ليس الذنب ذنبى..

مؤكـد أن ليس لى ذنب فـى كل ما حدث.. لا يسـتطيع أحد أن يلومنى.. ولا مصطفى..

لقد أحببت مصطفى وأنا أعرف كل ما يمكن أن أحتمله فى سبيل هذا الحب.. أحببته وأنا مصممـة على أن أحتمل.. أن أضحى.. أن أجعـل مـن حبه عالمى الذى أعيـش فيه.. لا أريد شـيئًا من العالم الآخر.. لا أريد شيئًا إلا أن أنام وأصحو وحبه فى صدرى.. هادئًا.. مستقرًّا.. لذيذًا..

وكنت أعلم أن أكثر ما يجب علىّ أن أحتمله هو عمل مصطفى..

صحيح أنى لم أكن أتصور أن يكون مشغولا بعمله إلى هذا الحد.. ولكنى اسـتطعت بسرعة أن أعود نفسى على انشغاله عنى بعمله.. أن أبقـى فى انتظاره أيامًا.. ثلاثة أيام.. أربعة.. أسـبوعًا.. نلتقى سـاعة أو سـاعتين وأحادثه فى التليفون دقيقتـين، وقد يحدثنى خلالهمـا وهو يقرأ أو وهو يكتب.. فـلا أتبرم.. ولا أضيق.. أبدًا.. أبدًا.. لقد كنت سـعيدة.. سعيدة حقًّا.. سعيدة بحبى له.. وسعيدة بإحساسـى أنى أحتمل فى سـبيل شـىء كبير.. فى سبيل أن أمنح حبيبى النجاح.. وكان ينجح.. كان يخطو خطوات سريعة عملاقة..

كأنه عفريت من الجن يفرض إرادته على المستقبل.

كنت أحس أنى أصنع هذا النجاح..

أحس أنى أمنح حبيبى القوة ليخطو خطواته العملاقة..

وكانت هذه هى سعادتى..

سعادتى العميقة.. الحلوة.. السعادة التى أستمدها من نجاحه وتفوقه..

ولكن مصطفى لم يكن يصدِّق..

لم يكن يصدق أنى أستطيع أن أحتمله كل هذا الاحتمال، ثم أكون سعيدة..

وبدأت ألحظ شكوكه كلما التقينا أو كلما تحدثنا فى التليفون..

كان يسألنى فى التليفون:

- بتعملى إيه؟

فأرد فى بساطة:

- بشتغل كانفاه..

وألحظ الشك والتهكم فى صوته وهو يقول لى:

- برضه.. ده انتى بقالك جمعه، كل ما اسألك تقوليلى انك بتشتغلى كانفاه..

وأتجاهل شكه وتهكمه وأرد قائلة، وأنا أضحك:

- تصور انى خلصت نص المفرش فى خمس تيام.. مش أنا بطله والنبى..

ويضحك مصطفى فى تهكم، ويقول:

- فعلا بطله..

وفى مناسبة أخرى يسألنى:

- رحتى فين اليومين دول؟

وأرد:

- أبدًا.. قعدت فى البيت..

وتطل من عينيه نظرة تضطرب بشكه ويقول فى حدة:

- يعنى قعدتى فى البيت أربعة أيام ما خرجتيش؟

وأرد وأنا أرفع إليه عينىَ كأنى أتوسل إليه أن يصدقنى:

- وفيها إيه يا مصطفى.. انت عارف انى بحب البيت..

ويهز مصطفى رأسه ويزفر أنفاسه، كأنه لا يصدقنى..

ثم..

يتصل بى فى التليفون، فيجد تليفونى مشغولا. فيعود يتصل بى ويصرخ فى وجهى:

- كنتى بتكلمى مين؟

وأقول:

- كنت بكلم اختى..

ويرد من تحت أسنانه:

- لا يا شيخه!!

وأرد وقلبى يرتجف:

- أمال حكون بكلم مين يعنى!!

ويقول فى تهكم:

- مفيش.. مش ممكن فعلا انك تكلمى حد الا اختك!!

وشكوك مصطفي تزداد يومًا بعد يوم.. عيناه تزدادان اضطرابًا.. وكلماته تقطر بغلٍ مكتوم.. إلى أن قال لى مرة:

- أنا ساعات بكره شغلى علشان خاطرك.. وساعات بكرهك علشان خاطر شغلى..

قلت له يومها:

- أنا مَسْمحش لك تكره شغلك، ولا تكرهنى.. لازم تحبنا احنا الاتنين.. واحنا الاتنين ممكن نستحمل بعض.. أنا استحمل شغلك، وشغلك يستحملنى.

وكنت أحاول أن أريحه من شكوكه.. أن أمسح النظرات المضطربة عن عينيه.. أن أجعل أنفاسه تنتظم فى صدره..

ولكن كيف.. كيف يا ربى.. كيف أريح حبيبى من شكوكه..

إلى أن صرخ فى وجهى مرة:

- أنا مش ممكن أقدر أصدق إن بنت عندها اثنين وعشرين سنة تفضل قاعده فى البيت، ولا تعملش حاجه إلا إنها تشتغل كنافاه.. الكلام ده كان أيام ستى.. مفيش بنت اليومين دول بتعمل كده أبدًا.. وبصراحه أنا مش مصدقك.. أنا مش مطمن..

وقلت والدموع تملأ عينى:

– وتصدقنى ازاى يا مصطفى..أطمنك إزاى.. قول لى أعمل إيه؟
وقال فى حدة:
– أنا مش ممكن اطمن عليكى إلا لما الاقيكى مشـغوله.. مشغوله فى حاجه عارفها.. حاجه جد.. مشغوله بشغل، زى ما انا مشغول بشغلى..
وقلت كأنى أتوسل إليه:
– ما انا مشغوله يا مصطفى.. مشغوله فى البيت.. وفى الكنافاه.. وفى الراديو.. وفى التليفزيون.. ده انا عملت سبع مفارش فى ست شهور.. وإذا كنت عايز مستعده اسمع لك أغانى الراديو كلها..
قال فى صراخ:
– مـش كفايـة.. مش مهم انك تشـغلى إيديكى.. ولا تشـغلى ودانك.. المهم انك تشغلى عقلك..
قلت:
– عقلى مشغول بيك يا مصطفى..
قال:
– ما هو ده الخطر.. طول ما عقلك مشـغول بيًا.. يبقى بتفكرى انـك تقابلينـى.. ولما ما تقابلنيـش حتزهقى.. ولمـا تزهقى ممكن تغلطى.. ممكن تعملى حاجات كتير غير الكنافاه..
وقلت فى استسلام:
– طيب عايزنى اعمل إيه يا مصطفى؟

قال:

- عايزك تشتغلى..

قلت:

- أشتغل إيه؟

قال:

- أى حاجه.. سكرتيره.. مذيعه فى الإذاعه والـلا فى التليفزيون.. أى حاجه..

قلت:

- زى ميعجبك يا مصطفى.. شغلنى مطرح ما انت عايز..

ولم أكن أريد أن أعمل..

والله العظيم لم أكن أريد أن أعمل..

كنت سعيدة فى البيت..

سعيدة بأشغال الكنافاه..

سعيدة بأغانى الإذاعة وبرامج التليفزيون..

سعيدة وأنا فى انتظار مصطفى ليقابلنى مرة أو مرتين فى الأسبوع..

ولكن مصطفى صمم..

وأخذنى من يدى إلى التليفزيون.. وقدمنى إلى المختصين هناك.. وأجروا لى امتحانًا.. ونجحت.. أصبحت مذيعة فى التليفزيون.. مقدمة برامج كما يسموننا..

وانقلبت حياتى كلها..

وانشغلت..

وكان أول مـا انشـغلت عنه هـو مصطفى.. لم أعـد أعيش معه بفكرى وعواطفى أربعًا وعشـرين سـاعة فى اليوم.. أصبحت أعيش معه فترات متقطعة من يومى.. وأرقد فى فراشى كل مساء فلا أكاد أفكر فيـه حتى يغلبنى التعب وأنام.. وأصبحت أنسـى فى زحمة العمل أن أتصل بمصطفى فى التليفون كل صباح.. وأنسـى أن أقرأ له مقالاته التى كنت أحفظها عن ظهر قلب..

أصبحت مشغولة..

مشغولة..

ولم يشغلنى العمل نفسه.. ولكن شغلنى أكثر جو العمل.. شغلت بزملائـى الكثيرين الذيـن يعملون معى فى التليفزيون.. وشـغلت بخطابات المعجبين والمعجبات.. وشـغلت بالدسائس والمقالب التى تدبر فى كل حجرة من حجرات المبنى الكبير..

وبين زملائى كثيرون من الشبان المهذبين الناجحين.

ربما كان أكثرهم تهذيبًا ونجاحًا، هو محمود.

وتوطدت الصداقة بينى وبين محمود..

صداقة خالصة..

قلبى لا يزال مع مصطفى..

ولكنـــى أرى «محمود» كل يوم.. إنه إمــا فى مكتبى.. أو أنا فى مكتبه..

وهو فى حاجة دائمًا إلىّ..

إن أحلامــه الكبيرة تكاد أحيانًا تعصف بـــه.. وتكاد تلقيه فى هاويـــة اليأس.. وهو فى حاجة إلىّ حتى أقويه على أحلامه.. حتى أســـند شـــخصيته المهزوزة.. حتى أمنحه القـــدرة ليخطو خطوات عملاقة نحو أمله..

ودعانى محمود ليوصلنى إلى البيت بسيارته..

ثم أصبح يوصلنى كل يوم..

بل أصبح يمر علىّ كل صباح ليأخذنى معه إلى مبنى التليفزيون..

كانت صداقة..

لا أكثر من الصداقة..

ولم يكن هناك شـــىء أخفيه عن مصطفى.. صرحت له بصداقتى لمحمود، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث.. وكنت أطلعه على مشاكل محمود فى العمل، كما أطلعه على مشاكلى..

وكنـــت أعتقد أن مصطفى يفهم حقيقـــة علاقتى بمحمود، إلى أن قال لى مرة:

– شفتى محمود النهارده؟

وقلت فى بساطة:

– طبعًا..

قال وهو يتكلم من تحت أسنانه:
- وطبعًا وصلك بعربيته..
قلت:
- أيوه..
وانفجر مرة واحدة صارخًا:
- انتى بتشتغلى فى التليفزيون، ولا بتشتغلى فى محمود..
قلت فى هدوء:
- يـا مصطفى.. متقولش كده.. انت عارف ان محمود صديقى.. أنا مخبتش عنك حاجه..
وصرخ:
- أنـا مش مطمن للصداقة دى.. مفيـش حاجه اسمها صداقه.. راكبه فى عربيته رايحه جايه، وتقوليلى صداقه!
وقلت وأنا أكثر هدوءًا:
- يعنى عايزنى أعمل إيه؟
قال:
- عايزك تبطلى تعرفى اللى اسمه محمود ده..
قلت:
- مش ممكن يا مصطفى.. ده زميلى.. يعنى اقول له إيه؟..
قال:
- قولى له بصراحه انك بتحبى واحد تانى..

قلت:

- هو عارف انى بحب واحد تانى.. وعمر الراجل ما طلب منى أكتر من صداقه..

وعاد يصرخ:

- مَتْجيبليش سيرة الصداقه.. إنتى فاكره إنى مغفل.. أنا بشتغل زيك.. وعارف الصداقه معناها إيه.. إشمعنى ســى محمود ده اللى مصاحباه.. ما فيه ألف واحد فى التليفزيون..

قلت:

- يا مصطفى خلى عقلك واسع.. يعنى اعمل إيه؟

وصرخ كأنه يطلق أبخرة كثيفة كان يختزنها فى صدره:

- سيبى الشغل.. ارجعى اقعدى فى البيت..

وتــرددت برهة.. كــدت أضعف كمــا تعــودت أن أضعف أمام مصطفى.. ولكن شــخصيتى الجديــدة التى اكتســبتها من العمل، انتصرت على ضعفى، وقلت له فى ثبات:

- مقدرش يا مصطفى.. مبقتش اقدر اقعد فى البيت..

وقال كأنه صدم:

- كده.. طيب اعملى اللى انتى عايزاه.. سعيده!

وعشت يومًا كاملا أراجع نفسى..

واكتشفت أنى فعلا لا أستطيع أن أعود لأبقى فى البيت..

لا أستطيع أن أستغنى عن عملى فى التليفزيون.

ولا أستطيع أن أستغنى عن صداقة محمود..

ومصطفى يلومنى..

أبدًا.. لا أســتحق لومه.. ليس لى ذنب.. لقد كنت له بكل دقيقة من عمرى.. وكنت سأبقى له بكل دقائق عمرى..

ولكنه هو..

هو الذى أخرجنى من البيت..

هو الذى أخذنى بيده إلى التليفزيون..

خــاف على حبى له من فراغ حياتى.. فملأ حياتى حتى لم يعد فيها مكان لحبه!

* * *

العقل الكبير

أكثــر ما يضايقنــى أن يتدخل الناس فى حياتــى الخاصة.. وأن يصــدروا علىّ أحكامًا، ليســت من شــأنهم.. لقد حكمــوا علىّ أنى بائسة.. مسكينة.. غلبانة.. وتمصمص العجائز شفاههن ويهمسن.. يــا ميلة بختهــا.. والنبى دى ضفرها بميت بنــت.. ثم يتضاحكن قائلات.. آل بنت آل..

وأنا فعلا، بنت..

بنت فى الخامسة والثلاثين من عمرى..

وحتــى أريح الناس، فإنى أقول فى وجوههم.. إنى عانس.. أنا عانس..

ولكن..

من أدراهم أنى مسكينة، بائسة، غلبانة، وبختى مائل..

لماذا يفترض الناس دائمًا أن العانس لا بد أن تكون بائسة..

لا..

لست بائسة..

أنا سعيدة..

ســعيدة جدًّا.. أســعد من ثمانين فى المائة من الزوجات اللاتى أعرفهن، واللاتى فى مثل سنى.. وسعادتى نابعة من عقلى..

الشعراء، وكتّاب القصص، يقولون إن السعادة تنبع من القلب..

لا.. هذا كذب.. خيال.. السعادة تنبع من العقل.. وكلما استطاع العقل أن يسيطر على القلب.. استطاع أن يحقق لصاحبه سعادة أكبر..

وكنت - ولا أزال - أعتمد على عقلى فى تنظيم حياتى، وفى تحديد تصرفاتى، بحيث أضمن لنفسى أكبر قدر من السعادة.. إنى أرسم صورة محددة لحياتى.. حياة سعيدة.. لا أعرضها لمجازفة، أو لمغامرة، أو لنزوة، قد تنتهى بنكبة..

الفرق بينى وبين بقية البنات.. أنى لا أبيع عمرى فى نظير لحظات سعيدة.. إن سعادتى دائمة، مستقرة ثابتة.. أما بقية البنات فسعادتهن لحظات من العمر، والباقى شقاء..

وأنا لا ينقصنى شىء لأتزوج..

إنى جميلة.. مثقفة.. ذكية.. غنية.. معاشى من المرحوم بابا قدره خمسة وعشرون جنيهًا فى الشهر..

ومنذ كنت فى السادسة عشرة والخطّاب يقفون على بابى.. المهندس.. والدكتور.. والضابط.. بل تقدم لى مرة أحد كبار الصحفيين..

وكنت أرفضهم..

أرفضهم، لأنى منذ كنت فى السادسة عشرة، وأنا مقتنعة بأن الزواج فى حد ذاته لا يحقق السعادة.. وأن ليس المهم أن أكون زوجة، ولكن المهم أن أكون سعيدة..

عقلــى الكبير اســتطاع أن يجنبنى الخطأ الكبــير الذى تقع فيه البنــات المراهقات، عندما يندفعن إلى الزواج.. والفرحة الســاذجة تملأ قلوبهن.. الفرحة بالثوب الأبيض والطرحة.. والفرحة بالدبلة الذهبية.. والفرحة بالزيطة والهيصة.. ثم يكتشــفن بعد أيام أنهن زففن إلى الشــقاء.. ويعشــن عمرًا شــقيًّا.. لا ينفعهن فيه لا الثوب الأبيض، ولا الطرحة..

نعم.. أنا عقلى كبير منذ كنت فى السادسة عشرة.

وليس معنى هذا أن ليس لى قلب..

إن لى قلبًا..

قلبًا كبيرًا أيضًا..

وقد أحببت بهذا القلب.. أحببت «حسين»..

وقــد التقيت بحســين، وأنا فى الثانية والعشــرين من عمرى.. ومنذ اللحظة الأولى أحسســت بتفاهم كبير بينى وبينه.. كان عقلى يتجاوب مع كل ما فى عقله، وأخلاقى تتلاقى مع أخلاقه.. ومزاجى مع مزاجه.. وأحبنى حســين.. ربما أكثر مما أحببته.. كان يقضى معى كل دقيقة يستطيع أن يكون فيها مع أحد..

ولكن حسين كان ضابطًا بحارًا على إحدى المراكب التجارية..

وكان يغيب فى البحر كثيرًا.. يغيب شهرًا.. ويعود ليبقى معى خمسة عشر يومًا على الأكثر..

وبرغم ذلك بقينا على حبنا..

وحبنا ينمو..

ولكنه كان حبًّا عفًّا نظيفًا.. واستطاع عقلى أن يسيطر على قلبى دائمًا ليبقى حبى عفًّا نظيفًا..

ليس معنى هذا أنى لم أكن أحس بأنى فى حاجة إلى أن أطلق حبى إلى مدى أبعد.. ليس معنى هذا أنى باردة.. عديمة الإحساس.. ليس معنى هذا أنى حنبلية متزمتة.. أبدًا.. كل ما هنالك أنى لم أكن أريد أن أعود نفسى على تصرفات لا أضمن نتائجها.. ولا أضمن مدى حاجتى إليها بعد أن أتعود عليها.. دلنى عقلى على أنى لو عودت جسدى على «حسين».. لو أطلقت معه غرائزى الطبيعية.. فإنى سأتعذب، لأن «حسين» يغيب عنى كثيرًا.. إنى لا أستطيع أن أكون له ليلة، ثم يغيب عنى ستة أشهر، حتى يعود مركبه.. لا.. لا أستطيع.. إنى قد أجد نفسى فى هذه الحالة معرضة للانحراف.. معرضة لمقاومة حاجتى الجسدية، وقد لا أستطيع مقاومتها، فأنحرف وأخون «حسين» مع رجل آخر.. لا.. لن أعود نفسى على شىء من هذا..

وقد تقدم حسين لخطبتى..

ولكنى رفضته..

هل هذا معقول؟

هل معقول أن ترفض فتاة الزواج من الرجل الذى تحبه؟

معقول جدًا، إذا اكتشـفت بعقلها الكبير أن حبيبها لا يمكن أن يحقق لها حياة زوجية مستقرة سعيدة.. وإذا كان فى زواجها به ما يعرض حبها للتلف، والضياع والنكبات..

وقلت كل ذلك لحسين..

قلت له إنى لا أستطيع أن أتزوجه لأن عمله يحتم عليه أن يغيب عنى طويلا.. شـهورًا بأكملها.. فلن نستطيع أن نقيم بيتًا سعيدًا.. بل قلت له إنى لـو تزوجته، وتعودت على أن يكون لى رجل، فلن أضمن أن أصون نفسـى من الانحراف، وهو يغيب عنى مُمددًا تصل إلى عشرة أشهر فى العام، ولا يمنحنى سوى شهرين توزع أيامهما على مدار السـنة.. وفى الوقت نفسه فإنى لا أستطيع أن أطلب منه أن يسـتقيل من عمله، ويضحى بمسـتقبله، حتى يقيم معى البيت السعيد..

تناقشنا مناقشة منطقية واقعية..

واقتنع حسين..

وقرر أن يبحث عن عمل له فى شركة القناة.. فإن ضباط البحرية فى القناة لا يسافرون فى أعالى البحار.. إنهم لا يغيبون عن بيوتهم أكثر من ليلة أو ليلتين فى الأسبوع..

ولكـن «حسـن» لم يوفق فى الالتحاق بشـركة القناة، ظل يعمل على مركبه التجارى.. واسـتطعت أن أقنعه بأن نبقى على حبنا فى حدود إمكانياتنا على ممارسـة الحب، والتمتع بـه.. وإمكانياتنا

لا تتعـــدى هذا الحب الرائع الأفلاطونـــى.. حب أقرب إلى الصداقة الحلوة الجميلة..

وظل حسين معى بعد أن رفضت الزواج بـه..

ثم ســافر بمركبه إلى دول أمريكا فى رحلة طويلة استغرقت ما يقرب من عام..

وعاد ليعرض علىّ الزواج مرة ثانيـة..

وصمم فى هذه المرة..

إنـــه يريد أن يكون له بيت يعود إليه.. ويريد أن يكون له أولاد يفرح بهم..

لا تكن ســاذجًا يا حسين.. إنك لا تستطيع.. ليس المهم أن يكون لك بيت، ولكن المهم أن يكون لك بيت سعيد.. وليس المهم أن يكون لك أولاد، ولكن المهم أن يكون أولادك ســعداء.. وأنت لا تســتطيع أن تكــون ســعيدًا إلا فى الحــدود التى رسمتها لــك.. لا يمكن أن تكون ســعيدًا فى بيت تخشـــى فيه زوجتك على نفســها من الفتنة والانحراف.. ولا أن تكون ســعيدًا بأولاد يعيشــون كل حياتـهم بلا أب.. كأنـهم يتامى..

ولكن حسين صمم..

وأنــا أشــفق عليــه مـــن تصميمــه، وعقلــى الكبــير يرفــض أن يستجيب له.

وذهب حسين وتزوج..

تزوج فتاة أخرى..

إنى واثقة من أننى أسعد من هذه الفتاة الأخرى التى تزوجها..

إنى على الأقل لا أقضى عشرة أشهر فى العام، بإحساس الأرملة، أنتظر أن تعود الحياة إلى زوجى، يوم تعود مركبه إلى الإسكندرية..

وانتهت قصتى مع حسين..

وكنت فى هذه الأثناء قد قررت أن أكمل دراستى فالتحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية.. وقد منحتنى الجامعة مزيدًا من السعادة.. إنى سعيدة.. سعيدة.. وقد تقدم إلىّ وأنا فى الجامعة ثلاثة من زملائى ليخطبونى.. ومعيد.. ولكن.. لا.. إنى لا يمكن أن أتنازل عن إكمال دراستى.. وفى الوقت نفسه لا أؤمن بأنى أستطيع أن أكون سعيدة لو تزوجت وبقيت فى الجامعة.. لماذا.. لماذا أقسّم نفسى إلى اثنين.. وأعيش حياتين.. ما حاجتى إلى كل هذه الربكة؟ إما أن أكون زوجة وأمًّا.. وإما أن أكون طالبة فى الجامعة..

وفضلت أن أكون طالبة..

عقلى الكبير هدانى إلى أن أكتفى بأن أكون طالبة.. ورسم لى عالمًا محددًا أستطيع أن أكون فيه سعيدة.. وكنت سعيدة فعلا..

وتخرجت..

واشتغلت فى إحدى السفارات.. بمرتب خمسة وعشرين جنيهًا، إذا أضيفت إلى معاش أبى فقد أصبح دخلى خمسين جنيهًا..

إنى غنية..

إن الإحساس بالغنى سعادة أخرى..

سعادة كبيرة.. واطمئنان.. وهدوء بال..

ثم التقيت ببهجت..

كان بهجت هو حبى الثانى.. وكان يختلف اختلافًا كبيرًا عن حسين.. فبرغم أنه تخرج فى الجامعة واشتغل محاسبًا، إلا أنه كان يبدو فى حاجة إلىّ فى كل كبيرة وصغيرة.. أصبحت أنا التى أنتقى له ثيابه وربطة عنقه.. وأنا التى أحل له مشاكله مع رؤسائه ومع أمه.. وأنا التى أنتقى له الكتب التى يقرؤها.. بل أنا التى علمته كيف يبدو إنسانًا محترمًا كاملا.. مهذبًا..

وأحبنى بهجت فى وَلَهٍ.. كان عنيفًا مندفعًا فى حبه.. ولكن عقلى الكبير استطاع أن يسيطر عليه كما يسيطر علىّ.. فلم أندفع معه إلى أكثر من الحدود التى رسمتها لنفسى، والتى أصون بها نفسى من التعود على أن أطلق غرائزى الطبيعية.. دون أن أتأكد من مصيرى..

وطلبنى بهجت للزواج..

وكان يمكن أن أتزوجه..

ولكن.. أمه!

إن بهجت يقيم مع أمه ولا يستطيع أن يتركها.. وهو فى الوقت نفسه مقتنع بأنى لن أطيق أن أعيش معها إذا تزوجنا.. إنها

شرســة.. جاهلة.. لا يمكن أن تفهمنى.. ولا يمكن أن تعيننى على إقامة بيت سـعيد، أسعد فيه.. وحتى لو ضحى بهجت بأمه وقرر أن نقيم أنا وهو بعيدًا عنها، فهو سيبقى مسئولا عنها ماديًّا.. وهو لا يستطيع أن ينفق على بيتين.. بيتى وبيت أمه..

مشكلة لا حل لها..

ماذا أفعل..

هـل أجازف وأقنع بهجـت، بأن نقيم مع أمــه.. ثم أحاول أن أتحملهــا.. أو أحاول أن أخفف من شراسـتها.. ليه.. لماذا؟.. لماذا أضحى بعالمى السعيد، لأقتحم عالمًا لست واثقة من سعادتى فيه؟!.

عقلى الكبير يرفض هذه المجازفة.. هذا الاندفاع.

ورفضـت أن أتــزوج بهجت.. واسـتطعت أن أقنعــه بأن نبقى علــى حبنا فى حدود إمكانياتنا.. حب أقــرب إلى الصداقة الرائعة الحلوة.. وسر قوتى هو أنى لم أقبل أبدًا أن أنقاد إلى الحب إلى أبعد من هذه الحدود.

لــو أنى اندفعت مع بهجت.. لو أنــى تماديت معه بحيث أفقد سيطرة عقلى على قلبى وعلى جسدى، فربما قبلت زواجه، وعشت فى جحيم أمه.. يا حفيظ..

وأنا الآن فى الخامسة والثلاثين من عمرى..

عانس..

ولكنى سعيدة..

سـعيدة أكثر من سعادة ثمانين فى المائة من الزوجات اللاتى فى مثل سنى..

وسعادتى تنبع من عقلى، لا من قلبى، ولا من جسدى..

أتدرى ما يقوله الناس؟..

إنهم يقولون إنى لم أتزوج حتى لا أفقد معاش أبى..

أبدًا والله العظيم..

لا تصدقهم..

إنه معاش كبير.. خمسـة وعشرون جنيهًا فى الشهر.. ثلثمائة جنيه فى العام.. إيراد خمسة عشر فدانًا..

ولكن لا تصدق الناس..

أرجوك..

إنى سعيدة..

وهذه الدموع.. هى دموع سعادتى.. وفرحتى بعقلى الكبير..

* * *

أزمة المثقفين

عطيات.. عزيزتى:

وكان يجب أن أناديك: «زوجتى العزيزة».. ولكن، لا.. سواء كنت زوجتى أم لم تكونى.. فأنت دائمًا: عزيزتى، أنت دائما، عطيات العزيزة..

لقد كذبت عليك يا عزيزتى..

أنا لم أسافر إلى الإسكندرية لأتم بحثى عن البيروقراطية كما قلت لك.. أبدًا، البحث قد تم وستفاجئين به منشورًا فى الجريدة غدًا..

لم أسافر إلى الإسكندرية إلا لأكتب لك هذا الخطاب..

منذ متى وأنا أريد أن أكتب إليك؟

منذ سنتين..

ربما قبل أن ينقضى شهر العسل.. عسلنا!

وكنت طول هذه المدة أتردد فى الكتابة إليك، لأنى كنت فى كل يوم أكتشف فى نفسى شيئًا جديدًا أريد أن أطلعك عليه.. ثم لأنى لم أكن قد وجدت القرار الذى يجب أن أنتهى إليه بعد أن أطلعك على نفسى.. فلم يكن الأمر سهلا.. أبدًا ليس سهلا أن أحاول اكتشاف أغوار نفسى، وأن أكتشف الروابط بين عقلى الباطن وعقلى الصاحى،

ثم أكتشف الخيط الذى يربط بين ثقافتى وبيئتى.. لأنتهى من كل ذلك إلى القرار الذى يحدد مصيرى ومصيرك..

وقد انتهيت إلى القرار..

أمس فقط انتهيت إليه..

أرجوك.. لا تجرى فوق السطور بسرعة حتى تصلى إلى معرفة هذا القرار.. أرجوك.. أنا فى حاجة لأن تقرئى كل سطر من سطور خطابى وكل كلمة، بإمعان.. بكل عقلك.. فلا تجرى.. وسأطلعك على القرار منذ الآن، حتى لا تجرى..

القرار هو: أنت طالق..

نعم يا أعز الناس.. طلقتك!

هل صرخت؟

هل بكيت؟

هل غضبت؟

.. أرجوك يا عطيات.. فلم يكن بيننا أبدًا صراخ، ولا بكاء، ولا غضب.. لقد اختلفنا كثيرًا من قبل، وتعودنا أن نناقش خلافاتنا بالمنطق.. بالعقل وحده.. وكانت ثقافتى وثقافتك تحمينا دائمًا من العواصف النفسية التى يتعرض لها السوقة الذين لا تعينهم ثقافتهم على الوصول إلى أغوار النفس.. إلى البؤرة التى تنطلق منها العواصف، حتى يسيطروا عليها..

إنى أكتب لك هذا الخطاب بثقافتى..

فإن أى قرار مهما بلغت قسوته، يخفف منه الفهم.. وأنا أريدك أن تفهمينى، كما فهمت نفسى، حتى لا تتهمينى بالقسوة.. وحتى لا تعرضى نفسك للإحساس بالظلم.. وميلة البخت..

والآن..

الأسباب..

أسباب القرار الذى انتهيت إليه..

إن من حقك أن تعرفى هذه الأسباب بتفاصيلها.. ولكى أطمئنك.. أؤكد لك منذ الآن أنها ليست أسبابًا متعلقة بك.. أنت زوجة فاضلة.. أنت خير الزوجات.. أنت عصارة ما فى الحياة من غذاء.. غذاء الروح، وغذاء العقل، وغذاء الجسد.. أنت مشبعة ولكن الأسباب كلها متعلقة بى أنا.. أنا الذى كنت أخوض المعركة وحدى.. وكان يجب أن أكون أنا الذى أتخذ القرار.. وحدى أيضًا..

وسأضطر أن أعود إلى الوراء سنوات حتى لا تحتارى فى فهمي.. سأمر بسرعة.. فإن معظم أحداث حياتى تعلمينها، وإن كنت لم تفكرى فى ترتيبها، ترتيبًا مسلسلا بحيث تصل بك إلى قرار بالطلاق..

لقد تركت قريتنا فى مديرية قنا لألتحق بالجامعة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى.. وكانت نقلة كبيرة بين حياة القرية، وحياة القاهرة بالنسبة لى.. نقلة لم يسبقها إعداد نفسى، ولا إعداد عقلى.. وبهرت.. وبقيت ثلاث سنوات مبهورًا.. والبهرة تشل

كل انطلاق يمكن أن يندفع فيه شـاب فى مثل عمرى.. كانت بنات الجامعة والنساء اللاتى أراهن فى شوارع القاهرة، مخلوقات غريبة بالنسبة لى.. غريبة بالنسبة لأمى التى لا تخرج من بيتها، إلا وهى مختفية فى زعبوط يخفى حتى عينيها.. وغريبة بالنسـبة لأختى التـى حجزت بجانب أمها منذ كانت فى السـابعة، ولم تخرج من دارنا إلا إلى الدار الأخرى.. أقصد، دار زوجها.. وغريبة بالنسـبة لزينـة.. الفتـاة التى ذبحها شـقيقها لأنها أطلت علـى ابن عمها مكشوفة الوجه.

ولكن هذه البهرة.. وهذه الغربة.. بدأت تخف شـيئًا فشـيئًا.. ومنـذ أصبحـت فى السـنة الثالثة بكليـة الآداب، بـدأت أختلط بالبنات، وبدأت أجهد نفسـى فى أن أبحـث عن مبررات منطقية لتصرفاتهن مع الأولاد.. وبدأت كثير من هذه المبررات تتسـرب إلى منطقى.. وأصبحت أذهب مع البنات إلى الرحلات الجامعية دون أن أفقـد احترامى لهن.. وأصبحت أرى الواحدة منهن ترتدى بنطلونًا يبرز كل قطعة من جسدها، دون أن أفقد اقتناعى بها..

والواقع أن سـرعة اقتناعى بتصرفات البنـات، كانت تصحبها سرعة فى تحررى من إحساسى بالمسئولية عن المجتمع كله.. وعن مجتمع الجامعة بالذات.. كان إحساسـى الفردى قد بدأ يطغى على إحساسـى بالمجتمع.. وإحساسى بمسـئوليتى عن نفسى بدأ يسبق مسـئوليتى عن الناس وبنات النـاس.. بدأت أقبل البنات كما هن،

ما دام هذا لن يتسبب لى فى خسارة.. وما دمت لست مسئولا عن واحدة منهن..

أقول لك هذا، لترى الفرق بين الاقتناع والإحساس.. فالذى تغير فى هذه الفترة ليس اقتناعى، ولكنه إحساسي.. نتيجة تغير المجتمع الذى أعيش فيه.. ففى قريتنا كان إحساسي يشمل القرية كلها.. ولكن هذا الإحساس تقلص فى القاهرة، إلى أن أصبح إحساسًا فرديًّا..

وقد كان لى فى نهاية سنوات الجامعة، والسنوات التى أعقبتها، علاقات مع بنات كثيرات.. لم أحب.. بمعنى الحب الذى عرفته معك.. ولكنها كانت علاقات تستطيعين أن تسميها صداقة متحررة.. تصل إلى حد تبادل القبلات، وأكثر من ذلك قليلا.. وكنت أقبل هذه الصداقات أيضًا بإحساس اللا مسئول.. اللا مبالى.. وكان هذا الإحساس يترك على ذهنى غلالة رقيقة، أبدو بها كأنى مقتنع بهذا النوع عن العلاقات، وهذا النوع من البنات.. ولكنه لم يكن أبدًا - كما اكتشفت أخيرًا - اقتناعًا أصيلا..

ثم..

سافرت إلى باريس كما تعلمين، لأعد رسالة الدكتوراه..

وقد سافرت وأنا أرسم لنفسى عن باريس صورة العاصمة الإباحية، المنحلة، المتهتكة.. ولم تستطع قراءاتى الكثيرة عن عظمة الأدباء الفرنسيين أن تخفف من هذه الصورة.. فقد كان يخيل

إلىّ دائمًا أن هؤلاء العظماء ليسوا واقعًا.. إنهم تاريخ.. إنهم فى السماء.. أما باريس فهى مدينة منحلة، بلا عظماء، وبلا مبادئ..

ولكن عندما عشت فى باريس بهرت بثقافتها.. إن ثقافة باريس، وجديتها، وكفاحها فى سبيل رقى العقل البشرى، أمر واقع.. ليس تاريخًا.. إنه واقع باريس.. إن الثقافة على الأرصفة.. وفى المقاهى.. وفى البيوت.. وفى عقول كل البنات.. حتى العاهرات.. فإذا كان هذا الواقع الثقافى هو الذى فرض مظاهر الانحلال على باريس.. فلا يمكن بعد هذا أن يسمى انحلالا.. أبدًا.. هذا الذى يسميه الناس انحلالا، ليس سوى انتصار العقل.. انتصار الثقافة.. إنه التقدم الذى يصنعه الإنسان..

واقتنعت بباريس..

بكل ما فى باريس..

وانتهيت من الدكتوراه فى خلال عامين.. نلتها مع درجة الشرف.. ولكنى بقيت فى باريس لأعد دكتوراه أخرى..

وتزوجت كما تعلمين..

تزوجت زميلتى فى الجامعة.. فرانسواز..

ولم تكن فرانسواز عذراء.. عرفت أنها ليست عذراء من قبل أن أتزوجها، وبرغم ذلك تزوجتها.. لم أفكر لحظة واحدة فى أنها ليست عذراء.. إن ثقافتى رفعتنى كثيرًا فوق هذه التوافه.. عذراء.. ماذا يعنى أن تكون الفتاة عذراء أو ليست عذراء..لا شىء.. لا شىء

بالمرة.. ولم يكن هذا الموضوع قط مثار نقاش بينى وبين فرنسـواز.. ولا حسب أحدنا حسابه.. لم أحس أنها نقصت حتة، لأنها ليست عـذراء.. أبـدًا.. أبدًا.. ليـس هناك ما أعانيه لا فـى عقلى ولا فى إحساسـى.. وكل ما عرفته عن فرانسواز أنها كانت تحب شابًّا قبل أن تلتقـى بى، ثم هجرته.. وبرئت من حبـه.. وحتى هذا لم يُثر فـىّ أدنى تردد فى الزواج بها.. لمـاذا.. إن من حقها أن تحب.. لم يكن معقولا، ولا منطقيًّا أن تبقى حتى تلتقى بى وهى فى السـابعة والعشـرين من عمرها، دون أن تحـب.. دون أن يكون فى حياتها رجل..

وقضيت معها ثلاث سنوات من أسعد سنوات عمرى..

إنى لم أنكر سعادتى معها، عندما حدثتك عنها.

ثم..

ماتت فرانسواز.. فى حادثة..

ولم أناقش موتها.. فمناقشـة الموت جدل سفسـطائى.. والحزن على الموت حزن عقيم.. سـخيف.. تنطلق إليه العواطف الجاهلة.. لا العواطـف المثقفة.. ولكنى ناقشـت وحدتى بعدهـا.. وتعذبت بوحدتى.. وحزنت لوحدتى.. ليسـت وحدة جسدى، ولكن وحدة عقلى، ووحدة روحى ومزاجى وثقافتى.. فقد كانت زميلة روحى، وزميلة مزاجى.. وزميلة ثقافتى..

وعدت بعدها إلى القاهرة..

عدت ومعى باريس..

باريس فى عقلى ، وفى قلبى..

وقررت أن أشتغل فى الصحافة حتى أفيد بثقافتى عددًا أكبر من طلبة الجامعة.. حتى أساهم فى رفع المستوى الثقافى بين أهل مصر.. حتى أنتشلهم من أحاسيسهم الجاهلة، وأخرجهم من وراء قضبان المنطق العتيق الذى يحبس أفكارهم، ويحبس أحاسيسهم، ويحرمهم من متعة الانطلاق فى عالم أوسع وأرقى.. أوسع من الأسوار البالية التى أقاموها حولهم، وأرقى من التفاصيل الصغيرة التافهة التى يعيشون فيها..

إلى أن قابلتك..

وكانت ثقافتك أرقى بكثير من الشهادة الجامعية التى تحملينها..

ولا أزال أذكر أول كتاب قررنا أن نقرأه معًا.. لقد قررنا أن نعيد قراءة كل أعمال جان بول سارتر.. ويعيد كل منا تقييمه لها.. ولا أزال أذكر التعليقات التى كنت تتركينها على هوامش الكتب التى أقرؤها بعدك.. كانت تعليقاتك كأنها تسجيل لأرائى.. كأنك تتلمذت على يدى.. لقد ارتبطت بك ثقافيًّا قبل أن أرتبط بك عاطفيًّا أو جسديًّا..

ولم يكن لجسدينا دور فى هذه الفترة.. لا أدرى، هل عن تعمد منك.. أم لأن ظروف لقائنا لم تكن تتيح لنا التعبير عن حاجة

جسدينا..

المهم..

لقــد عرضــت عليك الــزواج، ولم أكن قد قبّلتــك أكثر من ثلاث مرات.. واحدة فقط على شفتيك.

وترددت أنت قليلا، ومرت سحابة قائمة على عينيك، ثم قلت:

- دعني أفكر؟..

ودهشــت.. فيم تريدين التفكير.. إذا كنــا قد ارتبطنا ثقافيًّا إلى هذا الحد، وأدى بنا الارتباط الثقافي إلى ارتباط عاطفي.. فماذا بقي لتفكري فيه..

وقلت لك في دهشة:

- تفكرين في ماذا؟..

ونظرت إلى طويلا.. نظــرة ملؤها الحيرة.. وقلت وصوتك ينضح بالعذاب:

- أريد أن أقول لك شيئًا..

قلت والدهشة تستبد بي:

- ماذا؟

قلت وأنت تحنين رأسك:

- إني لست عذراء..

وأذكر ساعتها أني ضحكت ضحكة كبيرة، وقلت:

- وماذا يعني هذا؟

قلت:

- ألا يعنى هذا شيئًا؟..

قلت وآثار ضحكتي بين شفتي:

- لا.. لا يعني شيئًا..

ولكنى عندما أجبتك، قفز فى رأسى شىء لم أكن أتوقعه.. كأنى تذكرت فجأة أنى فى مصر، ولست فى باريس.. نعم.. طوال هذه الشهور التى مضت منذ عدت من باريس.. أكثر من عام.. لم أتنبه إلى أنى أصبحت أعيش فى مصر لا فى باريس.. لم أتنبه إلا عندما صرحت لى بأنك لست عذراء.

إن فرانسواز لم تصرح لى بأنها ليست عذراء - لم تكن تعتقد أن هذا شىء يستحق أن تصرح به إلىّ..

إن فرانسواز.. باريس..

وأنت.. القاهرة..

وقد صممت أنت يومها على أن تروى لى قصة وكيل مكتب والدك الذى اعتدى عليك وأنت فى الثانية عشرة من عمرك.. وكيف أن أحدًا لا يعلم بخبر هذا الاعتداء.. لا والدك.. ولا أمك.. لا أحد يعلم أنك لست عذراء سوى وكيل المكتب.. وانا..

ولم أكن أريد أن أسمع قصتك.. ولم يكن يهمنى أن أسمعها.. سواء كان الرجل قد اعتدى عليك، أو أنك كنت قد استسلمت له بإرادتك.. فهذا لا علاقة له بنا..

وقد عدت تقولين، كأنك تصرين على إقناعى:

- كنت أستطيع أن أخفى عنك كل هذا.. وكنت أستطيع أن أجرى عملية جراحية تجعل منى عذراء مزيفة، حتى لا تكتشف شيئًا بنفسك.. ولكنى فضلت أن أطلعك على الحقيقة ما دمت تريد أن تتزوجنى..

وأجبتك:

- إنك تتكلمين كالجاهلات.. كأنك فتاة قروية.. ماذا يعنى كل هذا الذى تقولينه.. لا يعنى شيئًا أبدًا.. إنى أريدك كما أنت .. بتجاربك.. إن هذه التجارب هى التى كونت الشخصية التى أحبها.. ثم إنك تنسين أنى إنسان مثقف.. وأنى عشت فى باريس..

وابتسمت أنت ابتسامة مسكينة..

ثم وافقت على الزواج..

ولكنك بعد أن تركتنى.. وجدت نفسى يومها أتعرض لتيارات ذهنية كأنها تهب على من عالم سحيق.. بعيد.. عالم ظننت أنى تحررت منه.. هربت منه على أجنحة ثقافتى.. ووجدت نفسى، برغم إرادتى أناقش موضوع الفتاة العذراء من جديد.. كأنه موضوع فوجئت به.. وأخذت أقنع نفسى كأن فى داخلى تلميذًا يتلقى المبادئ الأولى للفكر المتحرر.. قلت لنفسى إن حرية الجسد لا تختلف بين المرأة والرجل.. وقلت لنفسى إن الفتاة التى فقدت عذريتها ليست أقل شرفًا من الفتاة العذراء.. الشرف لا يمكن أن يعلق على قطعة

واحدة من الجسـد، ثم نترك باقى الجسد حرًّا يفعل ما يشاء، دون أن يفقد شرفه.. وقلت إن الشرف هو شرف الروح، والعقل.. شرف الضمير.. وشـرف الكلمة.. وقلت إن المرأة ليسـت زجاجة مسدودة بالشمع الأحمر، مكتوب عليها: «لا تفتح إلا بمعرفة الزوج».. قلت لنفسى كلامًا كثيرًا..

وكان عقلى مقتنعًا طبعًا بهذا الكلام..

ولكن بقى فى نفسى شىء يقلقنى..

وأصارحـك اليوم بأنى تزوجتك كنـوع من التحدى لهذا القلق.. تحدى نفسـك.. تزوجتك لأنصر ثقافتى على هـذا المجهول الذى يعيش داخلى ويقلقنى..

وكنت واثقًا أن ثقافتى ستنتصر فى النهاية..

ولكنى منـذ اليوم الأول لزواجنا.. ربما بعد أن التقى جسـدانا لأول مرة، مباشـرة.. اكتشفت أن الأمر بالنسبة لى ليس سهلا كما كنت أتصور.. وأن ثقافتى قد لا تنتصر.. فقد وجدت نفسى ساعتها أتمنـى لو أنك كنت عذراء.. إنى لا أعرف ما هو الفرق الحسـى أو العاطفى الذى يمكن أن أشـعر به لو أنـك كنت عذراء.. فلم يكن لى من قبل فتاة عذراء.. ولكنى وجدت نفسى أفكر فى هذا الرجل الذى اغتصبك وأنت صغيرة.. ولم أكن أشـك فى قصتك التى رويتها لى.. لم يخطر على بالى أنك كذبت علىّ.. أو.. لم يكن هذا يهمنى.. سواء صدقتـك أو كذبتك.. كان كل ما يهمنـى أن هناك رجلا آخر أخذك

قبلى.. وأخذك بلا زواج.. وكنت أتصور هذا الرجل.. أتصوره بشعًا كريهًا، ثم أشـعر بكراهية عنيفة نحوه.. ثم أشعر بهذه الكراهية تدفعنـى إلى التفكير فى ارتكاب جريمة.. أريـد أن أقتله.. نعم.. أريـد أن أقتـل.. تمامًا كأى فلاح من قريتنا يكتشـف ليلة الزفاف أن زوجته ليسـت عذراء.. أنا.. أنا.. أنا الذى أحمل فى عقلى وفى ضميرى كل هذه الثقافة.. الكنوز الهائلة التى تحوى كل مسـتقبل الإنسان.. أنا.. أفكر كفلاح قريتنا..

ولكن فرنسواز أيضًا لم تكن عذراء..

وحاولت أن أقنع نفسى بأنك كفرنسواز..

وحاولت أن أقنع نفسى بأنى ما زلت فى باريس.

ولكن، لا..

مستحيل..

أنت عطيات.. ليست فرانسواز..

وأنا فى القاهرة.. لست فى باريس..

ولكن ما هو الفرق؟..

لـماذا أمنح فرانسـواز حقوقًا، لا أسـتطيع أن أمنحها لك بنفس البساطة؟..

لماذا لا أكون فى القاهرة، كما كنت فى باريس؟

فكرى معى..

لماذا؟..

ربما لأن جذورى تمتد فى مصر إلى بعيد.. إلى جد جدى.. إلى آخر أجدادى.. وليس لى جذور فى باريس..

وربما لأن المجتمع الذى كان يحيط بى فى باريس يختلف عن المجتمع الذى يحيط بى فى القاهرة.. لإنى لا أستطيع أن أرى الجلاليب فى الشارع، وباعة الترمس، ثم أتصور نفسى فى باريس.. وقد كنت فى باريس أساير مجتمعها حتى فى تقاليده.. وأستسلم له.. ولكنى - وأنا فى القاهرة - لو فعلت ما كنت أفعل فى باريس، وآمنت بما آمنت فى باريس، فإنى لا أستسلم للمجتمع، بل أتحداه.. وأنا لا أستطيع أن أتحدى المجتمع.. ثقافتى لا تمنحنى القوة الكافية لأتحداه..

وربما.. ربما لأنى لا أشعر بمسئوليتى عن مجتمع باريس.. ولكنى أشعر بمسئوليتى عن مجتمع مصر.. فلم يكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل باريس، ولكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل مصر..

وربما لأن فرانسواز عندما فقدت عذريتها، لم تفقدها وهى تحس أنها ترتكب خطيئة.. أما أنت فقد اعتبرت نفسك ضحية.. واعتبرت نفسك موصومة بالخطيئة..

وربما.. وربما.. عشرات «وربما»..

والمعركة تشتد فى داخلى..

وقد اكتشفت أثناء هذه المعركة أنى تنازلت عن كثير من منطق ثقافتى التى تلقيتها فى باريس..

لقد كنت فى باريس أعجب بفن الليدو والفولى برجير.. الفن العارى.. وكان الجسد العارى فى نظرى ليس كشفًا عن عورة، ولكنه تعبير عن جمال.

ولكنى عندما عدت إلى مصر كتبت دون أن أدرى مقالا أهاجم فيه نجمة سينمائية كشفت عن ساقيها فى أحد الأفلام.. وكنت فى باريس أقرأ لسارتر.. وألبرتو مورافيا.. وتنسى وليامز، دون أن أحس بأن أحدًا منهم قد خدش ناموس الأخلاق وهو يكتب ويصف المشاهد الجسدية، بصراحة، ولكنى بعد أن عدت إلى مصر أصبحت أصب كل لذعة قلمى على أى كاتب يدمج فى إحدى قصصه مشهدًا جنسيًّا.. و.. و.. تحولات كثيرة.. أو هى انحرافات طرأت علىّ منذ عدت من باريس، وكان أقواها أنى أحاسبك بينى وبين نفسى، لأنك لست عذراء..

والمعركة التى تدور فى صدرى لا تريد أن تسكت.

ويومًا بعد يوم أفقد ثقتى فى نفسى.. وفى ثقافتى..

وبدأت أشعر بأنى منافق كبير.. وأنى أضحك على الناس بهذه الشهادات التى أحملها.. بأنى لست مثقفًا.. عقلى ليس مثقفًا، وقلبى ليس مثقفًا، وإحساسى ليس مثقفًا.. الثقافة فى ذاكرتى فقط.

كأنى مقرىء من مقرئى القبور، أحفظ آيات القرآن وأتلوها مائة مرة فى اليوم، ولكنى لا أعمل بها، ولا أحس بها..

وقد لاحظت أنت شرودى الدائم.. ولاحظت القلق المرتسم دائمًا فى عينى.. وحاولت جهدك أن تخففى عنى، ولكنك لم تستطيعى لأنك لم تكونى تدرين سبب هذا الشرود وهذا القلق.. وربما لاحظت أيضًا أنى بدأت أتردد كثيرًا على قريتنا فى الصعيد.. كنت أذهب إلى هناك وأجلس بجانب أمى، وأستريح.. أستريح من ثقافتى.. وأشعر أنى فى مكانى..

أتدرين..

لقد اكتشفت أن كل هذه الثقافة التى أحملها، ليست سوى كتاب أضعه فى جيبى، وأخرجه كلما أردت أن أستعين به فى كتابة مقال لجريدة.. كل هذه الثقافة ليس لها أثر فى منطقى، ولا فى نفسى.. إنها شىء اشتريته.. ووضعته فى جيبى..

وهزمت أمام نفسى..

وكان يجب كى أستريح أن أفعل ما كان يفعله جدى..

أن أطلقك..

فأنت لست فرانسواز..

أنت عطيات..

فرانسواز كان من حقها ألا تكون عذراء..

أما أنت.. فلا..

حبيبى أصغر منى

أنا زوجة طلقت ثلاث مرات..

إنهم ليسوا ثلاثة رجال.. ولكنه رجل واحد طلقنى ثلاث مرات..

طلقنى.. لا.. أنا التى كنت أطلب الطلاق فى كل مرة..

وكنت أحبه.. ولكن حبى كان يصطدم بكرامتى.. وكرامتى كان يجرحها إصراره على أن يقضى ليلتين من كل أسبوع مع أصدقائه.. وأصدقاؤه كلهم عزَّاب.. هذا الصنف المستهتر من الشبان.. وأكثر من مرة ضبطت أثرًا من آثار لهوه مع أصدقائه.. آثار أحمر شفاه فى منديله.. آثار بودرة فوق قميصه.. ودائمًا أضبط هذه الآثار فى صباح الليلتين اللتين يقضيهما مع أصدقائه..

وحاولت أن أبعده عن أصدقائه.. فلم أستطع.. حاولت أن أقنعه بألا يسهر وحده.. فلم أستطع.. ثم طالبت أخيرًا بأن يكون لى الحق فى أن أسهر وحدى خارج البيت فى الليلة التى يسهر فيها.. لم لا.. إنى أؤمن بالمساواة.. أنا موظفة مثله.. وأكسب مثله.. فلماذا لا يكون لى نفس الحقوق التى يمنحها لنفسه.. ولكنه كان يرفض.. ويصر على أن أبقى فى البيت وحدى..

وكنت أستطيع أن أخونه كما يخوننى.. أن ألهو مثل لهوه.. ولكنى لم أفعل أبدًا.. كنت أشعر بالتقزز كلما تصورت نفسى لرجلين فى وقت واحد.. جسدى يقشعر لمجرد أن أتخيل رجلا آخر يلمسنى غير زوجى..

لم أخنه.. ولكنى طالبته بالطلاق صونًا لكرامتى..

وطلقنى.

قضيت ستة أشهر وأنا مطلقة.. وبرغم ذلك لم أحاول أن يكون لى رجل آخر.. أبدًا، لم أحاول، رغم كل الإغراء الذى يحيط بكل شابة مطلقة جميلة.. كنت أعتبر نفسى فى كل يوم من الشهور الستة، كأنى ما زلت زوجته.. برغم الحرمان الشديد الذى كنت أعانيه..

ثم أعادنى إليه..

ووعدنى أن يغير من نفسه..

وعدت إليه.. ملهوفة إليه..

ولكنه لم يفِ بوعده..

عاد كما كان..

وقاومت الصراع الذى اشتعل من جديد بين كرامتى وحبى.. قاومت طويلا.. إلى أن غلبتنى كرامتى.. فطلبت الطلاق مرة ثانية..

وطلقنى..

وعشت مطلقة سنة كاملة.. لم أحاول أيضًا أن يكون لى خلالها رجل آخر.. بل لم أحاول أن أتزوج.. اعتبرت نفسى أنى لا أزال

زوجتـه.. وتحملت الحرمان القاسـى.. وكنت أضحك على نفسـى عندما تشـتد بى قسـوة الحرمان، وأتخيل أن زوجى مسافر.. وأنه سيعود.. ويجب أن أحتمل إلى أن يعود..

وقد عاد..

أعادنى إليه.. وأسـرعت عائدة تحت ضغط عذاب الحرمان.. لم يكـن الحب وحده هـو الذى أعادنى.. ولكنـه الحرمان.. الحرمان الطويل المر..

ووعد..

ولكنه أيضًا لم يف بوعده..

وقد فكـرت فى هذه المرة أن أخونه، حتـى أتخلص من الصراع بين حبى وكرامتى.. ولكنى اكتشفت أن الخيانة الزوجية ستفقدنى الاثنـين.. الحـب، والكرامـة.. وخـير لى أن أحتفـظ بأحدهما.. واخترت أن أحتفظ بكرامتى.. وطلبت الطلاق..

وطلقنى للمرة الثالثة..

هذه المرة أصبح الأمر مختلفًا.. فإنى لن أستطيع أن أعود إليه إلا بمحلل.. رجل آخر يتزوجنى قبل أن أعود إليه..

فهل أسـتطيع أن أتزوج رجـلا آخر.. لا.. لا أسـتطيع إذا كان الزواج لمجرد أن أعود لزوجى الأول.. لا أستطيع حتى إذا كان هذا «المحلـل» رجلا صوريًّا.. مجرد إجـراء رسمى على الورق.. أحس أنى سـأظل موصومة بهذه الورقة الرسميـة إلى الأبد.. إذا لم تترك أثرًا فى جسدى، فإنها ستترك أثرًا فى إحساسى.. فى كرامتى..

وبرغم ذلك، بعد أن مرت الشـهور.. شـهور الحرمان.. بدأت كرامتى تلين.. وبدأت أتصور أنى أستطيع أن أقبل على نفسى إجراء «المحلل»..

ولكن زوجى لم يعد إلىّ..

سافر..

سافر إلى بعيد..

وبدأ الأمل يذوب.. وبدأت أحس أنى أنتقل إلى عالم آخر..

عـالم ليس فيه الرجل الذى كان زوجًا لى.. وليس فيه أصدقاؤه.. وليـس فيه أهله.. وليس فيه بيجامتـه المخططة.. ولا فمه المفتوح الذى يتثاءب به كل صباح..

وقـد انتقلت فعلا إلى عالم جديـد.. مجتمع جديد يضم زميلاتى وزملائـى فى العمـل.. وأصدقاء جـدد.. وجوه جديـدة.. وعادات جديدة.. وأصبحت أخرج فى رحلات.. وأسـهر سـهرات بريئة.. سهرات ثقافية..

ولكنى بقيت دائمًا السيدة الفاضلة..

لم أخطئ أبدًا..

ولم أفكر فى الخطأ إلا بعد أن عرفت صلاح..

كان صلاح إنسانًا رقيقًا.. مهذبًا.. فنانًا.. مثقفًا.. وقد شعرت به منذ أول لقاء لنا، كما لم أشعر برجل آخر ممن يحيطون بى..

واحترت في بادئ الأمر في تفسير شعوري نحوه.. فهو مختلف عـن زوجي الأول.. مختلـف عنه في كل شـيء.. زوجي الأول لم يكن رقيقًا، ولا مهذبًا، ولا فنانًا.. كان عنيفًا، ماديًّا، يسـيطر على جسدي أكثر مما يسـيطر على روحي.. وكنت أحبه.. فكيف أحب رجلا آخر مختلفًا عنه..

وبددت الأيام حيرتي..

إني أحبه..

أحب صلاح..

ولكن.. ماذا أفعل بهذا الحب.

إن صـلاح أصغر مني بأربع سـنوات.. ولا يمكن أن أتزوج رجلا يصغرني بهذا الفارق الكبير.

وصلاح يريد أن يتزوجني..

لا..

لن أتزوجه..

لو تزوجته فسـأصدم فـي زواجي الثاني أكثر ممـا صدمت في زواجـي الأول.. لقد كانت مصيبتي في زواجي الأول أن زوجي كان يكبرني بعام واحد.. فماذا يحدث إذا كان يصغرني بأربع سنوات.. إني واثقة أن صلاح سيشعر بفارق السن بعد اليوم الأول من الزواج.. إنـه يقول الآن إن فارق السـن لـن يكون له أثر.. ولكـن هذا كلام يقوله قبل الزواج.. وكل الرجـال يقولون قبل الزواج ما لا يقولونه بعد الزواج..

لا لن أتزوج..
إذن ماذا أفعل..
هل أكون له بلا زواج؟
مستحيل..

لقـد مضى على علاقتى به أكثر من سـتة أشـهر دون أن أمنحه نفسي.. ولم يكن هذا سهلا علىّ.. أبدًا لم يكن سهلا.. إنى أعانى من كل دقيقة فى عمرى.. فـى كل دقيقة أريده.. كله.. وفى كل دقيقة أقـاوم ما أريد.. وأضغط على أعصابـى لأحتمل الحرمان.. الحرمان القاسـى.. حرمان تشـتد قسـوته كلما نظرت فى عينيه المتلهفتين إلىّ.. وكلما لمحت شـفتيه الظامئتين إلى شـفتى.. وكلما لمست يده السـاخنة يدى المرتعشـة.. وكلمـا احتكت كتفـه المزدحمة بقوته بكتفى المحرومة..

وبرغم ذلك..
قاومت..

قاومت لأنى كنت أعلم أنى لو أصبحت لصلاح بلا زواج، فسيكون سهلا علىّ بعد ذلك أن أكون لأى رجل بعد أن يتركنى صلاح..

خير لى أن أتعود على حرمان جسـدى، من أن أتعود على ابتذال جسدى..

لا يا صلاح.. لنبقَ أصدقاء..
واضطر صلاح أن يكتفى بصداقتى..

كنا نخرج سويًا كل يوم.. نتمشى على النيل.. ونزور أصدقاءنا.. ونرقص.. ونتناقش.. ونقرأ كتبًا.. ونشترك في الرحلات الجماعية..

ومازلنا مجرد أصدقاء..

إني أحبه..

وهو يحبني..

ولكننا مجرد أصدقاء..

وكانت تمر بي أيام أثور فيها على هذه الصداقة.. أيام أطالب فيها لنفسي بحقها في الحب.. ولجسدي بحقه في الارتواء.. ولكن عقلي كان يخمد ثورتي.. اعقلي يا «بت».. لا تتزوجيه، حتى لا تعيدي تجربتك مع زوجك الأول.. ولا تروي جسدك بلا زواج.. وإلا عودت جسدك أن يشرب بلا حساب..

إلى أن كان يوم..

وقال لي صلاح ونحن جالسان في حديقة كازينو قصر النيل..

- شهيرة.. إني أفكر في الزواج.. لم أعد أحتمل وحدتي..

ونظرت إليه بعينين متغطرستين.. وقلت:

- سنعود إلى سيرة الزواج.. ألم نتفق أن نكون أصدقاء..

قال في هدوء:

- إني أقصد الزواج نفسه.. أي زواج..

وانطلق الذعر من عيني.. ولكني بسرعة ضبطت أعصابي، وقلت وأنا أحاول أن أجاريه في هدوئه:

- ماذا تقصد..

قال مبتسمًا:

- ألسنا أصدقاء..

قلت:

- نعم..

قال:

- وأنـت أقرب صديقة إلى.. بل إنـك أكثر من صديقة.. فإن أمى كما تعلمين، ماتت..

قلت:

- إنى أحب أحيانًا أن أكون أمك..

قال:

- إذن.. اخطبى لى.. أى واحدة تعجبك..

وضغطت على أعصابى بكل إرادتى، وقلت من تحت أسنانى:

- بس كده.. حاضر..

وبدأت أعرض عليه أسماء بنات أعرفهن، وأنا أقنع نفسـى بأنه فقط يريد أن يغيظنى.. ثم قلت له وأنا أدّعى اللا مبالاة:

- ما رأيك فى ابنة خالتى.. لقد عرفتك بها من قبل..

وقال:

- إنها حلوة..

قلت:

– وسنها مناسبة.. ثمانية عشر عامًا.. أصغر منك بست سنوات..

قال:

– فارق معقول..

قلت:

– وذكية.. ومثقفة.. وست بيت..

قال:

– ودمها خفيف..

قلت:

– سأكلم أمها..

ومازلت معتقدة أن صلاح يغيظنى.. لا يمكن أن يكون جادًّا فى الزواج.. لماذا يتزوج.. إنه يستطيع أن يستغنى عن الزواج كما أفعل أنا..

ولكن.. هل استغنيت أنا عن الزواج..

لا..

ولكنى كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أتزوج رجلا يكبرنى كثيرًا.. لا تقل سنه عن خمسة وأربعين عامًا.. مركز.. وثروة.. وأخلاق.. رجل أستطيع أن أستقر معه، وأن تهدأ حياتى معه..

ولكن صداقتى لصلاح كانت تؤجل تنفيذ قرارى يومًا بعد يوم.. فلماذا لا يؤجل هو الآخر قراره.

ولكنه يلح على لأتصل بخالتى..

وانتابتنى نوبة من العناد، والغطرســة الكاذبة، واتصلت فعلا بخالتــى، وعرضت عليها «صــلاح» زوجًا لابنتهــا «تيما».. دلع، فاطمة..

ورحبت به خالتي..

ورحبت به فاطمة..

وكاد الكمــد يقتلنى.. ولكنى بقيت على عنادى، وغطرســتى.. أقوم بدور الخاطبة لصلاح.. بل إنى دعوته ودعوت تيما وأمها على الشاى فى بيتى.. بيت أهلى..

وأنا أنتظر فى كل يوم أن يعدل صلاح عن رأيه..

ولكنه لم يعدل..

وهو يفوضنى فى الســير فى إجراءات الخطبة.. ويستعجلنى!!

وقلت له والمرارة تشق حلقى:

– الرجال لايؤتمنون.. منذ شهرين فقط كنت تريد أن تتزوجنى أنا..

قال:

– أنت رفضت..

قلت:

– لأنى أكبر منك.. وزواجنا لا يمكن أن يدوم..

قال:

– معقول..

قلت:

– لقد اكتشفت غلطتك بدليل أنك تريد أن تتزوج الآن تيما.. تتزوج والسلام.. أى واحدة..

قال:

– الرجل فى حاجة إلى زواج.. والتوفيق بيد الله.. وأنا أصغر منك، ولا أصلح لك.. وقد يوفقنى الله مع تيما..

قلت:

– فعلا.. خير ما فعلت..

و..

وتحدد يوم إعلان خطبته إلى تيما..

وأنا أتعذب.. وأطوى عذابى فى كبريائى الكاذبة.. وابتسامة مرة أضعها على شفتى كلما رأيت صلاح.. وكلما رأيت تيما.. ثم أبكى فى فراشى.. وأصحو ذابلة.. كل شىء فى يذبل.. عيناى.. شفتاى.. قلبى.. عقلى.. أعصابى.. لقد نقص وزنى ثلاثة كيلو فى شهر واحد..

وصلاح يسألنى:

– ما بك..

وأرد فى كبرياء:

– لا شىء.. عاملة رجيم..

و..

وذهبنا أنا وصلاح نشترى دبلتى الخطوبة..
انتقيت الدبلتين بنفسي.. ودموعى مختبئة تحت جفنى..
ورفع الصائغ رأسه إلينا وسألنى:
- الاسم من فضلك.
وترددت قليلا.. ثم قلت:
- صلاح..
وعاد الصائغ يسأل:
- والاسم الثانى..
وفتحت شفتى، وهمست فى صوت خفيض:
- شهيرة..
اسمى أنا..
وسمع صلاح همستى برغم خفوتها، وصرخ فى الصائغ:
- شهيرة.. الاسم الثانى شهيرة..
ورفع إليه الصائغ عينيه كأنه يسأله لماذا هو فرح إلى هذا الحد.. إلى حد الصراخ..
والتقط صلاح يدى وضغط عليها، وعاد يقول للصائغ فى هدوء:
- العروسة اسمها شهيرة.. والعريس اسمه صلاح.. والتاريخ تاريخ النهاردة..
ثم جذبنى..
وسار بى كأنه يجرى..

ودفعنى فى أول سـيارة أجرة.. وذهب بى مباشرة إلى المأذون.. كتبنا الكتاب.. بلا خطبة.. أغنتنا فترة الصداقة عن فترة الخطوبة..

أتدرى ماذا تقول خالتي..

إنها تقول إني خطفت عريس ابنتها..

إنها لا تعلم شيئًا..

ولا تعلـم أنــى أعيش خائفــة.. الخوف يمزقنــى.. فحبيبى.. زوجى.. يصغرنى بأربع سنوات.

* * *

استقالة عالمة الذرة

سيدى الوزير..

صباح الخير..

هذا خطاب استقالة.. وكنت أستطيع أن أكتب استقالتى فى كلمات قليلة.. «أرجو التفضل بقبول استقالتى لأسباب خاصة.. وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام».. وقد فكرت فعلا فى أن أرسل إليك استقالتى فى هذه الكلمات القليلة، حرصًا على الطابع الرسمى بين الوزير وإحدى موظفات وزارته.. ولكنى تذكرت ما يمكن أن تسببه لك استقالتى من ألم.. وتذكرت برقيتك التى أرسلتها إلى وأنا فى أمريكا، بعد أن نلت شهادة الدكتوراه فى علوم الذرة من جامعة هارفارد.. لم تكن برقية وزير، كانت برقية أخ كبير، ومازلت أذكر كلماتها حتى اليوم: «عزيزتى عنايات، إنى فخور بك».. كلمات ملأت قلبى بالفرحة.. أحسست أن مصر كلها فخورة بى.. وأن كل من فى مصر أخ لى وأب وابن عم.. وكلهم فرحون بى.. ثم تذكرت الحياة التى عشتها بعد أن عدت، وعينت فى المعهد القومى للبحوث.. لم تكن حياة موظفين، كانت حياة تسودها روح العائلة الواحدة.. ربما لأن العلم يرفعنا جميعًا فوق روتين الحياة الرسمية التى يعيشها الموظف العادى داخل جدران

الـوزارة.. وربما لأننا كعلماء نحس أننا أضعـف بكثير من الكون الهائل الذى يسعى العلم لاكتشافه، فنشعر بحاجتنا إلى أن نقترب بعضنا من بعض، عقليًّا وعاطفيًّا، لنتساند ويحتمى أحدنا بالآخر، حتـى لا نضيع فى هذا الكون الهائل.. وربما لأنك وأنت عالم كنت تنسى دائمًا أنك وزير.. فكنت معنا أخًا وصديقًا..

لذا.. لم أكن أستطيع أن أكتب استقالتى فى كلمات رسمية قليلة.. حقك علىّ يتطلب منى أن أسرد لك كل مشكلتى.. بتفاصيلها.. إنها تفاصيل لا تهمك كوزير.. وربما أضحكتك كعالم يسـتغرق العلم كل رأسه.. ولكنى واثقة أنها تهمك كأخ كبير.. وواثقة أنك بروح الأخ تستطيع أن تقدر وتفهم كل ما سأرويه لك..

تبدأ المشـكلة يا أخـى الوزير، منذ أن تزوجـت.. وانتقلت أنا وزوجـى إلى بيتنا الصغير فى عمارة السـعودية المطلة على النيل.. لقـد أحببت هذا البيـت.. وضعت فيه كل أحلامـى، وكل ذوقى، وكل حنانى، ولكن البيت لم يشـغلنى أبدًا عن العمل.. كنت أنساه بمجرد أن أصل إلى المعهد وأرتدى المعطف الأبيض وأقف أمام مائدة البحـث.. لا، لا.. لم أكن أنسـاه، ولكنى كنـت أخبئه فى قلبى، وأترك قلبى ينام بين ضلوعى، ويبقى عقلى وحده صاحيًا.. يعمل.. وتذكر سـيادتك أنى كنـت منكبة خلال هذه المـدة على التجارب الخاصـة بتأثير النظائر المشـعة، فى علاج مرض تسـوس العظام، وفى كل يوم.. فى الساعة الثانية تمامًا.. كنت أشعر بقلبى يستيقظ

مـن نومه، ويأخذنـى من فوق العظـام المسوسـة، ويذهب بى إلى بيتـى.. بيتى الـذى أحبه.. ولم أكن أصـل إلى البيت قبل زوجى، كما هو المفروض.. غالبًا كنت أذهب بعده، برغم أن سـيادتك أمرت بتخصيص سـيارة لتوصيلنا إلى منازلنا.. ولم يكن زوجى يغضب.. أبدًا.. فأنت تعرف أنه أسـتاذ الألكترونيات فى كلية الهندسـة.. عقله واسـع.. تلقى علومه فى سويسـرا.. ويستطيع أن يقدر حلاوة الحياة التى يعيشها زوجان يشغلان بالعلم..

وكنـت أجده عادة، قد أعد المائدة ووضـع الطعام، الذى طهوته فى الليل، على البوتاجاز، ليسخن.. ونضحك ونحن نأكل.. وأروى له ما وصلت إليه فى بحثى عن تسـوس العظام، ويروى لى ما وصل إليـه فى بحثه عـن الألكترونيات.. ثم نقوم ونغسـل معًا الصحون والأوانى.. ثم يخرج زوجى إلى الشـركة التى يعمل مستشارًا لها، بعد الظهر.. وأعود أنا إلى المعهد.. ولم يكن نظام العمل يضطرنى إلى العودة إلى المعهد، ولكنى كنت متحمسة لأن أنتهى من بحثى، حتى أجعلك تفخر بى مرة ثانيـة، كما افتخرت بى يوم نلت الدكتوراه بدرجة امتياز..

هكذا كنت أعيش أنا وزوجى..

لم أفكر أيامها فى أن أسـتأجر خادمة.. أبدًا.. كنت أخاف على بيتى من الخادمات.. ولم أكن فى حاجة إلى خادمة.. كنت أفضل أن أعيش على نمط الحياة العائلية فى أمريكا.. أنا وزوجى نتعاون فى

خدمة أنفسـنا.. وفى كل يوم جمعة كنت أدعو البواب ليعاوننى فى تنظيف البيت نظافة كاملة..

إلى أن حملت يا سيادة الوزير..

هل رفعـت حاجبيك وأنـا أحدثك بهذا الـكلام.. لا تنسَ أنى امـرأة.. صحيح أنى أشـتغل فى علـوم الذرة.. وصحيـح أنى نلت الدكتـوراه.. وصحيح أنـى قضيت ثلاثة أرباع عمـرى بين الكتب والمعامـل.. ولكن كل هذا لا يعنى أنى لسـت امـرأة.. لا يعنى أنى أصبحـت عقلا ألكترونيًا.. ولا يعنى أنى أصبحت رجلا، مثلك، أو مثل زميلى الدكتور عوض..

إنى امرأة.. ولأنى امرأة رفضت أن أستعمل أى دواء يمنع الحمل. برغـم أنى قدرت أن الحمل قد يشـغلنى عن انهماكى واندفاعى فى بحث تأثير النظائر المشعة فى علاج تسوس العظام..

أتدرى ماذا كان أول ما فكرت فيه بعد أن حملت؟

خادمة..

لم أكن أسـتطيع أن أضـع أى تنظيم لحياتى بعـد الوضع، دون الاسـتعانة بخادمـة.. ولم أكن أتصور أن الخادمـة يمكن أن تكون مشكلة.. أبدًا.. لم أكن أتصور هذا..

وكنت حاملا فى الشهر الخامس عندما أوصيت البواب أن يبحث لى عـن خادمة.. أو على الأصح مربية.. وقد مضى أكثر من أسـبوع دون أن يرسل لى البواب أحدًا.. وعدت أسأله، فقال وهو يهز رأسه فى أسى:

- أصلهم عزاز قوى اليومين دول يا ست هانم..

ولم أصدقه.. اعتقدت أنه كسلان.. وبدأت أوصى زملائى، وأقارب زوجى، أن يبحث لى كل منهم عن مربية، أو خادمة..

وأخيرًا.. بعد شهر.. جاءتنى زينب.. امرأة فى الثلاثين من عمرها.. ضاحكة الوجه.. مليئة بالصحة والعافية.. نشطة..

وفرحت بها..

عاملتها، أحسن مما يعامل أصحاب الملايين الأمريكان خادماتهم.. أعددت لها سريرًا فى الحجرة التى أعددتها للمولود المنتظر.. وخصصت لها أربع ملاءات سرير، لتغيرها فوق سريرها.. و.. و.. لن أضيع وقتك يا سيادة الوزير، فى هذه التفاصيل النسائية.. ولكنى كنت أعامل زينب، كأنى رزقت بها قبل أن أرزق بطفلى.. وأعدّها لتحمل معى الأمانة الكبيرة.. أمانة تربية الطفل..

وعاشت معى زينب شهرين.. وفى كل يوم أثق فيها أكثر، إلى درجة أنى سلمتها كل مفاتيح البيت.. وكنت أعود من المعهد لأجد كل شىء معدًّا لى ولزوجى.. كأنى أعددته بنفسى.. بل إنى تحسرت على الأيام التى ضاعت من عمرى قبل أن تدخل زينب بيتنا..

وفى يوم..

خرجت زينب فى إجازتها الأسبوعية لتعود فى اليوم التالى.. ولكنها لم تعد.. ومر اليوم الثانى والثالث ولم تعد.. وارتعش قلبى.. لم أعد أستطيع أن أنيمه بين ضلوعى، ليتفرغ عقلى للبحث فى تأثير النظائر المشعة على مرض تسوس العظام..

ثم عادت زينب..
عادت لتبلغنى أنها لن تعود..
- ليه يا زينب؟
وأجابت وهى خجلة من بشاعة الجرم الذى ترتكبه فى حقى:
- أصل جوزى رجعنى يا ستى..
قلت وأنفاسى تتلاحق:
- وماله يا زينب.. ما يرجعك وتفضلى برضه معانا..
وخبطت على صدرها قائلة:
- يا خبر يا ستى.. أنا جوزى ما يرضاش انى أشتغل أبدًا.. ده أسطى مكوجى قد الدنيا..
وقلت، وأنا أتوسل لها بعينى:
- وهو الشغل عيب يا زينب.. مانا بشتغل أنا كمان..
وقالت زينب:
- لأ يا ستى.. مش ممكن.. أنا جوزى حاجة تانيه غير البيه بتاعك..
وغلبت فى إقناعها.. إلى أن قلت فى يأس:
- طيب خليكى لغاية مالاقى واحده تانيه..
وقالت:
- معلش والنبى يا ستى.
قلت:

– بس الأصول انك تدينى إنذار، القانون بيقول كده..

ونظرت إلىّ كأنها تتحفز للدفاع عن نفسها:

– قانون إيه يا ستى.. أنا لا سرقت، ولا قلت.. و..

ولا أطيل عليك يا سيادة الوزير.. خرجت زينب من خدمتى.. هل يمكن أن تشعر بما شعرت به يوم خرجت زينب.. لا.. فأنت لست امرأة.. لعل السيدة زوجتك تستطيع أن تقدر حالى.. حالة زوجة صغيرة على وشك الوضع تركتها خادمة مثالية..

وبدأت أبحث عن خادمة أخرى..

كأنى أبحث عن كنز من كنوز الفراعنة..

وبعد أسابيع أرسلت لى زوجة ابن عمى خادمة.. عصمت.. ولم أسترح لعصمت منذ رأيتها.. كانت فى العشرين من عمرها.. تحس بجمالها.. ونظراتها وقحة..

وبعد يومين بدأت تختفى أشياء صغيرة.. قلم روج.. فوطة.. قميص.. كرافتة.. وبعد أسبوعين قررت أن تختفى عصمت من حياتى.. طردتها..

ثم أرسلت لى أمى من الإسكندرية مربية عجوزًا.. أم سنية.. واسترحت لها فى بادىء الأمر.. ولكنها كسولة.. غبية.. قذرة.. عملت طول حياتها فى بيوت لا تهتم اهتمامى بنظافة بيتى ودقة نظامه.. ووجدت نفسى بعد أيام أنظف ورائها.. طبق طعامها الذى تلقيه فى الحوض وتتركه ساعات قبل غسله.. ثيابها المبللة دائمًا

التى تفـوح منها رائحة العطـن.. وكانت تأكل كثـيرًا.. لم أرَ فى حياتى يا سـيادة الوزيـر عجوزًا تأكل كل هذا الأكل.. وأنا لسـت بخيلـة.. ولكن هذه المرأة تأكل بلا نظام.. تأكل كلما وجدت شـيئًا تأكله..

وتقززت منها نفسى..

وطردتها..

ثم وضعت ابنتى..

وضعتها وليس عندى مربية أو خادمة..

وتذكر سـيادتك أنى أخـذت أيامها إجازة شـهرين، قضيتهما وأنـا أفكر كيف أدبر حياتى وحياة ابنتـى، فى الوقت الذى أعمل فيه بالمعهد القومى للبحوث، وأتفرغ بعقلى لعلاج تسـوس العظام بالنظائر المشعة.

وكنت أقدر عملى.. لم يكن عملى مجرد مساهمة منى فى نهضتنا العلمية، بل كان هوايتى.. كان حياتى..

وابنتى أيضًا حياتى..

وفكرت.. فكرت كثيرًا..

فكرت أن أرسل ابنتى إلى أمى فى الإسكندرية لتربيها.. ولكنى أمّ يا سـيادة الوزير.. ولا تسـتطيع أم أن تتنـازل عن ابنتها حتى لأمها..

فكـرت أن أقنع أمى بـأن تأتى وتقيم معى فـى القاهرة.. ولكن مستحيل.. لا أستطيع أن أربك حياة أمى إلى هذا الحد..

فكرت أن أضع ابنتى فـى دار من دور الحضانة.. ولكن أين هى دار الحضانة التى أسـتطيع أن أضع فيها طفلة فى شهرها الثالث، وأنا مطمئنة.. ليس عندنا دور حضانة..

فكرت أن أطبق نظام «رعاة الأطفال» أو «البيبى سيتر» المطبق فى أمريكا.. ولكننا فى مصر، ولسنا فى أمريكا..

فكرت.. فكـرت.. وكان كل تفكيرى منحصـرًا فى تدبير حياة ابنتى، بحيث أتفرغ لرسـالتى الكبرى.. رسالة استغلال الذرة فى سبيل سعادة الإنسان..

ولم يهدنى تفكيرى إلا إلى أن أعود وأبحث عن مربية من جديد..

وجاءت.. سـعدية.. شـابة سمراء مدربة.. فرحـت بها، كما فرحـت بزينـب.. ومنـذ اليـوم الأول اطمأننت علـى ابنتى بين يديها.. ودفعت لها الأجر الذى طلبته.. كنت قد قدرت لها خمسة جنيهـات، ولكنهـا طلبت سـبعة ودفعت لها السـبعة.. وقطعت إجازتـى.. وبدأت أذهـب إلى المعهد.. صحيح أنى لم أعد أسـتطيع أن أتفرغ بـكل عقلى للبحث الذى أقوم به.. ولكنى كنت مطمئنة.. مطمئنة على ابنتى بين يدى سعدية..

ولكن..

بعد شهر واحد..

شـــهر واحد يا سيادة الوزير.. عادت ســعدية من يوم إجازتها وطلبت حسابها لتخرج من خدمتى:

وصرخت:

- ليه يا سعدية.. حد زعلك.. ناقصك حاجة..

وقالت:

- أبدًا يا مدام.. بس الجماعة اللى كنت عندهم عايزينى تانى.. وأنا الحقيقة متربية عندهم..

ولا أمل..

وقـال لى البـواب بعد أيام إنهـا لم تذهب إلى بيـت مخدومها السـابق، بل ذهبت لتعمل فى العمارة المجاورة، عند عائلة رفعت أجرها إلى تسعة جنيهات.

وعدت وانقطت عن العمل لأجلس مع ابنتى..

فكرت أيامها أن أطلب منك أن تسـمح لى بأن أعمل بعد الظهر، حتـى أبق مع ابنتى فـى الصباح إلى أن يعود زوجـى، فأتركها له وأذهب إلى المعهد.. ولكن.. مستحيل.. مستحيل أن أطلب من زوجى أن ينقطع عن عمله فى الشركة التى يعمل فيها بعد الظهر.. ثم إنها مسئوليتى أنا، وليست مسئولية زوجى..

وبدأت أستقبل خادمات جددًا..

فتحيـة.. كانت صريحة.. لم تبـق إلا ثلاثة أيام، ثم جاءت إلى واعترفـت أنها كانـت متقدمة بطلب للعمل فى مصنـع.. وقد قبل طلبها..

وخرجت..

ثم أخيرًا..

خديجة..

كانـت خديجة صغـيرة.. فى الثامنة عشـرة.. حلـوة إلى حد أنـى غرت من جمالها.. وجاءت إلى تلبـس بلوفر «موهير» وجيب ترجـال، وحذاء فرنى بكعب عال.. كلهـا مظاهر تخيفنى منها.. ولكـن لماذا أخاف.. إن الخادمات فى أمريكا يبدون أكثر أناقة.. ثم إن خديجة لها ابتسامة تفتح القلب.. وقد فتحت قلبى..

ومرت أيام، وأنا لا آخذ على خديجة إلا كثرة تطلعها فى المرآة.. وكثرة وقوفها فى شرفة البيت.. ولكنها كانت حنونًا على ابنتى.. وكانت تعرف كيف تداعبها.. وكيف تجذب النوم إلى عينيها..

وبدأت أواظب على الذهاب إلى المعهد..

ولكنى لم أكن مطمئنة..

أصبحت أعمل بنصف عقلى.. أحيانًا بربع عقلى.. وأحيانًا يضيع عقلى كله، وأسـرح وراء ابنتى.. وأتسـاءل.. هل ناولتها خديجة رضعة الساعة الثانية عشرة.. هل هى بجانبها الآن.. هل.. هل..

وفى يوم..

كنت فى المعهد.. وكنت منكبة فوق الميكروسكوب أفحص العظام المسوسة.. وفجأة شـعرت بنغزة فى قلبى.. قلب الأم.. شعرت بأن شيئًا قد حدث لابنتى، ولم أحاول أن أتساءل عن سر هذا الشعور..

لم أحــاول أن أكذبه.. وقفت جامدة برهة.. ثم انطلقت وأنا ما زلت أرتــدى المعطف الأبيض، وجريت إلى خارج المعهد، وركبت تاكس وعدت إلى البيت.. والهلع يشتد فى قلبى دقيقة بعد أخرى.. وأصرخ فى السائق..

– قوام من فضلك يا أسطى..

إلى أن وصلت..

وجريت إلى المصعد..

وجريت من المصعد إلى داخل الشقة..

وسمعت شــيئًا كالصــراخ.. صراخ ضعيف.. ووضــح الصراخ فى أذنى وأنا أقترب من غرفة ابنتى.. ابنتى تصرخ..

ورأيتـها..

واقعة من فوق سريرها على الأرض..

والحمد لله لقد كان تحت السرير سجادة سميكة، وإلا كان رأسها قد تهشم..

وانحنيت عليها ملهوفة.. جزعة..

الحمد لله.. سليمة..

ولا أدرى مــا حــدث لى.. ولكنــى تركت ابنتى علــى الأرض، لم أرفعها لأضعها على الســرير، وجريــت كالمجنونة أبحث عن خديجة.. ووجدتها واقفة على ســلم المطبخ مع شاب يبدو عليه أنه طالب.. وقبل أن أفكر.. وجدت نفســى أندفــع إليها وأرفع ذراعى وأنهال عليها ضربًا، وأنا أصيح:

– يا مجرمة.. يا مجرمة.. امشى اطلعى برة..

اطلعى من بيتى..

وجرى الشاب من أمامى.

وخرجت خديجة من بيتى..

حدث هذا أمس..

واليوم أجلس لأكتب لك هذا الخطاب..

لأستقيل..

سيدى الوزير..

أرجوك.. لا تحاول أن تذكرنى بواجبى نحو بلدى، ونحو نهضتنا العلمية.. ولا تذكرنى بالسنين الطويلة التى قضيتها لأجعل من نفسى إنسانة تستطيع أن تخدم وطنها فى مجال لم يتسع بعد لكثير من المواطنين. لا تذكرنى بالسلام.. وتقدم الإنسان.. فإنك لا تستطيع أن تضع كل ذلك فى كفة ثم تضع ابنتى فى الكفة الأخرى.. وتجعلنى أختار.. مستحيل.. إنك تنسى أنها ابنتى.. وأننى أمّ.. وقد أستطيع أن أستقيل من واجبى كعالمة فى الذرة، ولكنى لا أستطيع أن أستقيل من واجبى كأم..

والذنب ليس ذنبى.. إنه ذنب الدولة.. ذنب المجتمع.. إن الدولة عندما تشترى آلة جديدة فإنها تخصص لها عمالا يعاونونها على العمل.. واعتبرنى آلة.. ولكن عندما بدأت هذه الآلة تعمل لم تخصص لها الدولة عمالا يساعدونها حتى تؤدى عملها على الوجه الأكمل..

الدولــة لا تســتطيع أن تطالبنــى بالعمــل إلا إذا طمأنتنى على راحةابنتى.. وحياتها..

وأرجوك يا ســيادة الوزير.. أرجــوك إذا صممت على أن ترفض استقالتى، أن تبحث لى أولا عن مربية لطفلتى، وتضمن لى أن أطمئن عليها..

وتفضل أيها الأخ الكبير بقبول خالص تحيتى.

* * *

كلام ستات

لا أدرى لمــاذا قــررت أن أعمــل «رجيم».. إنى لســت سمينة.. ومدام أسبريدون الخياطة تقول إن قوامى يجنن، وإنى أصلح لأكون موديــلا.. مانيكان.. وإنها تعتبر كل ثــوب تصنعه لى دعاية لها.. وحتــى لو كانت مدام أســبريدون تنافقنى.. فإنى أســتطيع أن ألمح جمال قوامى فى عيون الرجال إذا استثنيت زوجى..

وبرغم ذلك قررت أن أعمل رجيمًا.. ربما لأنه لم يكن لى شــىء آخر أعمله.. وكان من ضمن الرجيم أن أمشــى فى كل يوم ســاعة.. لتنشــيط الدورة الدموية.. ولم أكن أســتطيع أن أمشى وحدى.. ولا مع زوجى.. فــى قدم زوجى «كالّو» ولا يحب المشــى.. فاتفقت مع صديقتــى، روحية وإنجى، أن نمشــى معًا.. كل يــوم.. ابتداء من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الرابعة.. فى الشمس الدافئة..

روحية رفيعة.. ومشــاكلها كثيرة.. وربما وافقت على ممارسة رياضة المشى، كرجيم لعقلها أكثر منه رجيمًا لجسدها..

وإنجى.. تعتقد فى نفســها أنها جميلــة، يابختها فالمرأة التى تعتقد فى نفســها أنها جميلة امرأة سعيدة ولم تكن إنجى أيضًا فى حاجة إلى رجيم.. وربما لم تكن تحب المشــى.. ولكنها قطعًا تحب الاستعراض!!

وأنا أحب روحية وإنجى.. إنهما أعز صديقاتى.. ونحن الثلاثة نثير حسد كل النساء بصداقتنا والحب المتبادل بيننا. كل منا تعرف عن الأخرى كل شىء.. بل إنى أستطيع أن أقلد شخير زوج روحية وهو نائم، وأستطيع أن أعرف النقود التى يحملها زوج إنجى فى جيبه كل صباح.. إنها تعطيه كل صباح خمسين قرشًا.. كمصروف خاص.. وهما لا يعرفان عنى أى شىء.. لا لأنى أتعمد أن أخفى عنهما شيئًا.. ولكنى لا أحب أن أتحدث عن حياتى الخاصة.. كل ما يعرفانه هو الكالو الذى يتألم منه زوجى..

المهم..

خرجنا فى اليوم الأول.. كنت أرتدى ثوبى البرتقالى الصوف.. صوف مصرى، وكأنه صنع باريس.. كل صديقاتى اعتقدن أن زوجى اشتراه لى من باريس.. مدام اسبريدون الخياطة أيضًا. برغم أنها تعتبر خبيرة فى الأقمشة، اعتقدت أنى اشتريته من أوربا..

وكانت روحية ترتدى الجيب الأسود الذى أراه عليها منذ عامين.. جيب ترجال.. لا أدرى كيف تطيقه كل هذا العمر.. وبلوزتها الخضراء.. والجاكت الجلد التى تبدو فيها كسائق الأتوبيس.. غلبت فى أن أجعل روحية تهتم بثيابها.. إنها بخيلة.. ولا تشترى إلا ما يحتمل السنين.. ولكنها طيبة والنبى.. إنى أحبها..

وهلت علينا إنجي وهى ترتدى بنطلون «ستـرتش» لونه أحمر، وبلوفر أسـود.. والنبـي ده كلام.. ده احنا طالعين سبور.. مش رايحين حفلة.. يبقى لازمة البنطلون إيـه.. ولكن هكذا إنجي.. إنها تعتبر نفسـها صغيرة.. نونو.. مع أنها ليسـت أصغر من ابنة خالتى عدلية.. إلا بستة أشهر.. ولكن إنجي دمها خفيف.. إنى لا أستطيع أن أستغنى عنها يومًا واحدًا.. حبيبتى.. صاحبتى..

وقد صحبت معى كلبى روك.. ليمشي معنا.. إن المسكين محبوس في الشقة طول النهار والليل.. حرام.. وقد قالت لى روحية بمجرد أن رأت روك:

– ولازمة روك إية.. عامل رجيم هو راخر..

وأجبتها:

– علشان يبقى معانا راجل على الأقل!!

إنى سريعة النكتة:

وبما أنى صاحبة فكرة الرجيم، فقد بدأت أدرب روحية وإنجى على طريقة المشى الرياضى.. أفردى ظهرك.. اشفطى بطنك.. ارفعى رأسـك.. وأحكمت وضـع نظارتى على عينى.. وبدأنا نسـير نحن الثلاثة، كثـلاث فدائيات.. إن النظارة تجعل لى شخصية قوية.. وإنجى تغار من نظارتى..

وكنا قد اخترنا أن نمشـى فى شـارع النيل ابتداء من عمارة أبو الفتوح حتى كوبرى عباس.. إن صديقتى عزة حرم محمد فهمى مدير

شركة الصاروخ، تسكن في عمارة أبو الفتوح.. وقد اشترت خاتمًا من عند باروخ في الأسبوع الماضي، وقالت إنها اشترته بثلثمائة جنيه.. عزة تحب المبالغة.. إنها لطيفة ومهذبة، ولكن عيبها هو المبالغة.. وقد ساومت باروخ منذ شهرين على نفس الخاتم وطلب فيه مائة وخمسن جنيهًا، ولكنى لم أشتره، لأنى سبق أن رأيت مثله في أصبع فريدة هانم.. ولكن روحية تقول إن عزة لم تشترِ الخاتم، ولكنها أخذته هدية من صديقها عبد العزيز..

- حرام عليكي يا روحية..

وقالت روحية وهي تمشي مشية الفدائيات:

- حرام ليه يا اختى.. الحق يتقال.. وعزة مزوداها حبتين.. دى ما بتحترمش جوزها أبدًا.. زى ما يكون مش عايش معاها..

وقالت إنجى:

- دمه تقيل عبد العزيز ده.. وعنيه لايده على الستات.. ده ما بيبطلش بص..

إن إنجى تعتقد أن كل رجل يطمع فيها، حتى أزواج صديقاتها.. وحتى أصدقاء صديقاتها.. يا بختها.. إنى لست مغرورة، ولكنى أحيانًا أحسد المغرورات..

وقلت:

- حرام عليكى يا إنجى.. ده راجل مؤدب، وما بيرفعش عينه عن الأرض..

وقالت إنجى وهى تنظر فى نظارتى:
- صدقينى.. أنا عارفاه كويس، ومستعدة أحكى عنه للصبح.. بس انتى اللى مبتخديش بالك..
وقالت روحية:
- سيبكم من عزة وعبد العزيز.. تعرفوا اللى حصل لخديجة..
وقالت إنجى:
- مين خديجة دى؟
وقالت روحية:
- خديجة شكرى:
وقالت إنجى:
- آه قصدك دودى.. مالها.. حصل لها إيه.. دى صاحبتى قوى..
وقالت روحية:
- مش اكتشفت ان جوزها واخد شقة لواحدة طليانية..
وقالت إنجى:
- السافل.. كل الرجالة كده..
وقلت:
- يا روحية.. خافى ربنا.. بلاش سيرة الناس..
وقالت روحية:
- أمال حانتسلى فى إيه.. وأصل دى حاجات ما ينسكتش عليها..

وقالت إنجى:

- على كل حال دودى معملتش شوية.. هى المحقوقة.. ده كان جوزها لازم يطلقها من زمان.. وأهو بدل ما يطلقها، عرف عليها..

ومرت بجانبنا سيارة فيها بعض الشبان.. يبدو أنهم من طلبة الجامعة واحد منهم شعره أصفر.. والثانى تخين وشكله مضحك.. والثالث جالس على حافة نافذة السيارة وجسمه خارج منها..

وصاح الأشقر:

- البنطلون الأحمر يكسب..

وابتسمت إنجى..

إن إنجى لا تستطيع أن تمشى مشية رياضية.. إنها تمشى كأنها فى عرض أزياء.. وبنطلونها يبرز كل قطعة من جسدها.. عيب.. ميصحش.. وبرغم أنها طيبة، ودمها خفيف، إلا أنها أحيانًا تزودها حبتين..

إنى لا أطيق الشبان الشقر.. إنهم أقرب إلى البنات..

وعادت روحية تقول:

- وتعرفوا خديجة عملت إية.. راحت بنفسها على الشقة.. وهجمت على البنت الطليانية ونزلت فيها بأديها ورجليها.. مخلتش فيها..

وقالت إنجى:

- ياى..

وقلت:

- تبقى غلطانة.. كان لازم تحترم نفسها.. ثم إن الست ذنبها إيه.. الذنب ذنب الراجل.. والحساب يبقى مع الراجل..

وعادت روحية تقول:

- ما هى حسنية كانت أعقل يوم ما ظبطت جوزها.. تعرفوا عملت إيه..

وارتفع صوت رجل من ورائها يقول:

- أموت فى الشيش بيش..

إنى أحتقر الرجل الذى يتلهف على قوامى.. إنى أعرف أن قوامى مثير، ولكن الرجل يجب أن يضبط أعصابه.. ولكن.. كيف رأى هذا الرجل نظارتى وهو يسير خلفنا..

وحيرنى هذا السؤال..

وقالت روحية:

- يوم ما حسنية عرفت ان جوزها..

وقبل أن تتم، انطلق كلبى روك يجرى وراء قطة..

وصرخت:

- روك.. روك.. تعالى هنا.. بقولك تعالى هنا..

وصاح الرجل الذى يسير وراءنا.

- ما تزعليش يا قطة.. الكلب حايرجع لك.. كل الكلاب تحت أمرك..

وفجـأة وقفت بجانبنا سـيارة.. وأطل منها وجـه رجل، وقال مبتسمًا:

– إنجى هانم..

وشهقت إنجى، ثم التفتت إلينا وقالت فى ارتباك:

– ده محمود بن عمى..

وقالت روحية وهى ترفع حاجبها الرفيع:

– ابن عمك من إمتى!

وقالت إنجى:

– اخص عليكى ياريرى، مش مصدقانى.. تعالوا أعرفكم بيه..

وقلت:

– لأ.. لأ يا إنجى محبِّش أتعرف بحد فى الشارع..

وقفزت إنجى نحو السـيارة وصافحت الرجل المبتسم، وأخذت تتحدث معه..

إنه رجل عجـوز.. أكبر من إنجى بكثـير.. وإن كانت روحية تؤكد أنه لا يتجاوز الأربعين من عمره..

وعادت إنجى إلينا بعد حديث طويل، وقالت:

– عـن إذنكم يـا جماعة.. محمود بيقول إن مـرات عمى عيانة قوى، ولازم أروح أقعد جنبها..

وقلت فى حدة:

– إحنا متفقناش على كدة يا أنجى..

وقالت إنجى:

- وأنا إيــه كان عرفنى ان مرات عمى عيانــة.. ده محمود كان جاى لى البيت دلوقتى، علشان يقول لى..

وقالت روحية:

- حلال عليكى يا ستى..

وقالت إنجى ضاحكة:

- لا والنبــى يا روحية.. متبقيش وحشــة أمــال.. أنا بعد نص ســاعة حاكون فى البيت.. يدوبك أطل على مرات عمى وأرجع على طول..

وقفزت إنجى فى السيارة بجانب الرجل المبتسم.

ومشــيت أنا وروحية.. مشية رياضية.. الظهر معتدل.. والبطن مشفوط.. والرأس مرفوع.. وبيننا صمت ووجوم..

وعاد روك من وراء القطة، وسار بجانبى..

وقطعت روحية الصمت قائلة:

- بأه دى عمايل تعملها إنجى..

وقلت لها:

- ما انتى عارفة إنجى يا روحية.. يعنى مش عارفاها..

وقالت روحية:

- بــس مش كــدة.. طيب ده انــا ممدوح قعد يتحايــل على فى التليفــون إنه ييجى معانا، مرضتش.. وقال لى إيه حايمشــى ورانا

بالعربية برضه مارضيتش، قلت له إن شفتك مش حيحصل لك طيب.. أصل كل جاجة، لها أصول.. الواحدة متكونش بالشكل ده..

قلت:

- إنتى لسه بتعرفى ممدوح..

قالت:

- أعمل إيه.. مش راضى ينكشح أبدًا.. مش سايبنى أتنفس لوحدى..

والرجل لا يزال يسير خلفى، وقال بعد أن كح كحة غليظة:

- أجيب تاكسى أنا كمان..

وقلت لروحية:

- شفتى الراجل بيقول إيه.. طبعًا.. بعد ما شاف اللى عملته إنجى، من حقه يتجرأ علينا..

وقالت روحية:

- إنما تعرفى أن ممدوح مخلص صحيح.. ده شاف منى الويل.. وبرغم كده مخلص..

قلت:

- بس انتى حقك تعقلى بأه يا روحية.. ده ضفر جوزك بعشرة زى ممدوح..

وقال الرجل الذى يسير خلفى:

– يعنـــى لازم أجيب عربية ملاكى.. بكـــره ربنا يفرجها.. أنا موظف فى وزارة التموين.. وكلها شهرين وأكمل حق العربية نصر ١١٠٠..

وقالت روحية:

– ومـــين قال لك انى أقدر اســتغنى عن جـــوزى.. حقه ملكيش حـــق.. إنما أعمل إيـــه.. ما هو كمان قاعد فى مكتبـــه ليل ونهار.. ويخرج سرحان، ويرجع سرحان..

وقال الرجل الذى يسير خلفى وهو يصفر لروك:

– روك.. روك.. تعالى أما أقول لك كلمة تقولها لستك..

وإذا بروك يذهب إلى الرجل فعلا..

والتفت خلفى وأنا أصيح فى عصبية:

– روك تعالى هنا..

ولكن روك يلحس يد الشباب، ويهز له ذنبه..

وقال الشاب وهو يرفع إلى عينيه:

– أنا نفسى أصاحب روك.. عندك مانع..

وقلت فى حدة:

– من فضلك.. أنا معرفكش..

ثم استدرت للشباب، وقلت لروحية:

– ياللا بينا نرجع يا روحية..

إنه شـــاب صغير.. لا يزيد على الثانيـــة والثلاثين.. وهو يضع نظارات مثلـــى.. ولكن نظارته أسمك بكثير مـــن نظارتى.. وعيناه

تطـلان من خلفها، كأنهما نجمتا الصباح.. وشـاربه صغير أنيق.. ولكن حلته لا تعجبني.. ذوقها بلدى.. وكرافتته تقرف.. ويشـبك فيها دبوسًا.. إنى أكره الرجل الذى يشبك دبوسًا فى كرافتته..

* * *

وعدنا إلى البيت..

وقـد اتصلـت بإنجى بمجرد وصـولى فلم أجدها قـد وصلت إلى بيتها.. واتصلت بها بعد سـاعة أخرى فلم أجدها قد وصلت.. وفى الساعة الثامنة مساء اتصل بى زوجها فى التليفون وقال فى ضيق:

– إنجى عندك..

وبلغت ريقى وقلت:

– كانت عندى هى وروحية، ولسـه نازلـين دلوقتى.. زمانها جايالك.. أصلنا خرجنا نتمشـى علشـان الرجيم، وبعدين عزمتهم على الشاى عندى.. وازيك يا رحمى بيه.. أخبارك إيه..

وقال رحمى بيه:

– كويس.. بونسوار بأه..

ووضع السماعة..

إنى أكره نفسـى عندما أضطر أن أكذب.. وإنجى تضطرنى دائمًا لأن أكذب..

وفى اليوم التالى خرجت لأتمشـى أنا وروحية.. لم نأخذ إنجى معنـا.. حتى لا يبوظ الرجيم.. بل إنـى من يومها قاطعت إنجى..

تصـوروا.. أنها تذيع عنى فـى كل مكان أنى أحب موظفًا فى وزارة التموين.. يضع على عينيه نظارة.. ويشـبك فى كرافتته دبوسًـا.. وعنده سـيارة نصر ١١٠٠.. بل إنها تقول إنى أنا الذى اشتريت له السيارة..

أعمل فيها إيه يعنى..

ربنا يسامحها..

* * *

فهرس

الموضوع	الصفحة
١ - علبة من الصفيح الصدئ	٥
٢ - كل هـذا الحب	٥١
٣ - الله الله.. ياسـت	٧٣
٤ - المدرسـة الحديثة	٨٣
٥ - غابة من السيقان	٩٥
٦ - عبد الله وفاطمة	١١٣
٧ - كل هذا الجمال	١٢٥
٨ - اكتشاف الألمونيوم	١٣٧
٩ - الهزيمة	١٥٣
١٠ - لا تذبحوا الفراخ	١٧١
١١ - صائد الغزال	١٨٣
١٢ - القضية الأخيرة	١٩٧
١٣ - الحب والعدالة	٢٠٩
١٤ - وسام للمتهم	٢١٩
١٥ - غلطة حبيبى	٢٢٩
١٦ - العقل الكبير	٢٤١

الموضوع	الصفحة

١٧ - أزمة المثقفين ٢٥١
١٨ - حبيبى أصغر منى ٢٦٧
١٩ - استقالة عالمة الذرة ٢٨١
٢٠ - كلام ستات ٢٩٥